سارق الاحتمالات

رواية



رضا الحكيم الشعيري

رضا الحكيم الشعيري

سارق الاحتمالات

رواية

سارق الاحتمالات

رضا الحكيم الشعيري

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف © 2026

الفهرس

القسم الأول

الأول — شيكات بني مكادة 7

الثاني — ساعة القنصل 19

الثالث — غرفة دافئة في يناير 32

الرابع — الجرد 46

الخامس — فنجانان 58

السادس — واحد في الألف 71

السابع — مكالمة التاسعة 84

القسم الثاني

الثامن — ملف جاهز 98

التاسع — غبار على الصندوق 110

العاشر — امرأة بلا اسم 121

الحادي عشر — الميناء 133

الثاني عشر — ما لم آخذه 144

الثالث عشر — جرس لم يُفتح له 155

الرابع عشر — ما حفظته الصورة 166

الفهرس — تتمة

القسم الثالث

الخامس عشر — ما محاه الوقت 178

السادس عشر — الرقم الذي عاد 188

السابع عشر — الصوت وما لا يقوله 198

الثامن عشر — من يعرف الطريق 209

التاسع عشر — اسم في خانة 218

العشرون — ما لا يقوله الأخضر 229

الحادي والعشرون — ما يصل متأخرًا 238

القسم الرابع

الثاني والعشرون — الرجل الذي عاد 257

الثالث والعشرون — قبل وصولها 271

الرابع والعشرون — الساعة الثانية 286

الخامس والعشرون — ما تركته في الخزنة 302

السادس والعشرون — الأسماء أولًا 316

السابع والعشرون — الغرفة التي كانت دافئة 331

الثامن والعشرون — مكان لمن يعود 351

سارق الاحتمالات

القسم الأول



الفصل الأول

شيكات بني مكادة

طنجة، الجمعة 9 يناير 2026

عاد الحارس قبل أن يبرد الشاي.

رأى إدريس السراج البخار يتصاعد من الكأس الموضوع على حافة مكتب المحاسب، وسمع المفتاح يدور في الباب الخارجي. كان قد حسب أن أمامه وقتًا يكفي لقراءة الأسماء مرة ثانية. الآن صار عليه أن يختار بين إكمال القراءة ومواجهة رجل لا يعرف عنه إلا أنه يقضي استراحته في المقهى المقابل، ويترك نصف قطعة سكر في صحنه.

حفظ نصف قطعة السكر، وفاته ما قد يعيد الرجل إلى عمله. خطا إلى الممر، والظرف البني تحت معطفه، فوجد الحارس يقف أمامه حاملاً خبزتين وعلبة دواء. كان أكبر مما بدا من النافذة، بلحية خفيفة لم يُحسن حلاقتها، وعينين حمراوين من السهر. توقفت عيناه عند باب المكتب المفتوح خلف إدريس.

قال: «أين السي عبد الجليل؟»

كان صوت الرجل متعبًا، خاليًا من الارتياب في اللحظة الأولى. رفع إدريس يده عن زر معطفه، كأنه تراجع عن إغلاقه بسبب دفء الممر، وأجاب بأن عبد الجليل خرج، وأنه ينتظره منذ بعض الوقت.

أعاد الحارس النظر إلى المكتب. خلا الطابق إلا منهما. من الطابق السفلي وصل صوت عجلة حديدية تُسحب على الأرض، يعقبه ارتطام باب ورشة. أصوات عرفها إدريس خلال الأيام الماضية، وحفظ

الفواصل بينها، حتى ُخّيل إليه أنه يعرف المكان. لكنه لم يحفظ ما يفعله رجل يعود من استراحة ناقصة وفي يده دواء.

«لم يقل لي إن أحًدا سيأتي.»

أخرج إدريس هاتفه، وأبقى شاشته معتمة تحت إصبعه. كان يستمع إلى تنفس الحارس، ويرى كيف أغلق البابٍ الخارجي خلفه من غير أن يقفله. الطريق إلى الخارج ما زال مفتوحا. يستطيع أن يمر إلى جانب الرجل بخطوتين، وربما ينجح في الإفلات قبل أن تستقر الشبهة في رأسه. غير أن الهرب سيمنح الحارس حكاية يرويها، وسيمنح عبد الجليل شخصا يعاقبه.

وضع الهاتف في جيبه.

«قد يكون نسي. اتفقنا على تسوية ورق، ولم ننتِه منها.»

ترك للحارس أن يختار له صفة الدائن أو المدين. شعر بضيق قديم من سهولة العثور على جملة يتسع جوفها لأكثر من حقيقة. في عمله السابق كان يعرف رجالًا يحصلون على أجور جيدة مقابل هذه المهارة وحدها.

حّرك الحارس علبة الدواء من يد إلى أخرى، وأشار إلى كرسي قرب النافذة.

«انتظره هنا. المكتب لا يدخل إليه أحد في غيابه.»

جلس إدريس. اختار الحارس كرسًيا مقابًلا، ووضع الخبز على ركبتيه. لم يعد الطريق مفتوحا بالمعنى الذي احتاج إليه. صار عليه أن ينتظر عودة صاحب المكتب أو أن يحمل هذا الرجل على تركه يذهب.

على الجدار ساعة مستديرة تتأخر عن هاتفه بأربع دقائق. دّون الفرق يوم دخل المكتب أول مرة في هيئة زبون، وترك الرقم في هامش ملاحظاته. كان عبد الجليل قد قال يومها، وهو ينظر إلى ساعته اليدوية، إنه يعود عادة عند السادسة. حدق إدريس في العقرب الطويل: السادسة إلا خمس دقائق. كاد يطمئن إلى أن أمامه بعض الوقت، قبل أن يستعيد الفرق ويفتح شاشة هاتفه. بقيت دقيقة على السادسة. رفع رأسه إلى الحارس؛ صار الوقت الذي يستطيع أن يقضيه في المجاملة أقصر مما أوحى به الجدار.

سأل إدريس: «هل أرجعك المطر؟»

هز الرجل رأسه نحو علبة الدواء. «نسيت هذه. وبعد أن أخذتها وجدت صاحب المقهى يغلق. زوجته تعبت، أو شيء من هذا.»

الدواء أعاده إلى المكتب، وإغلاق المقهى أبقاه فيه. بحث إدريس في ذاكرته عن شيء كان يستطيع أن يراه في الأيام السابقة، فعاد إليه المشهد نفسه: رجل يجلس إلى الطاولة نفسها، ويغيب المدة نفسها تقريبًا. كان قد سّمى احتمال عودته المبكرة ضعيفًا. الآن جلس الاحتمال قبالته، وانتهت فائدة الكلمة.

قال إدريس: «شفاها الله.»

أومأ الرجل من غير أن ينظر إليه. مد يده إلى الكأس، ولمس الزجاج، وسأل: «هل شربت منه؟»

«لا.»

«جيد. نسيت كم وضعت فيه من السكر.»

ابتسم إدريس، لكن الرجل كان جادًا. أخرج شريطًا من العلبة، فصل منه حبة، وابتلعها بقليل من الشاي. كان يرتدي معطفًا صوفيًا فوق زي رمادي فقد لونه عند المرفقين. قرب ياقة المعطف خيط

أبيض أطول من اللازم، يتأرجح كلما انحنى. فكر إدريس في تنبيهه إليه، ثم استغرب الفكرة. في الداخل، على بعد أمتار، كانت الخزنة مفتوحة، وداخل معطفه سبعة شيكات ليست له. لم يكن هذا وقت إصلاح ملابس الناس.

قبل نصف ساعة كان يعتقد أن هذه أسهل عمليات الشتاء.

راقب استراحة الحارس في أربعة أيام، وسجل وقت خروجه وعودته على هاتف واحد. تفاوتت المدد؛ لذلك بنى حسابه على أقصرها، واقتطع منها هامشًا للانسحاب. في اليوم الثالث وصل طلب الشاي متأخرًا، فبقي الرجل أكثر. وفي الرابع أسرع في مشيه تحت المطر، لكنه جلس في المقهى كعادته. بدت الاختلافات محصورة في دقائق يستطيع احتواءها.

ترك في جدول ملاحظاته خانة للعودة قبل الموعد، وظلت خالية. كان يعرف أن أربعة أيام لا تكفي لتقدير احتمال نادر، ويعرف أيضًا أن الخانة الخالية لا تعني الصفر. مع ذلك، حين اختار ساعة الدخول، اتكأ على ذلك الفراغ. راقب ما يحدث داخل الاستراحة، وبنى قراره كأن الاستراحة نفسها مضمونة.

دخل مع حركة المغادرين، وفي يده ملف أوراق يشبه ما يحمله زبائن المكتب. وحين خلا الممر، تغير إيقاعه. أخفى الملف داخل معطفه، وأخرج حافظة أدوات صغيرة. أمام الخزنة توقف عند مقاومة خفيفة، وسحب يده بدل أن يزيد الضغط. تفحص الحافة تحت ضوء مائل؛ خدش حديث هناك كان سيبقى بعده أطول من أي أثر آخر. أعاد المحاولة بصبر حتى استجاب الباب. أخذت منه اللحظة الأخيرة أكثر مما سمح به تقديره، لكنه فضلها على استعجال يفسد المعدن.

كان يستطيع أن يأخذ الظرف كله ويخرج. الذي أبقاه أمام الرف هو الأسماء.

جاءته الحكاية أول مرة على لسان بنعيسى، الذي روى أن عبد الجليل يقرض أصحاب الدكاكين والعمال مالًا، ويحتفظ بأوراقهم حتى بعد أن يستوفي ما يطلبه. اختبر إدريس الحكاية عند أصحابها. قابل رجلًا سدد أقساطا بقيت في حساب الدائن ناقصة دائما، وامرأة تحمل دفترا صغيرا تسجل فيه المبالغ والتواريخ بخط متردد. وتحدث إلى ثالث قال له منذ البداية إنه ما زال مدينا بجزء من المال.

أعجبه الثالث أكثر من الآخرين، وعاد في تلك الليلة فشطب من ملاحظاته كلمة «صادق». كتب مكانها: «أقر بما لا يخدمه. يحتاج إلى تحقق.» كان يعرف أن الاعتراف بخطأ صغير قد يجعل الكلام اللاحق أسهل قبولًا. ومع ذلك ظل الرجل أقرب إلى قلبه.

استبعد ورقته من العملية. الدين المختلف عليه يحتاج إلى حكم يتجاوز ما يملكه من أوراق. بقيت سبعة أسماء، تتساند روايات أصحابها بإيصالات ورسائل ومبالغ يستطيع تتبعها. سبعة، بعدما كانوا أحد عشر. بقي شيء يقلقه، لكنه بلغ الحد الذي اعتاد أن يسميه كافيا.

وجد الشيكات في ظرف كبير مع أوراق أخرى. صور محتوياتها قبل أن يمسها، وفرز الأسماء التي جاء من أجلها. في الرف الأسفل رزم نقدية لا تحتاج إلى قراءة ولا إلى مراجعة تواريخ. تركها، وأعاد إلى الظرف الكبير كل ورقة لم تكن على قائمته. بقي شيك باسم رجل لم يحضر إحدى المقابلات. عرف إدريس الاسم، لكنه لم يأخذه. المعرفة ليست إذنا.

عندئذ انفتح الباب الخارجي، وعاد الحارس قبل أن يتمكن إدريس من إغلاق الخزنة.

قال الرجل فجأة: «هل المسألة كبيرة؟»

نظر إليه إدريس. كانت عيناه على المعطف، لا على وجهه. أدخل إدريس طرف الظرف البارز إلى الداخل بحركة بطيئة، لا تخفي أنه يحمل أوراقًا.

«تعني ماذا؟»

«الورق الذي تتحدث عنه. الناس يأتون إلى هنا غاضبين، ثم يخرجون أهدأ. لا أعرف إن كانوا يرتاحون أو يتعبون أكثر.»

قال إدريس: «وأنت، هل تسأله؟»

«أسأله عمّا يخص عملي.»

كانت إجابة نهائية مهذبة. أمال الرجل رأسه إلى الخلف وأغلق عينيه لحظة. في يده ندبة قديمة تصل بين أصل الإبهام والمعصم. راوده سؤال عن سببها، فضاق بنفسه. أخذ يجمع تفاصيل تجعل الرجل أبعد فأبعد عن العائق الذي رسمه في حساباته.

اهتز هاتف الحارس. قرأ الرسالة، ونهض دفعة واحدة ووضع الخبز على الكرسي. قال إن عبد الجليل عاد إلى الحي وسيصل بعد قليل، وإن على إدريس أن ينتظر. عندئذٍ أدرك إدريس أن الانتظار لم يعد حيلة صالحة. كان يملك وقتًا قصيرًا لتصحيح ما أفسده، ولن يخرج بشروطه كلها.

نهض، فاستقام الحارس في مواجهته.

«سأترك له رسالة، ثم أمضي. ستعرفه الرسالة بما جئت من أجله.»

«اتصل به.»

«الكتابة أوضح في هذه المسألة.»

ثبت الحارس في موضعه. طال صمتهما، وأصبح إدريس يسمع قطرات المطر تضرب لوحا معدنيا أسفل النافذة. لو مد الرجل يده إلى معطفه، لاضطر إلى التراجع. ولو صاح، لانتهى كل ما حاول الحفاظ عليه. كان لا يزال قادرا على دفعه، وكان هذا الاحتمال أوضح من غيره. أبقى يديه ظاهرتين.

«لن أطلب منك أن تصدقني. تعال معي إلى المكتب، وخذ الورقة من يدي. لن يقال إنك تركتني وحدي.»

تحرك الحارس أخيرا، لكنه سبق إدريس إلى الباب. رأى الخزنة المفتوحة وتوقف. انخفضت كتفاه قبل أن يلتفت، كما لو أنه عرف نتيجة لم يسمع أسبابها بعد.

«ماذا فعلت؟»

وضع إدريس الظرف البني على طرف المكتب، وأبقى يده فوقه حتى وجد الكلمات.

«أخذت سبع أوراق. المال في مكانه. إذا فتحت هذا الباب ورآك واقفا إلى جواري، فسيسألك أولا، ولن يصغي إليك.»

تحركت شفتا الحارس. نظر إلى الرف السفلي، ثم إلى الباب، وأخرج هاتفه. لم يحاول إدريس منعه.

«اتصل بمن تختار. لكن اقرأ ما سأكتبه قبل أن يصل.»

جلس إلى المكتب، وسحب ورقة من دفتر ظاهر فوقه. كتب بوضوح أنه دخل في غياب الحارس، وأنه أخذ سبعة شيكات، وسجل أسماء أصحابها وأرقامها من قائمته. لم يذكر كيف دخل. أضاف أنه لم يأخذ نقودا أو شيئا آخر، وأن الحارس عاد بعد أخذ الأوراق. ترك مكان التوقيع خاليا لحظة، وكتب: «الشخص الذي أخذها.»

قرأ الحارس وهو واقف. بدا له التوقيع سخيفًا، فرفع عينيه وسأل: «وهل سيصدق شخصا لا يكتب اسمه؟»

فتح إدريس فمه وأغلقه. بلغ الرجل بسؤال واحد النقطة التي تجنبها كلما رتب قواعده. الأوراق في يده، والقدرة على المغادرة في جسده، أما من سيبقى فله صاحب عمل وأسرة ودواء ينساه فوق الطاولة.

قال: «احتفظ بصورة منها. وإذا قال إن مالًا ضاع، فاطلب منه أن يحصيه أمامك.»

عرف إدريس مقدار العجز في النصيحة وهو يقولها. تغير وجه الحارس؛ حل الغضب مكان الخوف، وطلب أن تعود الأوراق إلى الخزنة.

شد إدريس أصابعه حول الظرف. فكر في المرأة التي حسبت دفعاتها مرتين أمامه، وفي الرجل الذي أراه رسائل التهديد ثم اعتذر عن اضطراره إلى إطلاعه عليها. لم يعد ممكنًا أن يرد الأوراق ويعتبر الأمر تراجعا نظيفا. كما لم يعد ممكنًا أن يحملها ويزعم أن أحدًا لن يتضرر.

قال بصوت منخفض: «لن أعيدها إليه.»

تراجع الحارس نصف خطوة وأفسح المسافة بين المكتب والباب. لم يكن في الحركة إذن ولا تواطؤ؛ كان رجلًا يقرر ألا يدخل في عراك لا يعرف نهايته. رفع الهاتف واتصل. سمع إدريس اسم عبد الجليل قبل أن يعبر العتبة، وسمع العبارة التي سيتذكرها بعد وقت طويل: «تعال أنت. لا أعرف ما الذي يحدث هنا.»

نزل الدرج بلا ركض. عند الباب السفلي، لحق به صوت الحارس يطلب منه التوقف، فتوقف والتفت. وقف الرجل أعلى السلم، ممسكًا

بالورقة التي تركها.

«أنت تمضي، وأنا أبقى.»

لم يرد إدريس. كانت لديه جمل كثيرة عن أصحاب الشيكات وما دفعوه، لكنه لم يجد بينها جملة تخص هذا الرجل. خرج إلى المطر والظرف ملاصقًا لصدره، ومن خلفه ظل صوت الحارس عالقًا في بئر الدرج.

لم يتصل ببنعيسى إلا بعد أن ابتعد عن الحي. طلب منه أن يتأكد في الغد مما حدث للحارس، وألا يرسل إليه مالًا أو يعرض عليه مساعدة من مجهول؛ أراد أن يعرف أولًا. سأله بنعيسى إن كان قد أخذ الأوراق، فأجاب بنعم. ثم سأله إن كان كل شيء قد مر جيدًا.

«لا.»

انتظر بنعيسى التفصيل. ظل إدريس صامتًا.

«تعال إلى المقهى. سأترك لك الباب الجانبي.»

حين وصل، كان بنعيسى يجمع فناجين الطاولة الأخيرة. أشار إليه أن يجلس قرب المدفأة، ووضع أمامه منشفة صغيرة وكأس ماء. لم يسأله مرة أخرى. عرف إدريس هذه الطريقة منذ سنوات: يترك له الرجل مكانًا للكلام، ويشغله بأشياء صغيرة حتى يتخلى عن الصمت بنفسه.

خلع معطفه ووضع الظرف في جيبه الداخلي بعد أن تأكد من جفافه. كان بنعيسى قد زاد الشاي في إبريق قديم، وراح يقلب السكر بملعقة طويلة. على التلفاز المعلق فوق الثلاجة تحركت أفواه المذيعين بلا صوت.

قال بنعيسى: «طلبت مني أن أراقب الحارس، وقد أرسلت من يسأل من بعيد. ماذا فعل لك؟»

«لم يفعل شيئًا. هذه هي المسألة.»

روى له ما جرى، وحذف اللحظة التي فكر فيها في دفع الرجل. استطاع أن يبرر حذفها بأنها فكرة عابرة، وأنه أبقى يديه إلى جانبيه. ومع ذلك تجنب عيني بنعيسى حين بلغ موضعها من الحكاية. استمع بنعيسى وهو ينزع الورق عن مكعبات السكر، وقال إن الحارس سيحكي ما رآه، وإن عبد الجليل لا يستطيع أن يتهم الناس جميعًا.

«يستطيع أن يفصله.»

«وسنعرف إن فعل.»

أحاط إدريس الكأس بيديه. أراحه الجمع في «سنعرف»، وأزعجه أنه أراحه. كان بنعيسى يحمل معه هذا الجزء من العمل بلا مقابل: يبدأ الخطأ باسم إدريس، ويصير عبئًا يتقاسمانه.

أخرج دفتره الصغير، وفتح صفحة كتب في أعلاها أسماء أصحاب الشيكات. وضع علامة إلى جانب كل اسم، وأضاف أسفلها: «الحارس». لم يضع علامة إلى جانبه. سأله بنعيسى، ناظرًا إلى الدفتر، كم يأخذ هذه المرة.

«المبلغ المتفق عليه، من صاحَبي المحلين فقط. الآخرون لا شيء.»

«سترجع بأقل مما صرفت.»

«لم أرجع بعد.»

ضحك بنعيسى، ودفع إليه صحنًا فيه قطعة خبز وجبن. أكل إدريس على مهل، وأحس بالجوع للمرة الأولى منذ الظهيرة. كان يستطيع دفع كلفة عشاء جيد في مكان آخر. لكنه أحب هذا الجبن الرخيص،

والكرسي الذي تهتز إحدى قوائمه، والرجل الذي يعرف متى يكف عن السؤال.

اهتز هاتف بنعيسى. ابتعد خطوتين، قرأ ما وصله، وعاد وقال إن الحارس ما زال في مكانه، وإن عبد الجليل أغلق الباب بعد وصوله. لا شرطة في الخارج حتى الآن، ولا أحد يعرف ما يجري في الداخل. شكره إدريس، وأغلق الدفتر من غير أن يمحو الاسم المضاف.

كان المطر قد خف. نهض بنعيسى لينزل نصف الستار المعدني، فدخلت رائحة الطريق المبلل. حين عاد، حمل معه حقيبة جلدية صغيرة من خلف الصندوق، وأخرج منها صورة قديمة في غلاف شفاف.

قال: «هناك امرأة تريد لقاءك. لم أعطها رقمك. قلت إنني سأسألك أولًا.»

نظر إدريس إلى الصورة. رجل مسن يجلس إلى طاولة قرب نافذة، وامرأة أصغر منه واقفة خلف كتفه. من جيب صدريته تمتد سلسلة ساعة تنتهي تحت كفه. كانت الصورة باهتة، لكن النافذة والأصابع والسلسلة واضحة بما يكفي. على ظهرها تاريخ مكتوب بحبر أزرق.

«ما الذي تريده؟»

«ساعة جدها. تقول إن البيت وما فيه أُخذ من أهلها، وإن الساعة ظهرت عند رجل يجمع التحف.»

أعاد إدريس الصورة إلى غلافها. «تقول، أم تعرف؟»

قال بنعيسى، بعد تردد قصير، إن أوراقًا تؤيد بعض الحكاية موجودة، وإنه سيحضرها غدًا. اقتصر على ذلك، فرفع إدريس رأسه إليه. اعتاد أن يجد وراء الحكايات الجديدة حماسة يريد أصحابها بيعها معه؛ تحفظ صديقه جعله يصغي.

«اسم الرجل؟»

«كمال الطاهري.»

قرأ إدريس التاريخ على ظهر الصورة مرة أخرى. لا شيء فيه يستدعيه إلى عملية جديدة. كان عليه أن يعيد سبع أوراق، وأن يتأكد من مصير الحارس، وأن ينام ساعات تكفيه ليكف عن سماع الجملة التي قيلت على السلم. وضع الصورة على الطاولة بينهما.

«أسمع منها فقط. اللقاء لا يعني أنني قبلت.»

أومأ بنعيسى وأعاد الصورة إلى الحقيبة. انحنى يبحث فيها، وأخرج ورقة مطوية مرتين. فتحها على قدر ما يسمح له بقراءة سطر في أعلاها.

«غدًا عند الحادية عشرة. ستأتي إلى هنا.»

مد إدريس يده نحو الورقة، ظنًا منه أنها تحمل عنوانًا أو رقمًا. كان بنعيسى قد أعاد طيها.

«ما هذه؟»

«ملاحظات وصلتني مع الصورة. اسمع منها غدًا.»

لبس إدريس معطفه. حين التفت عند الباب ليذّكره بالحارس، رأى طرف الورقة يختفي في جيب قميصه.

الفصل الثاني

ساعة القنصل

طنجة، من 10 إلى 15 يناير 2026

انتهى الرنين الأول وبقيت الأظرف السبعة أمام إدريس.

وضع الهاتف بجانبها. كتب على كل ظرف اسم صاحبه، وأدخل فيه الشيك الذي أخذه من مكتب عبد الجليل. بقي الظرف الرابع مفتوحا. كان اسم المرأة المكتوب عليه أطول من المساحة التي خصصها له، فاضطر إلى تصغير الحروف عند نهايته، وضايقه ذلك أكثر مما ينبغي.

رن الهاتف وهو يحاول إغلاق الظرف.

قال بنعيسى إن الحارس عاد إلى العمل صباحًا، وإن عبد الجليل لم يستدع الشرطة في الليلة الماضية، على قدر ما استطاع معرفته. لكنه أمضى وقتا طويلا يستجوب الرجل، ثم أخذ منه مفتاح الباب الخارجي.

«هل فصله؟»

«لو فصله لما عاد. قال له إن المفتاح سيبقى عند المحاسب حتى يتضح ما حدث.»

مرر إدريس ظفره على حافة الورق. كان في وسعه أن يكتفي بعودة الحارس إلى العمل. هذه نتيجة تصلح لوضع علامة صغيرة في الدفتر، والانتقال إلى ما بعدها. لكنه تذكر كيف قال الرجل إنه سيبقى، ورأى نفسه خارجا من الباب فيما تُغلق الحكاية على شخص آخر.

«أريد أن أعرف إن اقتطع شيئًا من أجره، أو اتهمه بالمساعدة. لا تسأله مباشرة الآن. سيظن أن كل من يقترب منه مرسل لاختباره.»

سكت بنعيسى قليلًا، ثم قال: «كنت أعرف أنك ستطلب هذا. سأتابع الأمر، لكنك لن تستطيع أن تعيد كل شيء إلى ما كان عليه.»

«أعرف.»

قالها أسرع مما ينبغي. كانت عملياته تبدأ بوعد ضمني بأن يخرج أصحابها أخف مما دخلوا. أما الذين يقعون في الطريق، كالحارس، فتظهر أسماؤهم متأخرة في دفتره.

أنهى الاتصال، ونقل الأظرف إلى حقيبته. قبل أن يغادر الشقة، عاد إلى الرابع وأغلقه بشريط لاصق، وأطفأ الضوء. من نافذة الدرج رأى سماء شاحبة وقطعة من البحر بين سطحين، وأحس أن النوم الذي فاته لن يُستدرك بكأس قهوة.

كانت المرأة صاحبة الظرف الرابع أول من قابله. انتظرته في محل خياطة، والآلات ما زالت تحت أغطيتها. طلبت منه أن يخرج الشيك بنفسه. قرأت الاسم والمبلغ، وبحثت عن علامة عند زاوية الورقة. حين وجدتها جلست، كأنها كانت واقفة منذ أيام.

قالت: «هذه هي.»

راقب إدريس أصابعها وهي تطوي الورقة، وتستقيم من جديد كي لا تفسدها. توقع أن تشكره، لكنها سألته إن كان عبد الجليل يستطيع الاحتفاظ بصورة منها.

«قد تكون لديه صورة. لا أعرف.»

«وقد يأتي ليطالبني مرة أخرى؟»

نظر إلى الشيك بين يديها. الورقة عادت، وعبد الجليل ما زال يعرف بابها ومكان عمل ابنها. طلب منها أن تحتفظ بالإيصالات والرسائل التي أطلعته عليها، وأن تجمع أي مطالبة جديدة مع الأوراق القديمة. استمعت حتى فرغ، وقالت إنها كانت تظن أن عودة الشيك ستجعلها تنام.

أخرجت من حقيبتها كيسًا صغيرًا فيه خبز وحبات زيتون، ووضعته أمامه. رفض المال الذي حاولت إضافته، لكنه أخذ الكيس. قالت إن ابنها هو من أوصلها إلى محل الخياطة وإنها طلبت منه أن ينتظر بعيدًا. أدرك إدريس أنها لم تخبره عمّن ستقابل. لم يسألها لماذا؛ كان يحتاج إلى هذه المسافة بين ما تفعله الأسرة وما تعرفه عن نفسها.

عند صاحب المحل الثاني، ظهرت ورقة إضافية أغفلها الرجل في روايته الأولى. قال إن مبلغها سدد «تقريبًا»، وشرح خلافًا على ثمن بضاعة، ثم سأل إن كان إدريس يستطيع استعادتها بالأجر نفسه. أغلق إدريس حقيبته واكتفى بأجر الشيك الذي أعاده. لحق به إلى الباب سؤال غاضب: «أتصدق عبد الجليل وتكذبني؟» أكمل طريقه، شاعرًا بضيق لا يستحقه السؤال وحده. كان قد توقع أن تأتيه الحقيقة كاملة ممن ساعدهم، كأن الظلم الذي وقع عليهم يعفيه من التحقق مما يقولون.

وصل إلى مقهى بنعيسى قبل الحادية عشرة بسبع دقائق. وضع كيس الخبز خلف الصندوق، وطلب قهوة بلا سكر. كان بنعيسى قد مسح الطاولة القريبة من النافذة وأبعد عنها لعبة الدومينو، لكنه لم يرتب بقية المقهى. أعجبت إدريس هذه اللامبالاة الظاهرة. جلس بحيث يرى الباب، وغير مكانه حين انتبه إلى ما يفعل؛ لم يشأ أن يشعر كل من يجلس معه بأنه دخل استجوابًا.

جاءت المرأة في الحادية عشرة وثلاث دقائق. بدت في أوائل الثلاثينيات، ترتدي معطفًا كحليًا وتحمل حقيبة عادية، وعلى إحدى أصابعها أثر خاتم. استقر نظره عليه لحظة وانتقل إلى وجهها؛ ربما خلعته ذلك الصباح، وربما بقي أثره أيامًا. احتفظ بالملاحظة كما هي.

قدّمها بنعيسى باسم ليلى، وتركهما بعدما وضع كأس ماء أمامها. بقي الكأس قرب طرف الطاولة.

قالت إنها حفيدة الرجل الذي ظهر في الصورة، وإن الساعة خرجت من بيت الأسرة في مرشان مع أشياء أخرى، وإنها علمت بوجودها لدى كمال الطاهري. كانت تتحدث بالعربية الفصحى أحيانًا، ثم تعود إلى تعبير مغربي حين تطيل الجملة. بدا ذلك طبيعيًا إلى أن بدأت تسرد تاريخ نزاع البيت. عندها استقرت الكلمات في فمها، وصار لكل واقعة اسم محدد وترتيب واضح.

تركها تكمل، وسألها عن الغرفة التي اُلتقطت فيها الصورة.

نظرت إلى الغلاف الشفاف الموضوع بينهما. «الصالون، على ما أظن.»

«هل دخلت البيت؟»

«حين كنت صغيرة. لا أتذكره جيدًا.»

أعادت الصورة إليه بإصبع واحدة، وسألته إن كان ذلك مهمًا. أخبرها بأنه يحاول فهم ما تعرفه بنفسها وما وصلها عن الآخرين. استرخت قليلًا، وقالت إن معظم ما تعرفه حكته أمها، وإنها كانت تعيش في تطوان.

فتح الملف الذي أخرجته. صور لبيت ذي مدخل مرتفع، ونسخ أوراق تحمل أسماء أفراد من آل الحسوني، ومراسلات قديمة، وصورة ملونة لساعة جيب موضوعة فوق قماش داكن. في إحدى الصور ظهر

أثر صغير عند موضع اتصال السلسلة بجسم الساعة. قربه علامة أخرى لم يستطع تمييزها بسبب انعكاس الضوء.

«من صوّر هذه؟»

«وصلتني عن طريق شخص يعرف أنني أبحث عنها.»

«أحتاج إلى معرفة هذا الشخص.»

نظرت نحو بنعيسى، لكنه كان منشغلًا بحساب زبون عند الباب. قالت إن الرجل لا يريد الدخول في نزاع، وإنها وعدته ألا تذكر اسمه. أعاد إدريس الصورة إلى الملف من غير أن يعلق. وضعت المرأة يدها فوق الغلاف، وكأنها تخشى أن يغلقه نهائيًا.

«يمكنني أن أطلب منه أن يكلمك، إذا لم تسأله عن أشياء أخرى.»

«سأسأله عمّا رآه، وكيف عرف ما يخبرني به. لا أستطيع أن أعد بأقل من ذلك.»

أومأت ببطء. قالت إن الساعة تُعرف في الأسرة بساعة القنصل، وإن اللقب جاء معها قبل أن يمتلكها جدها. سألها عن اسمه الكامل.

«عبد السلام الحسوني.»

خرج الاسم سريعًا. حين سأل عن زوجته، انتقلت عيناها إلى الملف وتوقفت لحظة.

«زهور. للا زهور، كما كنا نناديها.»

كان اسم زهور الحسوني مثبتًا في إحدى المراسلات. أشار إلى المرأة الواقفة خلف الرجل في الصورة.

«هذه هي؟»

«نعم. جدتي، من جهة أمي.»

دّون الصلة كما قالتها. الفارق بين سرعة الجوابين يستحق سؤالًا لاحقًا، لكنه قد يكون تردد امرأة تتحدث عن أسرتها أمام غريب. وضع الصورة فوق الأوراق بحيث تبقى الوجوه ظاهرة.

قالت: «أنت تسألني كأنني أنا التي أخذتها.»

«أنا أسألك لأنك تريدين مني أن أفعل شيئًا قد لا أستطيع إصلاحه بعد ذلك.»

للمرة الأولى نظرت إليه مباشرة. رأى في وجهها ضيقًا، ثم خوفًا سريعًا لم يعرف مصدره. ربما كانت تفكر في ما تطلبه منه للمرة الأولى، وربما خافت أن يرفض. ظل صامتًا حتى سألت عّما يحتاج إليه غير الأوراق.

طلب وسيلة تثبت صلتها بالأسرة، ومصدر الصورة الحديثة، وتوضيحًا مكتوبًا لما تريد استعادته. أبقى الحديث عند حدود الملكية وما تستطيع إثباته. قالت إنها ستوفر ما تستطيع، وحددت شرطها قبل أن يغلق الملف: يجب أن يكون الأمر مساء الجمعة المقبلة، وأن تتسلم الساعة قبل منتصف الليل.

رفع رأسه. «لماذا الجمعة؟»

«أسافر صباح السبت. التزمت بالعودة، ولا أستطيع تأجيلها.»

«أستطيع أن أحتفظ بها حتى عودتك، إذا قبلت المهمة.»

«لا أريد أن تبقى عند أحد. انتظرت بما يكفي.»

قالتها بنبرة مختلفة عن نبرة شرح نزاع البيت؛ أقل ترتيبًا وأقرب إلى الانفعال. أخبرها أن السفر يحدد موعد رحلتها، ولا يحدد بالضرورة الوقت المناسب لما تطلبه. فأخرجت من حقيبتها ورقة حجز، وتوقفت

قبل أن تناوله إياها. ترك الورقة في يدها. إثبات السفر سهل؛ ما احتاج إلى فهمه هو إصرارها على ربط الساعة بتلك الرحلة.

خفضت صوتها. «هناك شخص في العائلة ينتظرها. وعدته أن أحضرها معي. إذا لم يكن ذلك ممكنًا، أخبرني من الآن.»

كان يستطيع إنهاء اللقاء عند هذه الجملة. جاءه من قبل أشخاص يحولون استعجالهم إلى مشكلة عليه أن يحلها، وقد رفض بعضهم لأقل من ذلك. لكنه رأى الصورة القديمة مرة أخرى، والكف المستقرة فوق الساعة، وتذكر المرأة التي حملت شيكها قبل ساعة ولم تعرف إن كانت تستطيع النوم.

وعد بمراجعة الملف وإعطائها جوابًا بعد أن يعرف ما يكفي. وحين نهضت، شربت كأس الماء دفعة واحدة تقريبًا.

انتظر بنعيسى حتى خرجت، وجاء يجمع الكأس. سأله إدريس كيف وصلت إليه. أجاب بأنها سألت عنه بواسطة رجل يعرفه من زمن، وإن الحكاية بدت له جديرة بأن تُسمع.

«هل تثق بالرجل؟»

«فيما نقلته إليك، نعم.»

كان التحديد جديدًا. رفع إدريس عينيه إليه، فزاد بنعيسى: «لا أستطيع أن أضمن الناس في كل شيء. أنت نفسك لا تسمح لي بذلك.»

ابتسم إدريس رغمًا عنه. أعاد الملف إلى الحقيبة، وطلب منه ألا يحدد للمرأة موعدًا آخر قبل أن يتصل هو. ثم سأله عن الحارس. قال بنعيسى إن شيئًا جديدًا لم يحدث، وإن الرجل ما زال يعمل.

في الأيام التالية، منح إدريس الملف من الوقت أكثر مما كان ينوي. كان عليه، في الوقت نفسه، أن ينهي تقريرًا لشركة صغيرة عن خسائر مخزونها. أمضى صباح الاثنين يقارن بين جداول تبدو متفقة حتى يصل إلى أسماء الأصناف؛ هناك اختلفت وحدات القياس بين صف وآخر، فظهر نقص لم يقع بالحجم الذي توحي به الخلاصة. اتصل بصاحب الشركة وطلب تأجيل توقيع التقرير حتى تراجع السجلات الأصلية.

تضايق الرجل من التأخير. سأله إن كان يستطيع اعتماد الرقم الأقرب الآن وتصحيحه لاحقًا. قال إدريس إن التصحيح المتأخر لا يلحق دائمًا بالقرار الذي سبقه، ووجد نفسه يشرح أكثر مما يلزم. اعتذر واختصر المكالمة. بقيت يده فوق الفأرة، والمؤشر واقفًا عند خانة التوقيع.

بعد الظهر اتصل بمصدر الصورة الحديثة. كان تاجر مقتنيات قديمة، يعمل أحيانًا وسيطًا في تقدير الساعات وإصلاحها. عرف الساعة من وصفها، وقال إنه صوّرها في محله حين عُرضت عليه لتقدير قيمتها.

«من أحضرها؟»

«يوسف الطاهري. ابن أخ صاحبها.»

كتب إدريس الاسم وسأله إن كان كمال حاضرًا. أجاب الرجل بالنفي؛ كان يوسف يتولى بعض معاملات عمه. أما ليلى، فالاسم جديد عليه. اتصل به يوسف قبل أيام، وقال إن امرأة من الأسرة التي كانت تملك الساعة تبحث عن صورها.

«وهل أرسلتها إليها؟»

«أرسلتها إليه. ما الذي فعله بها بعد ذلك، اسأله هو.»

طلب إدريس الصور الأصلية وموعد الزيارة. حدد الرجل اليوم من رسالة قديمة، ووصف القماش الذي وضع الساعة فوقه. تردد عند السؤال عن الساعة الدقيقة، فاكتفى إدريس باليوم. أصبحت سلسلة انتقال الصورٍ أوضح، لكنها تمر بابن أخ الرجل المطلوب أخذ الساعة منه. وضع خطا تحت اسم يوسف.

«هل فتحت غطاء الآلية؟»

«صورت الوجه والظهر. فحص الداخل له موعد وأجر آخران.»

طلب إدريس أن يرسل اللقطات كلها، بما فيها غير الصالحة للعرض. وصلته الصور مساء؛ في اثنتين منها ظهر طرف بطاقة المحل إلى جانب القماش، وفي ثالثة غطى انعكاس المصباح نصف الميناء. حفظ المجموعة كما وصلته، منفصلة عن الصور التي أحضرتها ليلى.

في نسخة الصورة الأوضح، ظهرت العلامة قرب السلسلة. طابقها مع تكبير للصورة القديمة، لكنه لم يعلن لنفسه أنه أثبت الهوية. الصورة القديمة محدودة الوضوح، وقد تتشابه ساعات كثيرة. قارن إحدى لقطات الظهر بصورة أخرى وصلت ضمن مقتنيات الأسرة. صار التطابق أقوى، وبقي يحتاج إلى فحص الساعة نفسها.

عاد إلى ليلى يسألها عن يوسف. قالت إن الوصول إلى صورة مقتنى عند أسرة أخرى يمر أحيانًا بأفراد تلك الأسرة، وإنها تعرفه بوصفه مصدر الصور فقط. أعادت إليه سؤاله: «هل الأفضل أن أخفي عنك من أين جاءت؟» طلب منها أن تكتب ما تعرفه عن صلتها به، ففعلت في رسالة قصيرة. احتفظ بها إلى جانب الصور؛ صار لديه جواب يمكن الرجوع إليه، وبقي التحقق منه معلقًا.

أما البيت، فكانت حكايته أقل انتظامًا من الملف. وجد مراسلات تعود إلى سنوات متباعدة، وأسماء تتكرر بصفات مختلفة، وأشخاصًا

يروون خسارتهم من النقطة التي تؤلمهم. زار زقاقًا قريبًا من البيت وتحدث إلى رجل أصلح بابه قديما. تذكر الرجل آل الحسوني، وتذكر انتقال بعض الأثاث، لكنه لم يعرف ما إذا كان الانتقال بيعًا أو تنفيذا لاتفاق أو شيئا آخر. ترك إدريس الرواية عند حدود ما شاهده الرجل.

قال الرجل، قبل أن يفترقا، إن امرأة كبيرة من الأسرة كانت تأتي أحيانًا وتقف في الجهة المقابلة، وتغادر. لم يعرف أين تعيش الآن. كتب إدريس في دفتره أنه يحتاج إلى سماعها، ووضع تحت العبارة خطا واحدا.

وصلت الأوراق الإضافية من ليلى مساء الثلاثاء. دعمت، في ظاهرها، تسلسل القرابة الذي ذكرته، لكن بعضها صور لا أصول. سأل بنعيسى عمّن ساعدها في جمعها، فقال إن الملف مر على أناس يعرفون القضية. وأرسل إليه رقمًا يستطيع الاتصال به لمراجعة ما ورد فيه عن انتقال البيت. استمع إدريس إلى جواب طويل، وفصله في ملاحظاته إلى وقائع قيل إن لها مستندات وآراء لا تكفيها المستندات وحدها.

مع كل إجابة صحيحة، كانت الأجزاء التي لم يتحقق منها تبدو أقل إلحاحًا. لاحظ ذلك في نفسه مرة، وهو يضع الأوراق في ترتيب جديد، فعاد إلى صفحة الأسئلة. ما زال اسم المرأة الكبيرة بلا عنوان، وما زال مصدر بعض الصور أبعد منه بخطوة أو خطوتين. كتب إلى ليلى يطلب لقاءً ثانيا. أجابت بأنها خارج طنجة وستعود الجمعة، لكنها تستطيع الحديث هاتفيًا.

في تلك المكالمة سألت أولًا إن كان قد وجد ما يثبت أن كمال رجل مظلوم. كان السؤال حادًا بما يكفي ليجعله يتوقف. أخبرها أن خطأ كمال، إذا ثبت، لا يكفي وحده لإثبات صحة كل ما تقوله هي. اعتذرت بعد لحظة، وقالت إنها تعبت من رواية الحكاية. بقي التحفظ

واضحًا في جوابه الأخير، لكنه أنهى المكالمة تاركًا باب الموافقة مفتوحًا.

تولى بنعيسى جمع المعلومات المتعلقة بغياب كمال. أرسل ملفًا يحمل تاريخ الرابع عشر من يناير، وفيه ما يشير إلى رحلة إلى مدريد، وأكد أن موعدها لم يتغير في حدود ما عرفه. رأى إدريس في إحدى زياراته للحي سيارة تخرج من الفيلا وبداخلها حقيبة كبيرة. لم يستطع رؤية وجه الجالس في المقعد الخلفي. سجل ما رآه بهذه العبارة، ووجد نفسه في المساء يسميه في ذهنه «السفر».

صحح الكلمة عندما كتبها. سيارة وحقيبة لا تكفيان.

عاد إلى تاريخ الملف، وتذكر الورقة المطوية في المقهى. سأل بنعيسى عنها، فقال إنها ملاحظات أولية عن الطلب واللقاء، وإن معلومات السفر استكملها بعد ذلك. طلب إدريس أن يحتفظ بها مع بقية الأوراق. أجاب الرجل: «كل شيء عندي.» كان إدريس يومئذ يريد جمع الملف، فاكتفى بالجواب.

كانت هذه الدقة تريحه. لم ينتبه إلى أنه بدأ يستعمل تصحيح الكلمات الصغيرة دليلًا على سلامة الصورة الكبيرة. تحقق من تفاصيل عدة بنفسه، وجمعها مع معلومات بنعيسى في صفحة واحدة. وحين صارت في الصفحة نفسها، فقدت الفروق بين مصادرها بعض وضوحها.

راقب المكان في أوقات متفرقة، من مواضع تكشف له جانبًا وتحجب آخر. دوّن حدود كل مشاهدة إلى جوار وقتها. في الجهة الخلفية ظل جزء من واجهة بيت مجاور خارج مجال رؤيته بسبب أعمال صيانة. قال ملف بنعيسى إن الطريق لا تغطيه كاميرا، لكن إدريس كتب إلى جوار العبارة: «لم أتحقق». تركها يومًا كاملًا وعاد

إليها. كان ينبغي أن تكفي هذه الملاحظة لإعادة النظر في الموعد، خصوصا مع استعجال المرأة.

مساء الخميس، اتصل ببنعيسى وقال إن الساعات المتأخرة من الليل أنسب مما تطلبه الزبونة، وإن هناك نقّاطا لم يغلقها بعد. ترك التقدير بلا ساعة محددة أو نسبة نجاح. كانت لديه مشاهدات متفرقة وأقوال أشخاص، تحويلها إلى رقم واحد سيخفي اختلافها بدل أن يحله.

قال بنعيسى: «إذن أخبرها أنك لن تفعل.»

صمت إدريس. كان ينتظر اعتراضا يستطيع أن يقاومه، أو طمأنة يستطيع أن يناقشها. أعطاه الرجل حرية الرفض، فاضطر إلى مواجهة السبب الذي يجعله مترددا فيها.

«هل تعرفها أنت؟ هل قابلتها قبل أن تأتيك بهذه القصة؟»

«قلت لك كيف وصلت. لو كنت أعرف كل شيء لما احتجنا إلى أسئلتك.»

تغير صوته عند الجملة الأخيرة. عرف إدريس هذا التعب في صوت صديقه، صوت رجل يؤدي للآخرين أعمالا صغيرة كثيرة، ثم يُسأل عّما لم يفعله. فكر في السنوات التي ائتمنه فيها على أشياء لا يأتمن عليها أحدا، وفي مرات رفض بنعيسى مالا لأنه لم يطمئن إلى صاحبه. رأى مواضع النقص في الملف، ورأى وراءه وجه الرجل الذي حمل إليه الأخبار الصحيحة سنوات. وجد نفسه يمنح الخبر بعض ما يمنحه لصاحبه.

قبل أن ينهي المكالمة، أخبره بنعيسى أن الحارس استعاد مفتاح الباب. لم يُقتطع من أجره شيء، على ما قال الرجل نفسه لمن سأله، لكنه صار يقضي استراحته على كرسي في المدخل. أراد إدريس أن

يسأل إن كان ذلك بأمر عبد الجليل أو باختياره، وعرف أن الإجابة لن تغير ما حدث.

شكره، وظل ممسكًا بالهاتف بعد انقطاع الخط.

فتح دفتره عند اسم الحارس. لم يمحه، ولم يضع علامة الإتمام التي استعملها مع الأظرف السبعة. كتب سطرًا عن المفتاح والأجر، وقلب الصفحة إلى ملف الساعة.

أمامه حكاية ظلم لها ما يسندها، ومقتنى يمكن تمييزه بدرجة معقولة، وامرأة لم يختبر بعض كلامها بما يكفي، وموعد لا يفضله. كان يستطيع أن ينتظر أسبوعًا آخر. لا شيء ماديًا يمنعه، باستثناء احتمال أن تختفي المرأة أو تنتقل الساعة، واحتمال آخر لم يكتبه: أن يكون قد أمضى أيامًا في هذا العمل ويخرج منه بلا نتيجة.

رفع القلم، وأنزله. أضاف السؤال الأخير إلى الصفحة بصيغة صريحة: «هل أستعجل لأنني بدأت؟»

ظل رأس القلم فوق السؤال حتى ترك نقطة صغيرة عند آخره. وضع القلم وكتب إلى ليلى أنه قبل استعادة الساعة وحدها، وأن موافقته لا تمنعه من الانسحاب إذا وجد ما يخالف المعلومات التي تلقاها. قرأ الرسالة مرتين قبل أن يرسلها. في الثانية بدت شروطه محكمة بما يكفي ليهدأ قليلًا.

جاء ردها بعد أقل من دقيقة: «سأنتظر اتصالك مساء الجمعة. قبل منتصف الليل، كما اتفقنا.»

لم يكن قد اتفق على العبارة بهذا القطع. وضع إبهامه على الشاشة ليصححها، وسحبه. ستفهم التحفظ من الرسالة الأولى، قال لنفسه. أطفأ الهاتف، وأغلق الدفتر فوق الصفحة التي ظل فيها السؤال بلا جواب.

الفصل الثالث

غرفة دافئة في يناير

طنجة، الجمعة 16 يناير 2026

كتب إدريس شرط الانسحاب قبل أن يخرج من السيارة.

«شذوذان بلا تفسير متحقق منه. أعود.»

قرأ السطر، وأضاف نقطة بعد الكلمة الأخيرة. كانت الجملة أقصر من الشروط التي أرسلها إلى ليلى، وأقل قابلية لأن يستعملها في إقناع نفسه بالبقاء. وضع القلم في عروة الدفتر، وبقي ينظر إلى الصفحة على ضوء المصباح الداخلي. قرب عبارة الكاميرا، في الهامش، ظلت كلمتان بخطه: «لم أتحقق».

كانت الساعة العاشرة وخمسين دقيقة. أمامه واجهة بناية سكنية مغلقة، وعلى الرصيف المقابل سيارةٌ غطيت بطبقة من الغبار شقها المطر إلى خطوط. اختار المكان بعيدًا عن الفيلا، في شارع يخلو من المحلات. هذا ما عرفه عنه؛ أما كونه خاليًا من العيون فشيء آخر. أطفأ المصباح قبل أن يتحول جلوسه تحت الضوء إلى مشهد يصلح للتذكر.

بنعيسى أرسل في العصر كلمة واحدة: «ثابت». قصد بها خبر السفر. أعاد إدريس فتح الرسالة يومها، وكاد يسأله: ما الذي ثبت، الرحلة أم وجود الرجل فيها؟ كتب نصف السؤال وحذفه. كان قد سأل بما يكفي ليعرف حدود الجواب، وبقي عليه أن يقرر ما سيفعله بتلك الحدود. الآن وضع الهاتف إلى جانب الدفتر، وشعر بضيق من الكلمة؛ صارت أثقل من الخبر الذي جاءت تؤكده.

في الصباح اتصلت ليلى تسأل أين تنتظر مكالمته. أجاب بأن عليها انتظار خبر فقط؛ استعادة الساعة، إن تمت، لا تعني تسليمها في الشارع على عجل. وحين سأل عن الشخص الذي ينتظرها، قالت إن الأمر يخص الأسرة، وطلبت منه أن يعيد ما اتفقا عليه. صحح لها: اتفقا على محاولة. اعتذرت عن التعبير، وبقي سؤاله بلا جواب.

تذكر ذلك وهو ينظر إلى الهاتف. يستطيع أن يتصل بها مرة أخرى، لكن ما الذي سيسأله بحيث يحصل على جواب مختلف؟

في المقعد الخلفي معطف خفيف وملف عمل سيحتاج إليه صباح الاثنين. مد يده وسّوى طرف الملف الذي انثنى تحت المعطف. خطر له أنه يستطيع أن يعود إلى البيت، ويفتح التقرير، ويقضي ساعة في إصلاح جدول يعرف أين يبدأ خطؤه. كان ذلك ممكنًا إلى حد أزعجه. أغلق الدفتر ووضعه في جيب الباب، وأخذ هاتفه وحافظة الأدوات المسطحة.

خرج إلى برد صافٍ أعقب المطر. بقي الماء في الفواصل بين الحجارة، وفي الحفرً الصغيرة التي تلمع تحت مصابيح الشارع، لكن السماء انفتحت منذ نحو ساعتين. رفع ياقة معطفه ومشى. من شقة في الطابق الأول وصل صوت امرأة تنادي طفلًا، تلاه احتجاج قصير، فضحك من غير أن يقصد. الحياة في الداخل تمضي على مواعيد يختلف عليها أهلها؛ هو وحده كان يحمل منتصف الليل كأنه موعد لا يستطيع أحد تغييره.

عند أول منعطف توقف أمام واجهة مطفأة، وأخرج هاتفه. فتح صورة الساعة للحظة. الأثر الصغير عند السلسلة، والغطاء الخلفي في لقطة التاجر، وحدود العلبة التي ظهر طرفها في إحدى الصور. أعاد

الهاتف إلى جيبه قبل أن ينتقل إلى صورة الرجل والمرأة. تلك الصورة كانت تجعله يريد الساعة أكثر مما تساعده على تمييزها.

استغرق الطريق أطول مما توحي به المسافة. مر عامل يدفع دراجة ذات صندوق، فانتظر إدريس عند زاوية حتى تجاوزه. وفي شارع أعلى، بقي رجل يتحدث من نافذة سيارته إلى شخص واقف على الرصيف، فاختار إدريس أن يكمل سيره ويعود من الجهة الأخرى. لم يكن في أي منهما ما يخصه. التوقف في مكان مكشوف كي يثبت لنفسه ذلك كان سيمنحهما سببًا للنظر إليه.

حين بلغ الزقاق الخلفي، اقتربت الساعة من الحادية عشرة والربع.

السقالة ما زالت على البيت المجاور. تحرك طرف غطائها مع الهواء، واحتك بأنبوب معدني في صوت قصير يتكرر كلما تغيرت الريح. أسفلها أكياس مواد بناء مطوية، ودلو انقلب وتجمع الماء حول حافته. تحت الإفريز علبة بيضاء صغيرة، وصل إليها سلك بمحاذاة ماسورة. رفع عينيه، وحاول تمييز وجهها من موضعه. قد تكون جزءًا من إنذار، وقد تكون شيئًا أضيف أثناء الأشغال. من هنا ظلت علبة، مهما احتاج إلى اسم يطمئنه.

تذكر الهامش في دفتره. نظر إلى البيت المقابل، وإلى النافذة التي كان الغطاء يحجبها في زياراته السابقة. بقي جانب منها خارج مجال رؤيته. كان يستطيع الرجوع ليكتب أنه رأى شيئًا يحتاج إلى فحص. بدلًا من ذلك، راقب حركة القماش حتى انحسر، وانتظر دورة أخرى للريح، وحصل على المشهد الناقص نفسه.

أخرج الهاتف. الحادية عشرة وإحدى وعشرون دقيقة.

ظل واقفًا لحظة، والغضب من تردده أخطر عليه من التردد نفسه. أعاد الهاتف إلى جيبه. كانت المخاطرة التي يعرف أنه يحملها معه منذ

الأمس، أما شرط الانسحاب الذي كتبه فخص ما سيجده مخالًفا للمعلومات داخل المكان. عرف أن هذا التفريق يخدم رغبته في التقدم. قبله، ومضى.

عبر السور، وهبط على أرض الحديقة في الحادية عشرة واثنتين وعشرين دقيقة. شعر بالماء يتسلل عند حافة نعله. أبقى يده على الحجر حتى استقرت قدمه، وانتظر أن يعود صوت الزقاق إلى حجمه العادي. قطرة سقطت من ورقة شجرة على ياقة معطفه، فشد كتفيه كأن أحًدا لمسه.

من هذه الجهة بدت الفيلا أقل ارتفاًعا. ممر ضيق بمحاذاة الجدار، وأحواض نباتات غطى التراب حوافها، ونافذة صغيرة فوق مستوى رأسه. كان قد رسم المكان من صور متفرقة وزيارات قصيرة؛ الآن ظهرت المسافات التي ملأها بالظن. حوض أقرب إلى الباب، ودرجة أعلى مما توقع، وأنبوب تصريف يشق الطريق الذي اختاره على الورق.

في نافذة المكتبة ضوء.

توقف عند طرف الحوض. الضوء خافت، محجوب بستارة ثقيلة، لكنه ثابت. بحث في الذاكرة عن ذكره في ملف بنعيسى، فوجد أوصاًفا للغرف ومواعيد غياب العاملة، ولم يجد ما يجيب عن هذا المستطيل الأصفر. ربما ترك كمال مصباًحا مضاًء، وربما كان له مؤقت. تخيل الجوابين بسهولة جعلته يحذر منهما. يستطيع المرء أن يخترع تفسيًرا لكل شيء إذا كان المطلوب مجرد تفسير.

انتظر حركة خلف الستارة. مر ظل غصن على الزجاج، وعاد مع الريح. ظل الضوء كما هو.

واحد.

في ظل الحوض أخرج هاتفه، وفتح الملاحظة التي نقل إليها حدود ما يعرفه عن البيت. خبر السفر من بنعيسى. موعد خروج العاملة من رواية سمعت عنها. موضع المكتبة من صورة داخلية. قرأ الأسماء المكتوبة إلى جانب المعلومات، واستغرب كيف صارت الفيلا خلال أيام بيتًا يعرفه. حتى النافذة التي ينظر إليها الآن عرف وظيفتها من شخص آخر.

كانت لديه فسحة ليتصل ببنعيسى. تخيل رنين الهاتف في المقهى، وصديقه يبتعد عن آخر الزبائن ليقول له إن الأمر بخير. سيعود الصوت المألوف، وتبقى النافذة مضاءة. أعاد الهاتف إلى جيبه. يحتاج إلى شيء يراه هنا، لا إلى طمأنة جديدة عن مكان بعيد.

تحرك نحو باب الخدمة. كان موضعه مطابقًا للصورة التي رآها، والقفل من الطراز الذي توقعه، لكن الخشب حوله أقدم مما ظهر فيها. أخذ من حافظة الأدوات ما احتاج إليه وأعاد الباقي قبل أن يبدأ. أصغى أكثر مما حرّك يديه. عندما استجاب الباب، أبقاه قريبًا من إطاره، وانتظر الصوت الذي سيأتي من الداخل.

جاءه برد ممر مغلق ورائحة خشب رطب. تجاوز العتبة بمقدار يسمح له برؤية الجدار، فرأى لوحة الإنذار إلى جوار خزانة ضيقة. كانت الشاشة مضاءة، وعليها عبارة واضحة تفيد بأن الحماية غير مفعلة. ظل ينظر إليها، ينتظر أن تظهر مهلة للدخول أو إشارة أخرى تغيّر المعنى. بقيت العبارة مكانها.

قد يكون النظام معطّلا. قد يكون أحدهم قد نسي تشغيله. وقد يكون صاحب البيت هنا.

نظر إلى الضوء المتسرب من نهاية الممر. كان عليه أن يضع هذه الاحتمالات إلى جانب خبر مدريد، لا أن يستعملها لمحو ما يراه.

اثنان. بلغ الحد، وانتهى الأمر الذي جاء من أجله.

أغلق الحافظة وأعادها إلى جيبه. عرف من ارتخاء أصابعه مقدار الجهد الذي بذله كي يستمر حتى هذه النقطة. سيرجع إلى السيارة، ويتصل بليلى من الطريق، ويخبرها أن المعلومات مختلفة. سيسمع احتجاجها، وربما سيتحمل اتهاماً بأنه أضاع وقتها. بدا ذلك ثمناً معقولاً على نحو مريح.

رفع عينيه إلى اللوحة مرة أخيرة، وتركها كما وجدها. كانت عنده رغبة سخيفة في أن يعيد إليها الحماية قبل أن يخرج، كأن إصلاح ما يراه سيعيد للبيت الصفة التي دخل من أجلها. أدركها وابتسم ابتسامة ضيقة. هذا بيت رجل آخر، والنظام يخبره بشيء عنه. مهمته الآن أن يصغي إلى الخبر.

استدار إلى باب الخدمة.

عند استدارته اتسع مجال رؤيته عبر الممرٍ، وظهر أسفل الباب الموارب الذي يصدر عنه الضوء. رأى حذاءً بنياً، مقدمته متجهة إلى السقف، وخلفه طرف سروال داكن يمتد خارج الشق. توقف وغّير موضع رأسه. الحذاء متصل بساق. أبعد قليلاً، على الأرض، شيء يشبه ظل يد.

قال بصوت منخفض: «السي كمال؟»

انتظر. وصل من الزقاق احتكاك غطاء السقالة بالحديد.

رفع صوته هذه المرة. «هل تسمعني؟»

بقي الحذاء في وضعه. عرف إدريس أنه يستطيع أن يخرج، وأن يفسر ما رآه بطريقته إلى أن يصل إلى السيارة. رجل نائم قرب مدفأة، أو شخص انحنى خلف باب. التفسيرات متاحة هنا أيضاً. تقدم نحو

المكتبة وهو يخرج الهاتف، ودفع الباب بقدر ما احتاج ليرى الرجل كاملًا.

فاجأه الدفء عند الوجه.

كان كمال الطاهري ممددًا قرب المكتب، ووجهه مائل إلى جهة الباب. عرفه من الصورة الحديثة التي وجدها أثناء جمع المعلومات، لكن الصورة أبقت له وقار الجلوس وابتسامة محسوبة. هنا انفتح فمه قليلًا، واستقرت نظارتاه تحت طرف المكتب بعيدًا عن يده. عند صدغه جرح، وعلى السجاد إلى جانبه مسند كتب برونزي مقلوب. ساق كرسي تحجب جزءًا من كتفه.

نزل إدريس على ركبة واحدة وناداه. مد يده إلى كتفه، منتظرًا أن يتحرك الرجل ويغضب، ولو للحظة. كان سيقبل الغضب كله. قرب وجهه ليتبين تنفسه، وبحث بأصابعه عن نبض عند العنق. القفاز الرقيق يعوق إحساسه، والخوف يجعل أصابعه أثقل. بقي يبحث عن نبضة يستطيع تمييزها. ما أحسه عبر القفاز كان دفئًا، لا جوابًا.

دافئ.

بقيت الكلمة وحدها لحظة. ربما حدث هذا منذ قليل. ربما خرج من فعل ذلك حين كان هو في الحديقة، أو ما زال في غرفة أخرى. رفع عينيه إلى الباب، وأنصت إلى البيت. صار كل صوت فيه قابلًا لأن يكون خطوة؛ خشب يستقر، وريح عند نافذة، وطنين بعيد يأتيه كأنه من وراء الجدار.

عاد إلى الوجه. كمال ساكن، والصدر تحت القميص لا يظهر حركة يستطيع الاطمئنان إليها. بحث مرة أخرى، ثم أدرك أنه يكرر المحاولة طلبًا لجواب يريده. نظر إلى شاشة هاتفه: الحادية عشرة وإحدى وثلاثون دقيقة.

على حافة المكتب منديل قماشي مطوي، وفوقه قلم بلا غطاء. بدت الأشياء قريبة من يد الرجل، من حركة كان سيكملها لو نهض. احتاج إدريس إلى مقاومة رغبة في وضع النظارتين على المكتب؛ فعل صغير يعرف كيف يؤديه، وسط ما يعجز عنه. بقيتا حيث رآهما. أخرج هاتفه من بين ركبته وطرف السجاد، ووضعه في جيبه حتى يفرغ يديه.

على المكتب هاتف أرضي. كان أقرب من الباب.

تحرك إليه. في زجاج الخزانة رأى يديه في القفازين وصورة رجل يتردد أمام هاتف، كأنه نسي الرقم الذي جاء يطلبه. وقف للحظة أمام الهاتف. يستطيع أن يتصل من الخارج، أن يبتعد أولًا، أن يجعل المسافة بينه وبين البيت أكبر قبل أن يبدأ الصوت في تسجيل وجوده. نظر إلى كمال، ومد يده إلى السماعة.

عند الحادية عشرة وثلاث وثلاثين دقيقة، جاءه الرد. أعطى العنوان واسم صاحب الفيلا، وقال إن رجلًا مصابًا في المكتبة ولا يستجيب. بدأ بنبرة غيّرها عمدًا، فطلب منه الرجل أن يعيد رقم البيت. أعاده بوضوح، ثم أخذت أسئلة التنفس واستجابة المصاب تشغله عن مراقبة صوته. سأل الصوت عن التنفس، وعن وجود شخص آخر معه. أجاب إدريس بما رآه، لا بما صار يخشاه.

«لا أعرف إن كان يتنفس. لا أرى حركة.»

سأله الرجل عن اسمه.

«أرسلوا أحدًا، من فضلك. العنوان كما قلت لك. الباب الخلفي مفتوح.»

كرر الرجل العنوان، فتدخل إدريس لتصحيح اسم الزقاق. كانت هناك تسمية يستعملها أهل الحي تختلف عن المكتوبة على اللوحة؛ ذكر الاثنتين ووصف المدخل الأمامي. سمع مفاتيح تُضغط في

الطرف الآخر. كل تفصيل ينطق به يجعله أنفع للرجل على الأرض، وأصعب على نفسه حين يحاول تفسير مقدار معرفته بالمكان. واصل الوصف حتى أكد الصوت أنه فهم.

سأله عن عمر المصاب. قال إنه في الستينيات، وتوقف قبل أن يعطي السن التي قرأها في ملفه. وجد في توقفه شيئًا مخجلًا: حتى الآن ينتقي ما يكشفه عن نفسه. أضاف الاسم كاملًا مرة أخرى، كأنه يستطيع التعويض بهذه الدقة.

كان الرد عمليًا، خاليًا من الوعد الذي احتاج إلى سماعه. طلب منه أن يبقى على الخط، وأن يجعل الوصول إلى المصاب ممكنًا. وضع السماعة على مكبر الصوت وعاد إلى الأرض. صار الصوت البعيد جزءًا من الغرفة، يسأل ويكرر ما يحتاج إليه، ويعيده إلى كمال كلما شرد انتباهه نحو الممر.

بدأ إدريس محاولة إنعاشه على توجيهاته. تقلص العالم إلى يديه وصوت الرجل في الهاتف. في دورة تدريبية قديمة داخل شركة، كان المدرب قد صحح له موضع ذراعيه فوق دمية، وضحك زميله لأنه أخذ التمرين بجدية أكثر مما ينبغي. تذكر الضحك بوضوح جارح، وغاب عنه وجه الزميل. هنا كانت هناك ياقة قميص مثنية، وزر أبيض، ورجل يفترض أن يكون في مدريد.

مر الوقت في جهد لا يشبه ما استعد له. بدأ الألم في رسغيه، وصار معطفه ضيقًا عند الكتفين. أسقطه خلفه بحركة واحدة وعاد إلى ما يفعله. كلما خُيّل إليه أنه رأى استجابة، بحث عنها بعينيه من غير أن يجدها. الصوت في الهاتف يثبته عند المحاولة، وهو يتمسك به أكثر مما يتمسك بمعرفته القديمة.

كان دفء الغرفة يزداد عليه مع الجهد. إلى جواره مدفأة كهربائية، وتحتها مقبس أبيض تضيء فيه نقطة حمراء. عبرت الأشياء مجال بصره على دفعات، بين انحناءة وأخرى. طرف مكتب، وورقة مطوية، وفنجان موضوع في صحنه. لم يجمعها في حكاية. احتاج إلى نفس واحد يخرج من الرجل كي تتغير وظيفة المكان كله.

فكر في الاتهامات التي جاء يحملها عن كمال: البيت، والأوراق، وما خرج من أيدي أصحابه. كانت كافية ليبرر دخوله، وعاجزة الآن عن أن تخفف ثقل ما أمامه. إذا فتح الرجل عينيه فسيسأله عن وجوده هنا، وقد يعرف وجهه، وقد يتمسك به حتى تصل الشرطة. للمرة الأولى أراد نتيجة يعرف أنها ستضره، وأرادها من غير أن يقسمها في ذهنه إلى مكاسب وخسائر.

ناداه بصوت مسموع. «السي كمال، المساعدة في الطريق.»

خرجت الجملة بصوته العادي، والهاتف ما زال على مكبر الصوت. انتبه إلى ذلك بعد أن قالها؛ النبرة المصطنعة التي بدأ بها المكالمة كانت قد ضاعت في الجهد. كررها، وواصل المحاولة.

قال للصوت إن أحدًا ربما آذى كمال، وإنه يجهل إن كان البيت خاليًا. سأله الرجل إن كان يرى خطرًا مباشرًا. نظر إدريس إلى الباب المفتوح.

«لا. لا أرى أحدًا.»

أراد أن يقول: لكنني لا أعرف. كانت العبارة صالحة لكل ما في هذه الليلة، حتى صارت بلا فائدة في الجواب. بقي عند كمال. توقف الإنصات إلى البيت عن أن يكون وسيلة للسرقة؛ صار ينتظر صوت وصول الآخرين، ويخافه في الوقت نفسه.

حين سمع حركة عند الجهة الأمامية، رفع رأسه. تتابعت طرقات، وصوت ينادي أصحاب البيت. أخبر الرجل في الهاتف أن هناك من وصل، فطلب منه أن يفتح لهم. نهض، وشعر بركبته تتخاذل لحظة. أخذ معطفه من الأرض وحمله على ذراعه، ومشى عبر الممر نحو النداء.

وصل إلى باب الردهة. خلف الزجاج المعتم تحرك ضوء، وسمع السؤال يتكرر. فتح الباب الخارجي، وتراجع إلى الممر الذي بقي مظلما. انسكب ضوء المدخل على الأرض أمامه، بينما ظهر باب المكتبة المضاء في آخر الممر.

«هناك. آخر الممر، على اليسار.»

اتجه أول القادمين إلى الباب المضاء، يحمل حقيبة ويسأل عن الرجل. أجاب إدريس من موضعه بأنه وجده على الأرض، وأنه حاول مساعدته على توجيهات الهاتف. سمع سؤالا عن التنفس فأجاب، وتبعت القادم خطوات شخص آخر. مر ضوء محمول على الجدار قريبا منه، فثبت في مكانه. كانا منشغلين بالمصاب، لكن ذلك لا يخبره بما رأياه من وجهه.

ظل إدريس عند حافة الردهة إلى أن سمعهما في المكتبة. عندئذ فقط أدرك أنه يستطيع رفع يديه عن الرجل من دون أن يتركه وحده. أسند ظهره إلى الجدار، وأخذ نفسا عميقا فشعر بألم في صدره. جاءه من الداخل صوت طلب قصير، واحتكاك حقيبة بالأرض. كانوا يفعلون ما جاءوا من أجله.

نظر إلى هاتفه. اقتربت الساعة من الحادية عشرة وخمس وأربعين دقيقة.

كان عليه أن يبقى. سيطلبون اسمه، وكيف دخل، ومتى وجده. يستطيع أن يبدأ من الحقيقة الصغيرة: رأى ساقًا من شق الباب، فنادى صاحبها. وبعدها تأتي الحقيقة الأخرى، التي يعرف أنها ستأكل الأولى في كل روايةٍ تكتب عنه.

عاد خطوتين نحو المكتبة، كأنه سيلحق بصوته الذي تركه هناك. من الباب رأى الخزنة.

كانت مفتوحة خلف المكتب. بابها يحجب جزءًا من الرف، وعلى الرف علبة مخملية مفتوحة، يتوسط بطانتها تجويف خال. عرف العلبة من الصورة التي راجعها في الطريق. قربها أوراق ورزمة نقدية، وفوق المكتب فنجان ثان وصحن حلوى. بياض الفنجانين ظاهر من موضعه؛ بدوا كأنهما وضعًا استعدادًا لجلوس شخصين. على رف جانبي شاشة سوداء تنعكس فيها إضاءة الغرفة.

بحثت عيناه عن الساعة قبل أن يستطيع منعهما. مسح بنظره الرف وطرف المكتب والأرض القريبة، واكتشف أن جزءًا منه ما زال يريد إتمام المهمة. شعر بالخجل من سرعة النظر. الرجل على السجاد، والساعة غائبة، وهو يبحث عن شيء يفسر مجيئه من دون أن يضطر إلى شرحه.

بقي خطوة داخل ظلمة الممر، وأخرج الهاتف وصّور الخزنة عبر الباب المفتوح. صورة واحدة خرجت مائلة، فأخذ ثانية أوسع ظهر فيها طرف المكتب والمدفأة والمقبس، وذراع أحد القادمين عند أسفل الإطار. تجنب وجه كمال. استغرق الأمر ثواني، لكنه عرف ما اختاره في تلك الثواني: أن يحتفظ بشيء يستند إليه حين يصبح الكلام عن دخوله أصعب.

كان في الصور ما يثبت أن العلبة فارغة حين التقطها. أما أين الساعة، ومتى أُخذت من مكانها، فشيء آخر. رأى الفرق فورًا، وبقي محتفظًا بهما.

تحرك أحد المسعفين داخل المكتبة وهو ينقل شيئًا من الحقيبة، فخفض إدريس الهاتف إلى جانبه. سيتذكر الرجل أنه صوّر، إن انتبه إلى الشاشة في العتمة. كان يمكن للصورة التي يريدها سندًا أن تصبح سؤالًا جديدًا: لماذا انشغل بالخزنة؟ نظر إلى يديه، إلى الارتجاف الذي يجعل الشاشة تهتز. يعرف السبب، لكن كل جملة خطر له أن يقوله بها بدت معيبة أمام شخص جاء لإنقاذ مصاب.

رفع أحد الرجلين رأسه نحو الممر المظلم.

«أنت من اتصل؟»

قال إدريس من العتمة: «نعم.» أراد أن يضيف اسمه، أو يسأل إن كان ثمة أمل. تحرك فمه، وخرج السؤال الثاني.

«هل يمكن...؟»

قاطعه الرجل بطلب أن يترك الممر خالًيا. تراجع إدريس. كان الطلب بسيطًا، يمنحه حركة يفعلها من غير أن يفسرها. تبعه خطوة أخرى إلى الخلف، نحو باب الخدمة.

لبس معطفه بصعوبة؛ علقت أصابعه ببطانة الكم. تحسس حافظة الأدوات في جيبه، واستعاد الهاتف الذي كان يضغط عليه بيده الأخرى. هذان ما جاء بهما، وهما ما سيخرج به. علبة الساعة بقيت على رفها، والمال إلى جوارها. تمنى، على نحو ساذج، لو أن أحدًا يستطيع رؤية جيوبه كما يراها هو من الداخل.

عند باب الخدمة توقف. يستطيع أن يعود الآن أيضا. صار هناك أشخاص يستطيع أن يسلمهم اسمه، وأسبابًا كثيرة تدفعه إلى إبقائه

لنفسه. تذكر الحارس أعلى الدرج، ممسكًا بالورقة. هذه المرة انتظر حتى جاء من يبقى، لكنه كان يعرف أن ذلك لا يجيب عن كل شيء.

خرج.

ضربه البرد في القميص المبتل بالعرق. خلفه أصوات واضحة وحركة، وأمامه الحديقة التي حفظ مواضع أحواضها قبل دقائق. ابتعد عن الباب، محاولًا أن يخفف صوت أنفاسه. حين بلغ السور عجزت ذراعاه في المحاولة الأولى عن حمله بالسهولة التي توقعها. بقي ملتصقًا بالحجر، غاضبًا من جسده، حتى تذكر ما طلبه منه على أرض المكتبة.

استعاد توازنه وعبر. في الزقاق انغرس طرف نعله في الماء الذي تجمع قرب الدلو. أبعد قدمه، ووقف لحظة تحت السقالة. الساعة الحادية عشرة وست وأربعون دقيقة. خرج في الوقت الذي كان يظنه مناسبًا لإخفاء ساعة في جيبه، وبقيت أصابعه ترتجف من جهد حاول به إبقاء رجل في الحياة.

فتح محادثة ليلى. كان عليه أن يسألها عن كمال، وعن السفر، وعن الساعة التي سبقته إلى الغياب. كتب: «أين أنت؟»

قبل أن يرسل، اهتز الهاتف في يده.

ظهرت رسالة جديدة فوق الكلمات التي كتبها.

«شكرًا على حضورك في الموعد.»

رفع عينيه إلى الزقاق. الغطاء يتحرك فوق السقالة، والماء يقطر من حافة الدلو. أعاد النظر إلى الشاشة.

كان آخر ما أرسله إليها موافقته ليلة أمس.

الفصل الرابع

الجرد

طنجة، السبت 17 يناير 2026

قبل أن ترى هناء الجثة، رأت الكرسي الذي تغّير مكانه.

كان أحد المسعفين يشير إليه من باب المكتبة، شارًحا لشرطي أين وجده وأين دفعه ليفسح موضعا للحقيبة. وقف الكرسي الآن بزاوية حادة إلى المكتب، كأن صاحبه نهض غاضبا. في صورة تلتقط دون هذا الكلام، يمكن أن يصبح أثر عراك.

قالت هناء: — سّجلوا موضعه الأول كما يصفه. وصّوروا الوضع الحالي.

أخرجت هاتفها لتراجع الوقت قبل أن تعيده إلى جيبها. الثانية عشرة وأربعون دقيقة. كان اسم الضحية في البلاغ قد استدعى من الذاكرة رجلا رأته في صورة افتتاح جمعية، واقفا خلف أطفال يحملون حقائب مدرسية. الآن استقبلها بيت بباب مفتوح، ورائحة هواء محبوس خالطتها رطوبة الخارج.

اسمها ووقت دخولها أُثبتا في سجل المدخل. ارتدت وسائل الوقاية، وتبعت المسار الذي حدده زميلها. في الممر بقعة ماء صغيرة، وأثر عريض من حذاء مر فوقها. سألت عن الداخلين منذ وصول أول دورية؛ قائمة الأسماء ينبغي أن تكتمل قبل أن ينصرف أحد. كان رجل قرب الباب يتأهب لتفسير أن الإنقاذ سبق كل شيء.

— أعرف، قالت. أحتاج إلى معرفة ما تغّير، لا إلى لوم من غّيره.

بقي المسعف في موضعه، وقد هدأت كتفاه قليلًا. طلبت منه أن ينتظر ريثما تنظر إلى الغرفة، وأن يدلي زميله بوصفه على حدة.

داخل المكتبة كان الضوء أكثر مما توقعت. مصباح المكتب مضاء، ومصباح علوي أُشعل بعد وصول النجدة. كمال الطاهري على السجاد، قميصه مفتوح عند الصدر، ووجهه مائل، وعند صدغه إصابة جعلت الشعر القريب يلتصق بالجلد. غطت بطانية جزءا من ساقيه. إلى جواره بقايا أغلفة معدات استُعملت في محاولة الإنعاش.

نظر الطبيب ياسين العمراني إليها وأومأ. كان يعرف السؤال الذي يتعجل القادمون طرحه، فسبقها بما يستطيع قوله:

— سأحتاج إلى الفحص الكامل قبل الجزم بسبب الوفاة. إصابة الرأس واضحة، لكن وضوحها لا يغني عن الباقي.

نظرت إلى مسند الكتب البرونزي المقلوب قرب السجاد. تمثال صغير فوق قاعدة مربعة، وعلى زاوية من قاعدته أثر داكن. فوق الرف القريب قطعة ثانية تشبهه، تسند كتبا مائلة.

— وهذه؟

— تُفحص مع الإصابة. لا أريد أن أختار الأداة لأن شكلها يناسب المشهد.

كان في نبرته تعب يعرفه العاملون في آخر الليل، من غير ضيق بالسؤال. القطعتان تُصوّران في موضعيهما، وما على الأولى يُوثّق قبل رفعها؛ هذا ما أكّدته للتقني. تركت تقدير العلاقة للطبيب والفحص، وانتقلت بعينيها إلى المكتب.

هاتف أرضي، سماعته في مكانها. فنجانان أبيضان في صحنين صغيرين. وعاء حفظ للقهوة. طبق حلوى تحت غطاء زجاجي. ملفات مصطفة عند الجانب الأيسر، وقلم موازٍ لحافة ورقة. النظارتان تحت

طرف المكتب، حيث يستطيع المرء أن يدوسهما إذا انحنى نحو الجثة من الجهة الخطأ.

وخلف المكتب، باب الخزنة مفتوح.

توقفت هناء عند المسافة التي تسمح لها بالنظر دون الاقتراب من الأشياء. علبة مخملية داخل الخزنة، وتجويف في بطانتها، وأوراق، ورزمة نقدية يحيط بها شريط. كان الفراغ في العلبة أول ما يجذب النظر، مع أنه أصغر مما بقي حوله.

— هل نعرف ما كان فيها؟

قال زميلها: — ساعة، على الأغلب.

— من قال؟

— شكل العلبة.

«علبة مفتوحة ذات تجويف خال»؛ هكذا أُملت الوصف، إلى أن يسألوا من يعرف محتواها. ابتسم الرجل ابتسامة قصيرة وعدّل عبارته. لم تكن تصحح له الكلمة من أجل الصرامة؛ لو صارت الساعة حقيقة في أول صفحة، فسيبدأ كل سؤال تالٍ من سرقتها.

على الرف المقابل شاشة سوداء. وتحتها جهاز تسجيل تتصل به أسلاك، وموّزع صغير للطاقة، وملفات قديمة غطى الغبار حوافها. أشار تقني إلى أنه سينتظر المختص لفحص الأجهزة. أُكدت للفريق أن يبقى كل شيء كما وُجد، وأن يُوّثق كل تغيير يلزم.

كانت المدفأة الكهربائية مطفأة قرب جانب المكتب، وسلكها ينتهي عند قطعة بيضاء في مأخذ الحائط. رأتها تُصوّر ضمن الجرد، إلى جوار مقبس متعدد، وكأس فيه قلمان جافان، ومفتاح صغير فوق كتاب.

سأل أحدهم إن كان يستطيع فتح النافذة؛ الجو يضيق مع عدد الواقفين.

رفع الطبيب رأسه: — بعد قياس حرارة المكان. ونكتب وقت فتحها. وسّجلوا أن المدفأة مطفأة وجسمها ما زال فاتِرا.

تراجعت هناء نحو الباب لتترك له مجالًا. أحست بالفرق بين هواء المكتبة وهواء الممر عند وجهها، وفكت الزر الأعلى من معطفها تحت لباس الوقاية. كان دفء الغرفة حقيقة الآن؛ أما مقدار ما كان عليه قبل ساعة، فسيحتاج إلى أكثر من إحساس الداخل إليها.

في غرفة الطعام وقف المسعف الأول قرب الطاولة. أطفأ شاشة هاتفه عندما دخلت، وقال إنه أخبر فريقه بأنه ما زال في البيت. أشارت إلى الكرسي، وبدأت من لحظة الوصول.

— قرعنا الباب. فتح لنا رجل، وأشار إلى المكتبة. بقي في الممر.

— هل كان الباب مغلقًا قبل أن تطرقوا؟

— نعم. هو فتحه.

— هل رأيت وجهه؟

رفع الرجل يده إلى مستوى عينيه، كأنه يعيد الضوء الذي حمله.

— لم أنظر إليه بما يكفي. الضوء كان وراءنا، والمكتبة واضحة في النهاية. رأيت شخصا طويلا تقريبا، ومعطفا على ذراعه أو بيده. دخلنا مباشرة.

سألته عن لون المعطف، فاختار لونًا داكنًا، وتراجع عن الجزم بالأسود. وعن العمر، قال «رجل، ليس شابًا صغيرا»، ثم أضاف أنه لا يستطيع إعطاء أكثر من ذلك. حدود الوصف دخلت المحضر مع الوصف نفسه.

– هل رأيته يجري الإنعاش؟

– حين دخلت كان في الممر. قال إنه حاول على تعليمات الهاتف. مكبر الصوت كان يعمل في المكتبة.

– ماذا فعلت أنت؟

شرح ما تولياه عند الوصول، وموضع الحقيبة والكرسي، وما غّيراه من وضع المصاب خلال التقييم والمحاولة. عند الكلام عن مجرى الهواء توقف، وضغط فكه بإصبعيه دون أن يشعر.

– كان الفك متصلّبا. قلتها لزميلي وقتها. الطبيب عنده التفاصيل التي دّوناها.

سألته إن كان سجل التدخل يحدد وقت ملاحظته. أشار إلى التقرير الذي سُيستكمل، وأكد أنه سُيثبت ما عاينه بدل أن يعيد تقديره الآن.

– ومتى خرج الرجل؟

– لا أعرف. سألته إن كان هو المتصل، فقال نعم. بعد ذلك كنت مع المصاب. حين احتجنا إليه، لم نجده.

– هل قال اسمه؟

– لا.

– هل سمعت بًاباُ يغلق؟

فكر قلًيلا، ثم هز رأسه.

– كانت الأصوات كثيرة. لا أستطيع الآن أن أختار صوًتا منها وأقول إنه الباب.

في شهادة المسعف الثاني اختلفت بعض التفاصيل. تذكر الرجل أقصر قلًيلا، وقال إنه رأى ضوء شاشة من الممر، لكنه انشغلٍ بفتح الحقيبة. سألته هناء إن كان رآه يصّور، فأجاب بأنه رأى ضوءا، لا

حركة تصوير يستطيع الجزم بها. اتفق الاثنان على الصوت المتعب وعلى رجل بقي بعيدًا عن الإضاءة. ولم يمنحها أي منهما وجهًا.

قبل أن ينصرف الثاني، قال: — سأل: «هل يمكن...؟» وتوقف في منتصف الجملة. بدا كأنه ينتظر خبرًا يطمئنه.

سألته إن كان هذا ما قاله الرجل أم ما فهمه هو. ابتسم بحرج.

— هذا ما فهمته أنا.

أثبتت الجملة وما أعقبها. احتاجت إلى الفرق، وإن بدا صغيرًا على الورق.

عند عودتها إلى المكتبة كان ياسين يراجع ما دّون. سألته عن تصلب الفك، وأخبرته أن المسعف ذكره من تلقاء نفسه.

— نعم، قال. وهناك علامات أخرى سنقرأها معًا. التيبس يتأثر بظروف الجسم والحرارة. لا يعطينا وحده ساعة ثابتة.

— هل يسمح لك الآن أن تقول إن الوفاة سبقت اتصال النجدة؟

— الاتصال ليس لحظة طبية رأيتها. أستطيع وصف ما عاينته هنا، ثم أضيف إليه تقرير التدخل والفحص. وإذا أعطيتك نطاقًا تقديريًا، فسيكون له هامش وحدود.

— أريد هذه الحدود مكتوبة.

— سأكتبها.

كانت قد درست ما يكفي من الكيمياء لتعرف لماذا تُضلّل نتيجة صحيحة إذا فُصلت عن شروطها. وفي عملها تعلمت شيئًا أكثر إزعاجًا: الناس ينسون الشروط أسرع مما ينسون الرقم. لذلك تركت خانة وقت الوفاة في دفترها خالية، وكتبت تحتها موعد المعاينة ومصدر كل وقت وصلها.

في الثانية إلا قليلًا وصل الحسين قاسمي. وقف عند الباب، وسأل أولًا عمن عرّف الضحية، وعن أقرب أفراد أسرته، وعن إخطار النيابة. استمع إلى الأجوبة، ثم نظر إلى الخزنة.

— هل أخذ المال؟

— نرى رزمة باقية. نحتاج إلى جرد ما كان موجودًا قبل الليلة.

— والمتصل اختفى.

— غادر قبل أن يُؤخذ اسمه.

التفت إليها.

— الفرق مفيد في المحضر. في الخارج سنبحث عن الرجل نفسه.

وافقت. سألته إن كانوا قد وصلوا إلى العاملة، فأخبرها أن الاتصال بها جارٍ، وأنهم سيطلبون حضورها في الصباح إذا لم تكن لديها معلومة تستدعي سؤالًا عاجلًا. قريب الضحية أُبلغ أيضًا. احتاجوا إلى أناس يعرفون عادات البيت، لا إلى من يفسرونها من مظهر الأثاث.

جاء تقني بورقة صغيرة مصّورة في موضعها، كانت مطوية بين أوراق عند طرف المكتب. بعد توثيقها وفتحها، ظهر سطر واحد:

«لن أسامحك».

كانت الورقة من دفتر مكتبي، قُصّ أعلاها بخط غير مستقيم، وبقي عند الحافة طرف حروف مطبوعة.

قرأت هناء الصورة، ثم سألته عن الجهة الخلفية. خالية في المعاينة الظاهرة، بلا اسم أو تاريخ. أُعطيت الورقة رقمًا مستقلًا وحُفظت للفحص.

قال قاسمي: — نحتاج إلى معرفة من كتبها.

— ومتى وصلت إلى هنا.

نظر إلى الجثة قبل أن تغادر الغرفة.

— قد يجيب السؤال الأول عن الثاني.

— وقد تكون أقدم من الليلة.

هز رأسه موافقًا، وطلب إدراجها ضمن الأسئلة الموجهة لمن يعرفون خط الضحية ومراسلاته. بقي السطر أمام هناء بعد أن أغلق التقني الصورة. كان واضحًا إلى حد يدفع القارئ إلى رفع صوته به. أما صاحبه، فقد يكون كتبه قبل سنوات، أو قبل ساعة، وقد يكون كمال هو الكاتب أصلًا.

في الردهة جاء خبر الكاميرا في البيت المجاور. صاحب البيت موجود، وقد عرف بوصول الشرطة من الضوء عند النافذة. قال إن الكاميرا الخارجية تسجل جانبًا من الزقاق، وإنه يستطيع إظهار التسجيل.

ذهبت هناء مع زميل مختص. كان الرجل يرتدي سترة فوق لباس النوم، ويكرر أنه ركّب الكاميرا لحماية أدوات البناء. من النافذة ظهر طرف السقالة وغطاؤها المتحرك. طلبت منه أن يريهما ما يحتفظ به الجهاز، وأن يترك استخراج النسخة للفني.

على الشاشة الصغيرة كان الزقاق أقصر وأضيق مما رأته من النافذة. جزء منه محجوب، والطرف القريب يشتد فيه البياض عند مرور ضوء سيارة. سأل الفني عن إعداد الساعة، وقارن الوقت المعروض بمرجع مضبوط، وسجل الفرق الذي وجده قبل متابعة العمل. المدة المتاحة من المساء كاملة هي ما أرادت هناء حفظه، لا المقطع الذي قد يعثرون فيه على شخص فقط.

مروا على التسجيل أولًا بسرعة. عند الثامنة واثنتين وخمسين دقيقة عبر شخص يحمل مظلة، وحجب القماش رأسه حين اقترب من حافة

الصورة. بعده جاء رجل يدفع دراجة، ثم فراغات يتغير فيها الضوء ولا يمر أحد. أدخل الزميل أوقات الحركة في قائمة المراجعة، وعادوا إلى الجزء القريب من وصول النجدة.

في الثالثة والعشرين واثنتين وعشرين دقيقة، ظهر الرجل عند السور. توقفت يد صاحب البيت فوق حزام سترته.

— هذا هو.

أوقفت هناء الكلام بإشارة صغيرة، وأبقت عينيها على الشاشة. شخص بمعطف داكن يرفع قدمه، يستند، ويختفي إلى الجهة الأخرى. الوجه بقعة تتحرك، حتى حين جُمّدت الصورة.

الثواني السابقة واللاحقة عادت إلى الشاشة بإشارة منها. من أين جاء؟ كم من الطريق يظهر؟ هل دخل أحد قبله في الجزء المحجوب؟ أجاب الفني عما تسمح به الزاوية، وترك ما عدا ذلك بلا جواب. تكبير الصورة وّسع المربعات حول الرأس، من غير أن يخرج وجها منها.

قال صاحب البيت: — هل يمكن أن تجعلوا الصورة أوضح؟

— سنفحص النسخة الأصلية، أجاب الفني. هذه المعاينة وحدها لا تكفي.

في موضع لاحق ظهر تحرك عند طرف السور. حجب غطاء السقالة جزءا منه، ثم عبرت هيئة إلى الزقاق، يداها حّرتان، وغابت. دّون الفني الوقت كما ورد في التسجيل، وحدود ما يمكن رؤيته، وواصل استخراج المادة. ظلت هناء واقفة حتى انتهى، تقاوم رغبتها في إعادة مقطع الدخول وحده مرة أخرى.

عند الباب سألها صاحب البيت إن كان الرجل قد قتل جاره.

— نريد أن نعرف من هو وما الذي حدث في الداخل.

بدا الجواب أقل مما انتظر، لكنه أفسح لهما الطريق.

قرب الفجر كانت الغرفة قد صارت أبرد وأقل ازدحامًا. أُخرجت الجثة بعد استكمال ما يلزم في المكان، وبقي السجاد يحتفظ بمواضع الأشياء التي رُفعت منه. أحست هناء بالمساحة التي كان يشغلها كمال للمرة الأولى؛ تستطيع الآن أن تمشي فيها، ولهذا بدت أكثر حضورًا.

عرض المختص فحصه الأولي لجهاز التسجيل. مكان وحدة التخزين الداخلية خال. وّثق موضعها والتوصيلات والحالة التي وجدها، وسُيستكمل فحص الجهاز وبقية النظام.

— هل نعرف متى نُزعت؟ سألت.

— ليس من هذا وحده.

شاشة سوداء صارت الآن نقًصا ماديًا محدًدا، لكن تاريخ النقص وصاحبه ما زالا غائبين. طلبت مراجعة أي وسائط أو تسجيلات أخرى متاحة، وسؤال من يتولى صيانة النظام.

جاءت بيانات أولية من مركز النجدة: بدء المكالمة في الثالثة والعشرين وثلاث وثلاثين دقيقة، والتدخل عند البيت نحو الثالثة والعشرين وأربع وأربعين. سُتضم السجلات والتسجيل وفق الإجراءات. في الجزء المتاح من المكالمة سمعت هناء الرجل يذكر تسمية شعبية للزقاق إلى جانب اسمه الرسمي؛ أضافت الاسمين إلى دفترها.

في البداية كان صوته ثقيًلا، متحفًظا. لاحًقا ارتفع مع الجهد، وصارت الكلمات أقصر. عند مناداته كمال، مالت هناء قليلًا نحو الجهاز. تعرف ذلك التغير عند الأشخاص الذين يحاولون السيطرة على شيء يفلت منهم، لكنها لا تعرف سببه هنا.

وصل قاسمي وهي تعيد موضًعا من التسجيل.

– عندنا دخول في الحادية عشرة واثنتين وعشرين. ومكالمة بعدها بإحدى عشرة دقيقة.

– عندنا شخص دخل، ومتصل من هاتف البيت. الربط بينهما قوي، ويحتاجٍ إلى تثبيت.

– كم شخصا تتوقعين في المكتبة؟

نظرت إلى صورة الفنجانين أمامها.

– لا أعرف بعد.

أصغى إلى التسجيل حتى توقف، ثم قال إن عليهم تتبع حركة المركبات حول الحي ومراجعة بقية الكاميرات، وألا ينتظروا أن يمنحهم الطبيب الدقيقة التي يريدونها. وافقت على توزيع العمل، وأرسلت أوقات الحركة المعروفة إلى الفريق، مع طلب الرجوع إلى ما قبلها.

بعد الثامنة بقليل دخل الضوء الرمادي من نافذة غرفة الطعام. كتبت هناء عناوين من سيلزم سؤالهم، وتركت أمام كل اسم مساحة. العاملة ستعرف ما أعدته، وقريب الضحية قد يعرف محتويات الخزنة، ومن صان الأجهزة قد يفسر ما ينقصها. كان الجرد يزداد طوًلا كلما صار المشهد أقل بساطة.

في أسفل الصفحة وضعت بنًدا للرجل الذي اتصل بالنجدة. كَتبت تحته ما يثبت: أعطى العنوان، عرف اسم كمال، صحح اسم الزقاق، وبقي على الخط أثناء محاولة المساعدة. وفي الجانب الآخر: غادر، واسمه مجهول، ووصف وجهه غير متاح.

رن هاتف زميلها قرب الباب. استمع، وطلب إعادة الاسم، ثم ناوله لها.

— اتصال وصل إلى المصلحة. صاحبه رفض أن يعطي هويته. يقول إنه يعرف الرجل الذي دخل البيت.

أخذت الهاتف. كان الزميل في الطرف الآخر يقرأ ما أثبته من كلام المتصل، قبل أن ينقطع الخط.

— «ابحثوا عن إدريس السراج».

طلبت الوقت ورقم الاتصال إن كان ظاهرًا والعبارة كاملة، من غير تحسين أو اختصار. كتبت الاسم أسفل بند الرجل المجهول، وفصلت بينهما بخط صغير.

قال زميلها: — صار عندنا اسم.

نظرت إلى الصفحة.

— صار عندنا من يريد أن نبحث عن هذا الاسم.

الفصل الخامس

فنجانان

السبت، 17 يناير

وضعت فاطنة ثلاث قطع من السكر في الكأس، وحّركت الملعقة، وبقيت تحّدق في الماء الساخن حتى ذّكرتها هناء بالشاي.

كان الكيس على الصحن، إلى جوار يدها. تناولته المرأة كأن أحًدا نقله إلى هناك أثناء حديثهما، وأنزلته في الكأس. انتشرت سحابة بنية حول الخيط.

قالت: — ُأعّد له القهوة منذ خمسة وعشرين عًاما. خمسة وعشرين. واليوم لا أعرف كيف أصنع كأس شاي.

تركتها هناء تحّرك الملعقة. اختارت غرفة الطعام الصغيرة لاستقبالها؛ باب المكتبة في الطرف الآخر من الممر، وراء شريط الحجز، وكان عبور الرجال ببدلات العمل البيضاء أمامه يجعل عيني فاطنة تتركان الكأس في كل مرة. أغلقت هناء الباب نصف إغلاق، بحيث تصل إليهما الأصوات دون أن تريا العابرين.

— احكي لي عن البارحة، من وقت وصولك. خذي وقتك.

بدأت المرأة بخبز اشترته من مخبزة مغلقة هذا الصباح، وببائع خضر أعاد إليها درهمين ناقصين. سجلت هناء الوقت الذي تذكره، ووضعت علامة صغيرة عند ما يحتاج إلى تثبيت. كانت التفاصيل المنزلية تتدفق بسهولة؛ وعندما بلغت فاطنة الساعة التي غادرت فيها، انقبضت أصابعها على الملعقة.

— قال لي أن أذهب مبكًرا.

— مبكّرا بالنسبة إلى ماذا؟

— أغادر في الثامنة عادة. البارحة خرجت قبلها بقليل. أراد أن يبقى وحده.

— قال ذلك بهذه الكلمات؟

رفعت فاطنة رأسها. بدت كأنها تتراجع في ذاكرتها إلى الصوت الذي سمعته، لا إلى المعنى الذي أعطته له بعد ذلك.

— قال: «اذهبي وارتاحي، فاطنة. سُأكمل هذا بنفسي». كان يقصد الصينية.

أدارت هناء صورة الطاولة نحوها. ظهرت فيها حافة الملف الذي يحمله تقني، والفنجانان، والصحن الصغير. غطّت بإصبعها الجزء غير اللازم من الصورة.

— هل تركِت الصينية هكذا؟

— الفنجانان، نعم. والحلوى زدُتها أنا. يأخذ قطعة، وربما لا يأخذ شيئًا. لكن الصحن يجب أن يكون هناك.

— ومن اختار فنجانين؟

— هو. قال: «فنجانين».

كتبت هناء الكلمة بين علامتي تنصيص. فنجانان معّدان لا يساويان شخصين جلسا إلى الطاولة. أحدهما قد يظل فارغًا، وقد يتغير الموعد، وقد يأتي شخص ثالث. أرادت أن تبقى هذه المسافة على الورق قبل أن يمحوها تكرار الحكاية.

— هل وضِعت القهوة فيهما؟

— لا. تركتها في إبريق حفظ الحرارة. يصّبها بنفسه، قلَيلا قلَيلا. لا يحبها باردة.

— هل ذكر اسم من ينتظره؟

حّركت فاطنة رأسها نفيًا، وعادت إلى الكأس.

— هل كان مسرورًا؟ قلقًا؟

— كان يريد الانتهاء من أمر ما. هذا ما شعرت به. يدخل المكتبة ويخرج منها، وينظر إلى هاتفه. ظننت أن الأمر يتعلق بالسفر.

توقفت هناء عن الكتابة.

— أي سفر؟

— مدريد. لكنه ألغى السفر. أخبرني يوم الاثنين كي آتي الجمعة والسبت كالمعتاد.

ثبتت هناء اليوم، ثم سألتها عمن يعرف بالإلغاء. عّدت المرأة السائق ويوسف، وقالت إن كمال يتولى اتصالاته بنفسه. وضعت هناء خطًا تحت «قالها لي يوم الاثنين». حتى الآن، كانت هذه شهادة فاطنة على ما سمعته؛ ستطلب بيانات الحجز على حدة.

من وراء الباب جاء احتكاك طويل، كأن كرسيًا يُجّر فوق البلاط. تصلبت المرأة.

— هل يخرجون شيئًا؟

— يوّثقون الأشياء وينقلون ما يحتاج إلى فحص.

— سيبقى ذلك المكتب فارغًا.

قالتها بنبرة من يعرف كيف ينفض الغبار عن مكان كل شيء. انتظرت هناء حتى رفعت الكأس إلى فمها، ثم انتقلت إلى التدفئة.

— كيف كانت حرارة المكتبة حين غادرت؟

— عادية. دخلت بمعطفي لأوّدعه، وبقيت أرتديه.

— والمدفأة؟

— كانت قرب الحائط. أما إن كانت تعمل، فلا أستطيع أن أجزم. كان يقول أصلًا إن الدفء يجعله ينعس.

مالت قليلًا نحو الصورة، ثم أشارت إلى أسفلها.

— هذه جديدة.

كان طرف المقبس الأبيض ظاهرًا خلف ساق الطاولة.

— متى رأيتها أول مرة؟

— الثلاثاء. أردت أن أفصل الكهرباء لأمسح المكان، فقال لي أن أتركها. قال إنها لحماية الكتب والساعات من الرطوبة، وإنه يشّغلها بالهاتف.

— هل رأيت من ركّبها؟

— لا. يوم الاثنين لم تكن موجودة. رأيتها يوم الثلاثاء.

سجلت هناء الفرق كما نطقته المرأة. ظهور الشيء يوم الثلاثاء لا يحدد ساعة دخوله البيت، ولا اليد التي حملته. في صورة الجرد كان المقبس قطعة بيضاء بين أشياء أكثر لفتًا للنظر. أضافت أمام رقمه سؤالًا عن الطراز وطريقة التشغيل، وأغلقت الملف قبل أن تتحول الصورة إلى امتحان لذاكرة فاطنة.

تحدثتا عن مفاتيح البيت، وعن الأبواب التي تستعملها، وعن الأشخاص الذين يدخلون دون انتظار طويل عند المدخل. عند اسم رشيد البقالي ارتاحت نبرة المرأة إلى الألفة.

— الأستاذ يزور البيت منذ زمن. آخر مرة رأيته فيها كانت الثلاثاء. جلس مع السي كمال في المكتبة، وصعدت أنا لأغّير أغطية الأسّرة.

— هل حدث خلاف بينهما؟

— سمعت صوتيهما، لكنني لم أميّز الكلام. كان الباب مغلقًا.

وعندما انتهت الأسئلة، وضعت فاطنة الكأس دون أن تشرب أكثر من رشفة.

— هل أستطيع أخذ حذائي من المطبخ؟

نظرت هناء إلى الحذاء الأسود الضيق في قدميها. جاءت المرأة إلى البيت على عجل، وربما كانت تتوقع أن تعمل فيه ككل صباح.

— سأطلب من زميلتي أن ترافقك.

عند الباب التفتت فاطنة.

— قولي لي فقط... هل كان وحده حين مات؟

كان في الملف رجل مجهول اتصل بالنجدة، ومسعفان دخلا المكتبة، وأوقات تحتاج إلى الفحص. أما السؤال الذي سألته المرأة فلم يكن عن عدد الواقفين في الغرفة.

قالت هناء: — هناك من حاول مساعدته.

بقيت فاطنة تنظر إليها، ثم أومأت كأنها قبلت أصغر جواب تستطيع حمله.

وصل يوسف قبل الظهر بعشر دقائق. وقف عند شريط الحجز، وأخرج هاتفه، وأعاده إلى جيبه حين رأى هناء. كانت لحيته مشذبة بعناية، لكن زر قميصه العلوي دخل العروة التي تحته، فمالت الياقة إلى جانب واحد.

قال إن عمه مثل أبيه. قالها مرتين، مرة عند التعارف، ومرة قبل أن تسأله عن آخر لقاء بينهما. لم تكتب هناء الجملة الثانية.

— الخميس، في المساء. جئت أسلم عليه.

— والجمعة؟

— في البيت. بقيت فيه منذ العصر.

— مع من؟

— وحدي. طلبت العشاء وشاهدت شيئًا على التلفاز.

سألته عن المطعم ووقت وصول الطعام. فتح التطبيق ليبحث عن الطلب، وحين ظهرت قائمة الإشعارات غطى الشاشة بكفه، ثم انتقل إلى صفحة أخرى. قرأ الساعة بصوت منخفض. دّونت هناء اسم المطعم أيضا، الطلب يثبت طلبًا، والتسليم قد يثبت أن شخصًا فتح بابًا. أما الساعات التي بينهما فتظل بحاجة إلى أصحابها.

— علمت أن عمك ألغى سفره.

— نعم. قال إن لديه عملًا.

— أي عمل؟

رفع كتفيه.

— كان يقول ذلك عن كل شيء، حتى حين يجلس ليتفّحص ساعاته.

هذه المرة ظهرت ابتسامة صغيرة، واختفت قبل أن تكتمل. أشارت هناء إلى صورة الخزنة المفتوحة.

— نريد معرفة ما ينقص. فاطنة تقول إنك تعرف مجموعته.

سحب الصورة نحوه من حافتها. وقف بصره عند العلبة المخملية، ثم انتقل إلى رزمة النقد، وعاد إلى العلبة.

— ساعة القنصل.

— هذا اسمها؟

— هكذا كان يسميها. ساعة جيب قديمة. ذهب، وفي الغطاء نقش.

— هل تستطيع وصف النقش؟

بدأ بإشارة دائرية في الهواء، ثم طلب ورقة. رسم خطين متقاطعين وتوقف.

— لا بد أن لديكم صورة أفضل من هذا الرسم.

— نبحث عن صور واضحة لها. هل عندك واحدة؟

أدار القلم بين أصابعه.

— أنا لا أصّور ساعات عمي.

— ومن يصورها؟

— ربما يصّورها بنفسه، أو يصّورها خبير. لديه معارف.

دفعت إليه الورقة كي يكمل ما بدأه. نظر إلى الرسم، ووضع القلم فوقه.

— لا أتذّكر النقش جيًدا.

— هل خرجت الساعة من البيت مؤخًرا؟ للصيانة أو التقييم؟

— لا علم لي بذلك.

— وهل توليت أنت نقل شيء من المجموعة إلى تاجر؟

— نعم، لكن منذ مدة طويلة.

طلبت منه أسماء التجار. ذكر اسًما في المدينة القديمة، واسًما آخر قال إن صاحبه أغلق محله. عندما سألته عن رقم الأول، أجاب بأنه يستطيع إيجاده. عاد إلى هاتفه، ولكنه اكتفى هذه المرة بالنظر إلى الشاشة المقفلة.

كان توتره قد ازداد عند الصور، لا عند الحديث عن الليلة السابقة. سجلت هناء ملاحظة عن ترتيب الأسئلة، ولم تكتب تفسيرا. قد يخاف المرء من دين، أو من كذبة صغيرة، أو من أن يخطئ أمام الشرطة

فيبدو كاذًبا. المهنة تعلم المرء رؤية الخوف، ولا تمنحه حق اختيار سببه.

— هل كان عمك يريد بيع الساعة؟

رفع يوسف رأسه بسرعة.

— يبيعها؟ لا. كان يمكن أن يبيع البيت قبل أن يبيعها.

— هل طلب أحد استردادها؟

صمت، وبقيت يده على الهاتف.

— هذه الأشياء القديمة، يظهر دائًما من يقول إنها كانت لجّده.

— سألتك عن هذه الساعة.

— لم يحدثني عن ذلك.

احتفظت هناء بالجملة كما هي. كانت أضيق من النفي الذي أرادت الحصول عليه، وأوسع من جواب يستطيع يوسف أن يتحمل تفاصيله.

حين طلب رؤية المكتبة، أخبرته أن المكان ما زال مغلًقا. أومأ بسرعة أثارت انتباهها أكثر من الطلب. وعند خروجه ترك الرسم على الطاولة؛ دائرة ناقصة وخطان لا يلتقيان في مركزها.

كان رشيد البقالي في الممر، واقًفا إلى جوار عون الشرطة. تبادل مع يوسف عناًقا قصيرا، ووضع يده على كتفه، وقال له أن يتصل به إذا احتاج إلى شيء. انتظر حتى ابتعد الشاب، ثم دخل.

نزع معطفه وطواه فوق ركبتيه. عيناه محمرتان، وخصلة شعر عند صدغه الأيسر بقيت مضغوطة إلى الخلف، كأنه مرر عليها كفه مرات كثيرة.

— أعرف أن لديكم أسئلة. رتبت ما استطعت إحضاره.

أخرج مَلَفا رقيقا. احتوى نسخًا من وثائق قال إنها ستساعد في تحديد صلة كمال بالشركات والأملاك، وأرقام أشخاص قد يعرفون قيمة مقتنياته. لم تلمس هناء الأوراق فورًا.

— لنتحدث أولًا عن آخر مرة رأيته فيها.

— الثلاثاء. جئت في أمر مهني، وبقيت نحو ساعة.

— أي أمر؟

— ترتيبات تخص أملاكه. أستطيع بيان ما يلزم وفق المسطرة. بعض الأوراق تتصل بحقوق أشخاص آخرين.

— سنحدد المطلوب كتابة. هل تحدث عن سفره؟

— قال إنه ألغاه.

— وعن شخص ينتظره مساء الجمعة؟

هز رشيد رأسه، ثم أضاف:

— كان يحتفظ ببعض أموره لنفسه. معرفتي به طويلة، لكنها لا تشمل كل ساعة من يومه.

سألته عن الوصية. عدّل وضع الملف فوق ركبتيه، وشرح أن وجود ترتيبات ووثائق لا يجيز اختصار التركة في عبارة «كل شيء لفلان»، وأن الورثة والالتزامات والوصية أمور تُفحص في موضعها. ذكر يوسف بصفته قريبا يساعد عمه أحيانا، من غير أن يمنحه حقا لا يستطيع إثباته في تلك الغرفة.

— وهل كان بينهما خلاف مالي؟

— رأيتهما يختلفان. يوسف يستعجل، وكمال يحب أن يبقى القرار عنده.

— ماذا تقصد بيستعجل؟

— مشاريع. مبالغ يطلبها. أحيانًا يوافق عمه، وأحيانًا يغضب منه. هذا ما شاهدته.

كان حريصًا على نهاية كل جواب. «ما شاهدته»، «ما أعرفه»، «في حدود ما أذكر». لغة يفهم صاحبها الفرق بين المعلومة والمسؤولية عنها. لم تعتبر هناء ذلك خداعًا؛ كانت تفضّلها على يقين فاطنة الذي تضطر إلى تفكيكه برفق. لكنها سجلت الأسماء والمناسبات كي لا تبقى العبارات حدودًا مريحة حول فراغ.

وعندما وصل السؤال إلى مساء الجمعة، وضع رشيد هاتفه على الطاولة.

— عشاء مع زملاء. من الثامنة تقريبًا إلى ما قبل منتصف الليل. المطعم المطل على البحر. هذه الصور في مجموعتنا.

مرر الصور ببطء. طاولة طويلة، رجال وامرأتان، طبق سمك كبير، نافذة سوداء تعكس الوجوه. في الصورة الأولى كان رشيد بين الجالسين، وبعض المقاعد ما زالت خالية، وفي التالية وقف رشيد عند طرف الطاولة ومعطفه على ذراعه، ثم ظهر جالسًا يرفع كأس ماء، وأخيرًا مع الآخرين في صورة جماعية. قرأت هناء الأوقات التي يعرضها التطبيق تحت الصور بالترتيب: الثامنة وسبع دقائق، والتاسعة واثنتا عشرة، والعاشرة وست وعشرون، والحادية عشرة وأربعون. ودّونت أسماء الحاضرين.

— هل بقيت في القاعة طوال الوقت؟

— خرجت للهاتف، ودخلت المرحاض. عشاء طويل، كما ترين.

— متى خرجت للهاتف؟

حك بظفره جانب إصبعه الوسطى، حيث بقي أثر حبر قديم، مفكرًا.

– أستطيع الرجوع إلى السجل. أفضل أن أعطيك الوقت الصحيح.

– افعل. وسنطلب الصور الأصلية ممن التقطها.

– طبعًا.

دّون الأسماء على ورقة منفصلة. أخرج قلمًا من جيب سترته، واختبره بنقطة قرب الحاشية، ثم كتب. كان الحبر أخضر داكنًا، يفتح لونه قليلًا حيث خف ضغط اليد. أضاف رقم المطعم، ووقع أسفل البيانات التي قدمها.

– إذا احتجتم إلى المكتب، اتصلوا في أي وقت.

عند الباب توقف وسأل عن دفن كمال. أعطته هناء الجواب الذي تملكه: هناك فحوص وإجراءات، وستُبلّغ الأسرة عند السماح بذلك. انخفضت كتفاه مقدارًا صغيرًا قبل أن يرتدي المعطف.

بعد خروجه، طلبت إرسال استفسار إلى المطعم لحفظ تسجيلاته إن كانت موجودة، والتحقق من أوقات الحضور والمغادرة، والاتصال بأصحاب الصور مباشرة. صور العشاء تثبت لحظات من العشاء. يصلح ذلك لبداية، ولا يصلح لسد ما بينها.

في الثانية والربع كانت قد أكلت نصف قطعة خبز باردة حين اتصل الطبيب ياسين العمراني. فتحت دفترها بيد، وأبعدت الكيس الورقي بالأخرى.

سألته عن عبارة المسعف بشأن الفك.

– أثبتنا ما عايناه نحن أيضا. لكن أحتاج إلى جمعه مع بقية الفحص. وضع الجسم وما جرى أثناء الإنعاش يدخلان في القراءة.

– أيمكن أن يكون مات قبل وصول المتصل بمدة أطول مما يوحي الدفء؟

— يمكن. الدفء الذي شعر به عبر قفاز ليس قياًسا. وحتى القياس يحتاج إلى ظروف نفهمها. اكتبي أن توقيت الوفاة قيد التقدير. لا تعطي أحًدا ساعة على لساني.

كتبت العبارة، وأعادت قراءتها عليه.

كان العميد الحسين قاسمي ينتظرها في المكتب المؤقت عند عودتها. أمامه صورة من كاميرا قريبة من الحي، ولوحة سيارة واضحة في أسفلها.

— إدريس السراج. الاسم الذي جاء في البلاغ.

قرأت هناء بيانات المالك. مستشار في تقييم المخاطر، وعنوان في المدينة القديمة. لا شيء في الورقة يفسر كيف يعرف صاحب البلاغ مكانه، أو لماذا أحجم عن إعطاء اسمه.

— في الثالثة والعشرين وخمس دقائق، قال العميد.

دققت في الصورة. السيارة بمحاذاة الرصيف، وعجلة أمامية قريبة من الحافة.

— واقفة. هذه ليست ساعة وصوله.

— نطلب ما قبلها وما بعدها. لكنه كان هناك.

— سيارته كانت هناك.

نظر إليها، ثم دفع صورة أخرى: المتسلق عند السور، رأس غامق فوق كتفين، ورجل ترتفع بحثا عن موطئ.

— والمعطف والطول؟

— يستحق أن نسأله. لا يستحق أن نسمي الصورة وجًها.

أعاد قاسمي الورقتين إلى الملف، وقال إنه سيعرض المستجدات على النيابة لاتخاذ الإجراء اللازم. سألها عما خرجت به من الشهود.

وضعت أمامه ورقة الفنجانين، وموعد إلغاء السفر، وأسماء من سُيراجع كلامهم. وعندما بلغت مكالمة النجدة، قال:

– القاتل يستطيع أن يندم.

– ويستطيع شخص آخر أن يجد الجثة.

– لهذا نحتاج صاحب السيارة.

وافقت. كانت تريد أن تسمعه قبل أن تتكون في رأسها نبرة جاهزة لصوته.

في الخارج بدأ المطر من جديد. اتصل زميل من الفريق الذي توجه إلى العنوان، وأكد وجود الاسم على صندوق البريد. أخذت هناء معطفها، وأغلقت الملف على الصورتين.

وراءها بقي كأسا الشاي على طاولة غرفة الطعام: كأس فاطنة شبه ممتلئ، وكأسها هي بارِدا لم تمسه. نظرت إليهما وهي تمر، ثم خرجت.

الفصل السادس

واحد في الألف

من 17 إلى 19 يناير

كان المعطف على ظهر الكرسي حين طرقوا الباب.

رآه إدريس قبل أن يرفع رأسه إلى الصوت. تدّلى كّماه، وظهرت البطانة عند الياقة، وفي أسفل الظهر بقعة خّلفها المطر.

عند الفجر، قبل أن يفحص المعطف، صعد إلى السطح كعادته بعد كل عملية. نقل الصور إلى بطاقة الذاكرة في العلبة المعدنية تحت البلاطة المخلخلة، وأعادها إلى مكانها. لم يمسح شيًئا من الهاتف.

بعد نزوله فحص المعطف تحت مصباح المطبخ، يقلب القماش بين أصابعه، ويقرب الكمين من الضوء. وجد غبارًا وخيطا عالًقا وخدًشا صغيرا عند الزر. أما اللون الذي كان يخشاه، فلم يره.

فتح باب الغسالة في تلك الساعة، وبقي ممسًكا به لحظة. كان يستطيع أن يسمي الأمر غسيلا؛ لديه قميص متسخ فعلا، ومنشفة تستحق التبديل. أغلق الباب، ووضع المعطف على الكرسي.

الآن سمع طرًقا ثانيا، أكثر تباعًدا من الأول.

— السيد إدريس السراج؟ الشرطة.

ترك كوب الماء على الطاولة. آلمه معصماه حين نهض، ألًما عميًقا تحت الجلد، أعاد إليه الأرض الصلبة وصوت الرجل الخارج من مكبر الهاتف. سار إلى الباب وفتح.

كانت المرأة في المقدمة. عّرفت بنفسها، وأرته بطاقتها. هناء المريني. قرأ الاسم مرة واحدة، لكنه سيستعيد شكل الحروف بعد ذلك كلما حاول النوم.

— نحتاج أن ترافقنا بخصوص وفاة كمال الطاهري.

توقف بصره عندها قدًرا أطول مما ينبغي. قالت «وفاة»، وقد جاء ثلاثة أشخاص إلى بابه.

— هل أستطيع الاتصال بمحامٍ؟

— سنبلغك بحقوقك والإجراءات. هاتفك معك؟

كان على الطاولة إلى جوار الكوب. نظر إليه، فتبعت نظرته. أشار بيده المفتوحة إلى موضعه، وانتظر قبل أن يتحرك. آخر رسالة ظلت على الشاشة حين أطفأها صباًحا: «شكًرا على حضورك في الموعد».

لم يحذفها. ظل طوال الليل يتنقل بينها وبين الصورتين، يبحث في بضعة أسطر وبكسلات عن شيء يستطيع الوثوق به. في الصورة الثانية كانت ذراع المسعف تعبر طرف الإطار. تثبت أن رجلا آخر دخل الغرفة قبل التقاطها، ولا تقول ماذا فعل إدريس قبل ذلك.

طلب منه أحد الرجلين الابتعاد عن الطاولة. فعل. وفي أثناء الإجراءات، لاحظ أن هناء تنظر إلى الكرسي.

— هذا معطفك؟

— نعم.

ثبتت الجواب، وطلبت إبقاءه في مكانه حتى ُيوّثق. أحس بالبرد قبل أن يغادر البيت.

في السيارة جلس خلف السائق، وترك يديه على فخذيه. كانت المدينة تؤدي نهارها: رجل يجذب عربة خضر فوق حفرة، صبي

يركض بكيس خبز تحت سترته، امرأة تساوم سائق أجرة في المطر. أراد أن تبطئ السيارة عند كل واحد منهم. دقائقهم خالية من الغرفة التي ينتظرونه فيها، وكان يحتاج إلى استعارة واحدة.

في المقر قرأ حقوقه، وسمعها بصوت رجل ينطق بوضوح، كأنه يصر على ألا يضيع شيء بين الضجيج والتعب. سأل عن وقت بداية الحراسة النظرية، فقيل له وأُثبت أمامه. طلب الاتصال بمحامٍ. الاسم الذي استطاع استحضاره كان لمحامٍ سبق أن راجع له عقد استشارة، لا لرجل اعتاد أن يخرجه من غرف التحقيق.

انتظر حتى تم الاتصال. بدت له هذه المسافة، بين طلب مساعدة شخص وبين وصوله، أطول من الطريق كله.

بدأت هناء بالهوية والعمل والعنوان. أجاب. كان في الغرفة كاتب يثبت ما يقال، وملف رمادي، وكأس ماء مغلق بقارورة صغيرة. لم تضع أمامه صورة الجثة.

— هل تعرف كمال الطاهري؟

فكر في إجابات كثيرة. يعرف اسمه، وبيته، وموعد سفره الكاذب، وموضع يديه حين حاول أن يعيد إليه الحياة. يستطيع أن يقول إنه لا يعرفه معرفة شخصية، وأن يجعل العبارة صحيحة إلى حد تعجز معه عن حمل ما ينقصها.

قال: — أفّضل انتظار مشورتي القانونية قبل الإجابة عن الوقائع.

طلبت إثبات ذلك، وانتقلت إلى السؤال التالي.

— أين كنت مساء الجمعة؟

أعاد طلبه. انزلق القلم فوق الورق. لا غضب، ولا تهديد، ولا صوت مرتفع يريحه بتحويل الجالسين أمامه إلى خصوم سهلين. كان الصمت

هنا عملًا يقوم به، سؤالًا بعد سؤال.

جاء المحامي بعد وقت فقد إدريس القدرة على تقديره من حركة الباب. اسمه مروان العلوي. تذكره بقميص أزرق في مقهى مضاء؛ أما الآن فكان يرتدي ربطة عنق غامقة، ويحمل حقيبة انتفخ أحد جانبيها بملفات.

في اللقاء المنفرد سأله عما حدث، فتحدث إدريس عن اتصاله بالنجدة ومحاولته الإنعاش، وعن دخوله البيت دون إذن. وعندما وصل إلى سبب الدخول، توقف عند عبارة «استرداد شيء».

قال مروان: — أحتاج إلى الوقائع، حتى التي لا تعجبك صياغتها.

ذكر الساعة والمرأة التي طلبتها. سمع لأول مرة الحكاية بصوت متصل: وثائق مصّورة، رجل قال إن صاحب البيت مسافر، موعد قبل منتصف الليل، خزنة مفتوحة، جثة دافئة. كل جزء احتمل منفردًا تفسيرًا معقولًا. متجاورة، بدت الأجزاء كأن أحدًا رتب لها الطريق نفسه.

— هل أخذت الساعة؟

— لا. العلبة كانت فارغة حين نظرت إليها.

— هل تعرف أنها كانت فارغة عندما دخلت؟

رفع إدريس عينيه.

— لا.

دّون مروان شيئًا، ثم أغلق دفتره.

— لن أصنع لك رواية أنظف. الدخول نفسه له تبعات، ولو صدق كل ما تقوله عن النجدة. والصور التي وصفتها قد تساعد في جانب وتثبت عليك جانبًا آخر.

– أريد أن أعرف ما عندهم قبل أن أتكلم.

– لن يعرضوا عليك الملف كاملًا. الصمت حقك، ويمكن أن تراجع قرارك. لكنه لا يوقف البحث، ولا يعيد الهاتف إلى جيبك.

بقيت العبارة معه بعدما انتهى اللقاء. كان قد اعتاد أن يعامل المعلومة كشيء يملكه ما دام يحتفظ به. الآن كانت رسائله وصوره في جهاز خارج الغرفة، وملابسه في طريقها إلى أكياس تحمل أرقامًا، وما يعرفه الآخرون عنه يتسع وهو جالس.

في المساء وضعت هناء صورة السيارة أمامه.

– الثالثة والعشرون وخمس دقائق. سيارتك قريبة من الحي.

قرأ الأرقام. كان قد تركها هناك قبل ذلك بربع ساعة تقريبًا. الكاميرا التي التقطتها لم تكن في مجال نظره حين اختار المكان.

– هل ينازع أحد في ملكيتها؟ سألت.

– هي سيارتي.

– ومن كان يستعملها؟

– لن أجيب عن هذا السؤال الآن.

سجل الكاتب الجواب. أخرجت هناء صورة المتسلق ووضعتها بمحاذاة الأولى. لم يحتج إلى رؤية وجهه كي يتعرف إلى نفسه؛ وضع القدم الذي أحس عنده بوخزة في الحذاء عاد إليه كاملًا.

قالت: – هذا في الثالثة والعشرين واثنتين وعشرين دقيقة.

في رأسه تحركت عقارب ليلة أمس إلى الخلف. لم يعد فوق سور؛ صار بقعة يستطيع كل من يفتح الملف أن يضع إصبعه عليها.

– هل تعرف هذا الشخص؟

احتاج هذه المرة إلى جرعة ماء قبل أن يكرر اختياره.

نظرت هناء إلى معصميه. كان يبدل موضع يديه كل بضع دقائق.

— هل تحتاج إلى طبيب؟

— عندي ألم في الذراعين.

— سنثبت طلب الفحص إذا رغبت.

وافق. سألته عن مصدر الألم، فعاد الصمت إلى موضعه. بدا المشهد من خارجه سخيفًا: يقبل المساعدة، ويحجب السبب الذي قد يفسر حاجته إليها. لكن السبب نفسه يقوده إلى المكتبة.

قرب نهاية الجلسة دخل العميد. وقف خلف الكرسي المقابل، وتصفح ورقتين، ثم طلب تشغيل المكالمة.

سمع إدريس النبرة التي اختارها عند البداية. أخفض من صوته، ومسطحة أكثر مما تذكر. عنوان، اسم زقاق صححه، سؤال عن التنفس. بعد قليل صار تنفسه هو مسموعًا، متقطعًا وقريبًا من السماعة. جاء صوت المرسل واضحًا في الغرفة، فأحس للحظة أنه مطالب بالركوع على الأرض مرة أخرى.

«السي كمال، المساعدة في الطريق».

قالها الرجل في التسجيل بصوت إدريس، دون العناية التي بدأ بها المكالمة. ضغط بأصابعه على حافة المقعد، وانتبه إلى الحركة حين هدأت هناء الصوت قليلًا.

سأل العميد: — تعرفه؟

— سألتزم الصمت بشأن الوقائع.

— تسمع ما نسمع.

نظر إدريس إلى الجهاز. خلف صوت المرسل كان هناك احتكاك، ثم سعال خفيف من شدة الجهد. أراد أن يسمع ما بعده، مع أنه

يعرف النهاية.

قال العميد: — السيارة، والرجل فوق السور، وهذا الصوت. صدفة وراء صدفة. كم يبقى؟ واحد في الألف؟

خرج الجواب من إدريس قبل أن يزن فائدته: — الألف جاءت من أين؟

توقف القلم.

— أنت صاحب الحسابات. احسبها.

عاد إلى صمته لحظة. كان يستطيع أن يبقى فيه. لكن الرقم العابر أغضبه أكثر مما ينبغي؛ قاله الرجل كما يضع وزنًا على كفة ميزان، من غير أن يسأل أحد عما يزنه.

— لا أستطيع حسابها من هذه الأوراق. ولا أنتم.

سحب العميد الكرسي وجلس.

— وّضح.

— تشابه صوتين يحتاج إلى فحص. وإذا قال الفحص إن تشابًها كهذا نادر بين شخصين مختلفين، فذلك لا يعطي وحده احتمال أن يكون شخص بعينه بريئًا. أنتم تغّيرون السؤال في وسط الجملة.

— لم يصلنا فحص بعد، قالت هناء.

— أعرف.

— إذن الرقم ليس نتيجة عندنا.

أومأ. أدرك أنه وجد أخيًرا مسألة يستطيع أن يصيب فيها، فاندفع إليها تاركًا المسألة التي يخافها. صحة اعتراضه لا تمحو صورة السيارة. ولا تمنع أن يكون الصوت صوته فعلًا.

قال العميد: — لو أثبت الفحص أنك المتصل؟

نظر إدريس إلى الملف.

— يثبت هوية المتصل.

— والرجل الذي قتله ثم اتصل؟

— هذا سؤال آخر.

بقي العميد ساكتًا قليلًا، ثم طلب تثبيت كلامه كما قيل. شعر إدريس بوجنتيه تسخنان. دخل في النقاش مختارًا، ولن يملك أن يسترد عباراته لمجرد أنه تذكر الصمت متأخرًا.

قالت هناء، بعدما خرج العميد: — المتصل بذل جهدًا لإنقاذه. نسمع ذلك.

رفع رأسه.

— لكنه ليس شهادة براءة، تابعت. وقد تكون هناك وقائع لا نعرفها بعد.

تمنى لو قالت الجملة الأولى وحدها. وكان احترامه لها، في تلك اللحظة، أشد إزعاجًا من شكها.

في الليل نام على جانبه، واستيقظ حين اصطدم معصمه بالحائط. سمع رجلًا يسأل عن دوائه، وآخر يكرر رقم هاتف بصوت خافت كأنه يخشى أن ينساه. حاول عدّ مرات انغلاق الباب، ثم توقف. الأصوات لا تأتي بفواصل منتظمة، والعد بلا سؤال مجرد طريقة أخرى لإطالة الوقت.

تذكر الحارس.

«أنت تمضي، وأنا أبقى».

كان قد خرج يومها بورقة كتبها لحماية رجل، معتقدًا أنه أدى ما يستطيعه. في هذه الغرفة فهم مقدار ما تتركه عبارة «ما أستطيع»

خارجها. حتى الماء جاءه حين استطاع شخص آخر أن يحضره.

في الصباح عُرض عليه محضر حجز الأشياء، وراجع ما سُمح له بمراجعته. المعطف، ملابس أخرى، الهاتف، وأشياء ستُفحص. سأل عن جواز السفر. قيل له إن أمره سيُحدد ضمن الإجراءات. وقع حيث أقر بما يخصه، وطلب تصحيح وصف قطعة قبل التوقيع. لم يجعل التدقيق بطولة؛ كان يريد فقط ألا يضيف الورق إلى خوفه خطأ يمكن تجنبه.

عندما عادت هناء، كان معها وصف الهاتف ورقم ختمه.

— سُيفحص بإجراءاته. إذا وجدت فيه صورًا للبيت، فسيبقى علينا أن نعرف متى التقطت، وماذا تثبت.

سألته إن كان سيعطي رمز الفتح. قال إنه سيقرر ذلك مع محاميه.

— هل تريد أن تقول شيئًا الآن؟

فكر في الرسالة. لو قرأتها، فسترى أن امرأة كانت تعرف الموعد. وقد تبدأ البحث عنها قبله، أو تصل إلى رقم لا يجيب، أو تقرأ فيه تعاونًا بين شخصين. الصور لا تعرض وجه ليلى، والرسائل لا تحمل وعدًا صريحًا بجريمة قتل. كل ذلك صحيح، وكل ذلك قابل لأن يصبح قصة لا يملك نهايتها.

— ليس الآن.

— سُيثبت جوابك.

أخرجت صورة الفنجانين.

— هل رأيت هذين؟

كانا أوضح مما احتفظت به ذاكرته. تذكر حافة الصحن، ثم الفراغ المخملي داخل الخزنة، وشعر بالخجل القديم نفسه. أثناء موت رجل،

وجد في رأسه متسعًا لشيء جاء يأخذه.

— لن أجيب.

هذه المرة طال نظرها إليه، لكنه وجد في وجهها تعبًا أكثر من الغضب. وضعت الصورة في الملف.

سألته بعد ذلك عن عمله السابق. أجاب عن اسم الشركة وسنوات خدمته. وحين سألته لماذا تركها، قال إن بينه وبين الإدارة خلافًا على تقارير. بدا الجواب مهنيًا ومهذبًا إلى حد آلمه. هناك أشخاص دخلوا السجن في حكاية يستطيع اختصارها الآن في «خلاف».

— هل تتولى التحقيق في ملكية أشياء لحساب أشخاص؟

عاد إلى الامتناع. كانت تقترب من باب لم يعرف هل فتحته معلومات لديها، أم أن طبيعة عمله أوصلتها إليه. أراد أن يسألها من ذكر اسمه، ومن يعرفه بهذه الدقة. احتفظ بالسؤال؛ كان يخشى أن يحمل الجواب صوتا يعرفه.

امتد الأحد عبر وجبات بلا شهية، وفحص طبي، وانتظار. قال الطبيب إن الألم يحتاج إلى راحة ومتابعة إن استمر، وسجل ما عاينه. حين سئل إدريس عن سببه، اكتفى بذكر جهد شديد. حتى جسده صار شاهدا يجيب بأقل مما يعرف.

صباح الاثنين جاءه مروان مرة أخرى. جلس مستقيمًا، وبدأ بالنتيجة التي استطاع معرفتها.

— البحث مستمر. هناك فحوص لم تكتمل، والنيابة تقيّم الموجود الآن.

— والمعطف؟

— ما بلغني عن الفحص الأولي لا يثبت وجود دم في العينات التي فُحصت. هذا أضيق من أن نقول إن المعطف خالٍ من كل أثر.

أغمض إدريس عينيه لحظة. رأى باب الغسالة المفتوح عند الفجر، وشعر بارتياح قصير لأنه أغلقه؛ لم يكن يعلم إن كان الارتياح أخلاقيًا أم حسابيًا، فتركه بلا اسم.

قال مروان: — لا تعتبر أي قرار بالخروج نهاية. حضورك المحتمل، والدخول، وسبب الاتصال، كلها مسائل قائمة. وقد تغير النتائج الآتية وضعك.

— أعرف.

— أريد أن تكون هذه المرة تعرف فعلًا.

قبل نهاية المدة المقررة أُبلغ بأنه سيغادر، مع استمرار البحث. احتاج إلى سماع العبارة ثانية كي يصدق أنها تخصه. تلا عليه الموظف القرار المتعلق بسحب جواز سفره وإغلاق الحدود في وجهه مدة شهر، بإذن الوكيل العام للملك، وأوضح له ما يلزمه من حضور عند
الاستدعاء. راجع مروان الوثيقة، وسأل عن التاريخ، وطلب النسخة التي تُسلّم لموكله.

كانت الحروف مرتبة، والتواريخ واضحة. خارج هذه الأسطر يبقى البحر حيث كان، والطائرات تقلع كعادتها. ومع ذلك صار للمدينة باب لا يستطيع عبوره.

أعادوا إليه ما تقرر إرجاعه من متعلقاته. بقي الهاتف للفحص، وبقي المعطف ضمن المحجوزات. أعاره المحامي سترة احتياطية يحتفظ بها في سيارته؛ اتسعت عند كتفيه، وانتهى كمها قبل الرسغ بقليل.
ارتداها، وأحس أنه يبدو كرجل خرج مسرعا من بيت شخص آخر.

كانت هناء في الممر. لم تقف في طريقه، فوقف هو.

قالت: — أعرف أنك كنت في الداخل.

ظل ينظر إليها. في عبارتها يقين شخصي؛ أما الملف، فقد بقي مفتوحا خلف باب المكتب.

— سأعرف لماذا دخلت، أضافت.

كاد يقول إنه خرج دون أن يأخذ شيئًا. كانت جملة صحيحة، سهلة، ومغرية. لكنها تفتح سؤال الخزنة والساعة، وتدفعه إلى إعطاء جواب واحد حيث تحتاج الحقيقة إلى سلسلة كاملة. نظر إلى يديه، ثم رفعهما عن جيبي السترة.

— عندما أتكلم، أريد أن يكون الكلام كاملًا.

— اجعله صحيحا أولًا.

خرج مع مروان إلى الشارع. كانت السماء قد انفتحت فوق شريط ضيق من الضوء، وبقيت الأرصفة مبتلة. شرح له المحامي كيف يتصل به من هاتف آخر، وأعاد تذكيره بالاستدعاءات. سمع إدريس الكلام، وحفظ الرقم مكتوبا على بطاقة.

عند الرصيف الآخر توقفت سيارة، وبقي محركها يعمل. نظر إليها مرة واحدة، ثم إلى السائق الذي لا يعرفه. قد تكون تنتظر أحدا، وقد تكون تنتظره. لأول مرة منذ سنوات، لم يحاول ترجيح الاحتمالين.

أراد أن يعود إلى البيت، إلى الكرسي الذي خلا من المعطف، وإلى دفتره. كل ما وضعه في الخانات قبل الجمعة قاده إلى بيت يفترض أنه فارغ. الآن عليه أن يعيد قراءة الخانات واحدة واحدة، وأن يكتب إلى جوار كل معلومة اسم من أعطاها له.

كان أول اسم خطر له هو الاسم الذي اعتاد أن يبدأ منه دون سؤال.

بنعيسى.

الفصل السابع

مكالمة التاسعة

الاثنين، 19 يناير

وصل التقرير بعد خروج إدريس بسبع وعشرين دقيقة.

كانت هناء تعيد قلمها إلى الحقيبة. على هاتفها رسالة من ابنها: «السابعة؟». كتبت «نعم»، وأرسلتها قبل أن تأخذ الظرف من زميلها. منذ الجمعة تؤجل عودته من بيت أبيه، وهذه المرة كانت قد اختارت الموعد بنفسها.

جلست، وأبقت الحقيبة مفتوحة عند قدمها.

في الصفحة الأولى اسم كمال الطاهري، ووصف إصابة الرأس: نزف داخل القحف مرتبط برّض شديد، وإصابة يمكن أن تتفق مع جسم صلب ذي حافة. أما مسند الكتب فبقي ينتظر نتائج فحصه. قلبت الصفحة، فوجدت الفترة بين العاشرة والحادية عشرة والنصف مساء الجمعة، بوصفها تقديرًا أوّليا مرجّحا، يعقبه تحفظ بشأن ظروف المكان وحدود تضييق زمن الوفاة.

وضعت صورة المتسلق بجوار التقرير. دخوله في الثالثة والعشرين واثنتين وعشرين يترك ثماني دقائق داخل الفترة المذكورة. كان من السهل أن تنشغل بما يمكن أن يقع في تلك الدقائق، وأن تنسى السؤال عن الساعتين السابقتين لها.

اتصلت بياسين العمراني.

— هل يسمح لي هذا التقدير باستبعاد شخص غادر قبل العاشرة؟

– لا. لا نملك تاريخ حرارة الغرفة خلال المساء. هذه الفترة قائمة على المعطيات المتاحة وافتراضات تحتاج إلى مراجعة؛ ليست حدّين ثابتين.

– وتصلب الفك؟

– يدخل مع بقية العلامات. لا يعطينا وحده ساعة. أرسليٍ أي معلومة جديدة عن ظروف المكان أو آخر مرة ثبت فيها أنه كان حيا.

عند فقرة كسور الأضلاع سألت إن كان يستطيع فصل أثر محاولة المتصل عن أثر إنعاش المسعفين. أجاب بالنفي؛ مواضع الكسور تتفق مع الضغط على الصدر، لكنها لا تسّمي اليد التي أحدثتها. احتفظت بسؤال آخر لنفسها. كانت تريد من الفحص أن يدعم اقتناعها بأن المتصل حاول الإنقاذ بصدق، وهو أمر لا يستطيع الطبيب قراءته في العظام.

اتفقا على إلحاق توضيحه بالتقرير. حملته إلى قاسمي، فقرأه حتى نهاية التحفظ، ثم دفع إليها قائمة الاتصالات.

– استكملي هؤلاء اليوم. وما وصل من المعطف؟

– لا دم مثبت في العينات التي شملها الفحص الأولي. البقية جارية، وخبرة الصوت واستخراج الهاتف لم يصلا.

أومأ، وأعاد عينيه إلى صورة السيارة. كانت عليها ساعة الثالثة والعشرين وخمس دقائق.

– نعرف أنه كان قريًبا، قالت. لا نعرف من هذه الصورة متى وصل.

– أعرف الفرق، هناء. وأحتاج إلى شيء يملأه.

أخذت القائمة. في الممر فتحت رسالة ابنها مرة أخرى. تحت جوابها ظهرت صورة الكتاب الذي اتفقا أن يقرأ لها منه. تركت الهاتف في يدها حتى بلغت مكتبها.

على مكتبها وضعت سجل الاتصالات بمحاذاة خط المساء الذي رسمته. اتصال من مكتب، وآخر من يوسف، ورقم تعرفت إليه فاطنة في استماع سابق. عند الثامنة وتسع وخمسين دقيقة ورد اتصال إلى هاتف كمال المحمول، بلا اتصال مجاب مسجل. حملت بيانات الاشتراك اسم امرأة: سلمى الإدريسي.

عادت إلى بيان الرقم، وطابقت أرقامه بالسجل قبل أن تتصل. أجابتها امرأة من مكان ترتفع فيه أصوات محركات. وحين عّرفت هناء بنفسها، انخفض الصوت إلى همسة:

— أعرف لماذا تتصلين.

— بشأن كمال الطاهري؟

— رأيت الخبر.

ّاتفقتا على الحضور ذلك العصر، بعد أن تخبر سلمى مسؤولة عملها.

وصلت سلمى بعد ساعة تقريًبا. شابة في أواخر العشرينات، بمعطف كحلي قصير وحقيبة تُغلق بسّحاب معدني. أمسكت بطاقة هويتها بإصبعين، وحين أعادتها هناء، وضعتها في الجيب الداخلي مباشرة. بقي الهاتف في يدها.

— هل أخبرك أحد من الأسرة؟ سألت هناء.

— عن موته؟ لا. على هاتفي، صباح السبت.

أشارت إلى الشاشة كأن الخبر ما زال مفتوًحا فيها. عرضت عليها هناء الماء، فرفضت، ثم طلبته بعد أن جلست. أخذت رشفة واحدة

وأبقت الكأس قريًبا منها.

— نراجع من تواصلوا معه الجمعة. حدثيني عن اتصالك.

— كنت عند بيته. انتظرته ولم يفتح.

تركت هناء قلمها لحظة فوق الورقة. كان الرقم قد تحول إلى شخص وقف أمام البوابة.

— من البداية.

قالت سلمى إن كمال طلب لقاءها، وإنهما اتفقا على التاسعة مساء الجمعة. وصلت قبل الموعد بقليل، وضغطت الجرس. انتظرت، وضغطته مرة ثانية. كانت تعرف البيت من الخارج، لكنها وقفت في البداية أقرب إلى الرصيف، مترددة في الاقتراب من العدسة الصغيرة عند المدخل.

— ثم اتصلت به؟

— نعم. حسبت أن الجرس لا يعمل.

— هل سمعت رنيًنا داخل البيت؟

— سمعت الرنين في هاتفي. من الداخل لم أسمع شيًئا.

أبقت هناء الجواب كما قيل. طلبت منها وصف ما تراه من موضع وقوفها. بوابة مغلقة، وأرض مبتلة، وضوء في عمق البيت؛ لا تستطيع أن تحدد أي غرفة. سألتها عن شخص خرج، أو سيارة تحركت، أو كلام سمعته. هزت رأسها عند الأسئلة الثلاثة.

— كانت هناك أصوات من الشارع. أما البيت فكان ساكًنا.

— إلى متى بقيِت؟

قالت سلمى إنها نظرت إلى الهاتف حين قررت المغادرة؛ كانت التاسعة وسبع دقائق. عرضت سجل مكالماتها باختيارها، فظهر الاتصال

عند الثامنة وتسع وخمسين، كما في البيانات التي أمام هناء. أما وقت المغادرة، فبقي مما تذكره المرأة. دونته هناء على هذا الأساس.

— هل حاوِلت مرة أخرى؟

— الجرس، نعم. الهاتف لا.

— لماذا؟

نظرت سلمى إلى كأس الماء. كانت تمسكه من أعلاه دون أن ترفعه.

— لأنني حسبت أنه غّير رأيه.

— في لقائك؟

— في الكلام الذي قاله لي.

انتظرت هناء. من المكتب المجاور جاء صوت طابعة تسحب ورقة، ثم ثانية. رفعت سلمى الكأس وشربت، ومسحت قطرة عن حافته بإبهامها.

— قال إنه يريد إصلاح أمر قديم.

— أي أمر؟

— يخصني.

سألتها هناء عن طبيعة علاقتها بكمال، وعن آخر مرة التقيا فيها. أجابت بأقل مما يسمح به السؤال، لكن الإجابات احتوت تواريخ وأماكن تصلح للمراجعة. عرفته من عمل سابق، ومر وقت طويل على آخر حديث جدي بينهما، قبل أن يعود إلى الاتصال بها. وحين سألتها عن موعد الاتفاق على الجمعة، ذكرت الثلاثاء.

الثلاثاء. كتبت اليوم، ووضعت تحته نقطة.

— قال لك ما الذي سيصلحه؟

— قال إن لديه أوراقًا، وإن الكلام في الهاتف لا يكفي.

— هل كان هناك مال؟

التفتت سلمى إليها بسرعة.

— لماذا المال؟

— أسألك عما وعدك به. مال، وثائق، تسوية خلاف.

— أوراق. هذا ما قاله.

كانت الكلمات دقيقة، وأصبحت اليد التي فوق الكأس ثابتة أكثر مما كانت في بداية اللقاء. وضعت هناء القلم جانبًا، وأخبرتها أن طبيعة الموعد قد تساعدهم في معرفة من كان يتردد على كمال، وأن رغبتها في الاحتفاظ ببعض التفاصيل قد تعني الحاجة إلى استماع آخر. أجابت سلمى بأنها تفهم.

أخرجت هناء صورة الورقة ذات السطر الواحد، ووضعتها أمامها دون تعليق.

قرأت سلمى العبارة. مرت بعينيها على أعلى الصورة، عند الحافة المقطوعة، ثم أعادتها إلى الكلمات. استغرق ذلك ثانية أو اثنتين؛ وقت يكفي لأن تراه هناء، ولا يكفي لأن تعرف معناه.

— هل تعرفين هذه الورقة؟

— أين وجدتموها؟

— ضمن الأوراق التي نفحصها. سألتك إن كنت تعرفينها.

دفعت سلمى الكأس قليلًا حتى ابتعد عن الصورة.

— أحتاج إلى الكلام مع محامٍ قبل أن أجيب عن هذا.

بقيت هناء ساكنة. سحبت الصورة من جوار الكأس، وانتظرت حتى رفعت سلمى عينيها إليها.

– سنثبت طلبك، قالت. هل تريدين أن يتوقف الحديث هنا؟

أومأت سلمى. راجعت ما دُوّن، وتوقفت عند وصف الاتصال لتتأكد من أن الرنين الذي سمعته كان في هاتفها. حين انتهت، أعادت المحضر إلى هناء وجمعت أغراضها.

عند الباب، التفتت.

– هل كان ميًّتا وأنا أنتظر؟

كان التقرير داخل الملف، قريًبا من يد هناء. استطاعت أن تسمع الجواب السهل قبل أن تقوله: على الأرجح لا، كانت الوفاة لاحقًا. لكنها تذكرت السؤال الذي بدأت به مكالمة الطبيب.

– لا أستطيع أن أجزم الآن.

ظل وجه سلمى مرفوًعا إليها، منتظًرا زيادة.

– إذا تذكرِت شيًئا آخر عن تلك الدقائق، اتصلي بهذا الرقم.

أخذت البطاقة التي أعطتها لها، ونظرت إلى الاسم، ثم وضعتها بجوار بطاقة هويتها.

بعد خروج سلمى، بقي كأس الماء قرب الصورة. نقلته هناء إلى طرف المكتب وراجعت ما تحتاج إلى تثبيته: موعد الثلاثاء، والزيارة، وصلتها بكمال. أحالت بياناتها للتحقق، وأرسلت الوقت الذي ذكرته إلى الفريق الذي يجمع تسجيلات الشارع الأمامي. كاميرا الجار لا تكفي؛ الرجل ذو المظلة عند الثامنة واثنتين وخمسين ما زال يعبر طرف الصورة ويخرج منها دون أن يبين إلى أين ذهب.

في السادسة إلا عشر دقائق اتصلت بأبي ابنها.

– مساء الخير. أعتذر عن إرباكك. قد أتأخر قليًلا.

– إلى متى؟

نظرت إلى الطلبات المفتوحة على الشاشة. كانت تستطيع أن تسمي ساعة أخرى، وقد فعلت ذلك كثيرا حتى صار الاعتذار التالي جاهزا مع الوعد.

— لا أعرف بعد. هل يمكن أن يبقى عندك الليلة؟ إن كان هذا يناسبك، طبعا.

— يناسبني. لكنه وضع أغراضه عند الباب.

قالها دون عتاب ظاهر. وجدت نفسها تعتدل في جلستها، كما تفعل حين يقرأ أحد محضرا كتبته وتنتظر موضع الخطأ. قبل الطلاق كان يقول لها إن الصغير ينتظر، الآن يخبرها أين وضع أغراضه.

— أشكرك. سأكلمه أنا. ولا تدعه يؤخر العشاء من أجلي، من فضلك.

جاء صوت التلفاز، ثم احتكاك قصير عند الهاتف.

— أمي؟

— سأبقى في العمل بعض الوقت. هل يمكن أن نقرأ غدا؟

— عادي.

— وصل الكتاب إلى الفصل الذي حدثتني عنه؟

— قرأت قليلا لأبي.

— جميل. وأريد أن أسمعه أيضا.

— حسنا.

انتظرت أن يسألها عن موعد آخر، فسمعت أباه يسأله عن شيء بعيد عن السماعة. حين عاد قال إنه سيعيد الكتاب إلى حقيبته.

— اتركه عندك، قالت. قد تحتاج إليه الليلة.

أنهت المكالمة وبقي إبهامها فوق الشاشة. كان عليها أن تسجل اتصالًا آخر بشأن شاهد، فاكتشفت أنها فتحت محادثة ابنها بدل سجل الأرقام. أغلقتها، ونقلت الهاتف إلى الجانب الآخر من المكتب.

قبل التاسعة بربع ساعة وصل أول جواب عن سلمى.

كانت هناء قد فتحت علبة طعام أحضرها زميل من الخارج. أعادت غطاءها عندما مّد إليها ورقتين. سنة الميلاد مطابقة، ورقم البطاقة مطابق. إدانة في سنة 2022 في قضية سرقة من خزنة مكتب كانت تعمل فيه.

قرأت اسم المشتكي.

رشيد البقالي.

رجعت إلى أول الصفحة. تذكرت الرجل يعّدل الملف فوق ركبتيه، ويجيب عن أملاك كمال وعن موعد سفره. كانت سلمى قد قالت إن كمال يريد إصلاح أمر قديم، وإن لديه أوراقًا. أما الذي وصل الآن فملخص لا يبين دور كمال في القضية، ولا ما قيل فيها، ولا الوثائق التي بُنيت عليها الإدانة.

فتحت طلبًا للحصول على الملف الكامل، وبدأت تحدد ما يلزم من الحكم والمحاضر والمرفقات. في هامش ورقة أخرى كتبت أسئلة لرشيد. وضعت خطا تحت «صلة كمال بملف سلمى»، ثم شطبت الخط؛ السؤال يحتاج إلى جواب قبل أن يحتاج إلى أهمية إضافية.

رن هاتف المكتب.

استمعت إلى زميلها من غرفة الاتصالات، ثم طلبت منه إعادة العبارة حرفيًا.

«الساعة في شقة إدريس السراج».

المتصل ذكر العنوان كاملًا، وأنهى المكالمة قبل أن يجيب عن اسمه. سألت عن الوقت، وأكدت حفظ التسجيل، وفتحت محضر تفتيش السبت إلى صفحة الجرد.

الهاتف والثياب والأشياء التي رُفعت للفحص. لا ساعة في المحجوزات.

أخبرت قاسمي بالبلاغ، فأمرها بإعداد عرضه على النيابة مع المحضر السابق، والتحقق من وضع المراقبة حول إدريس. أخذت الأوراق إلى مكتبه، وبقيت واقفة حتى أنهى مكالمة كان يجريها.

— يحّدد الشقة نفسها؟ سأل.

— نعم. بعد الإفراج عنه، وبعد تفتيش السبت.

— ربما كانت مخبأة وفاتت الفريق. أو أعادها اليوم.

— كلاهما ممكن. وربما يعرف صاحب البلاغ ما حدث في التفتيش، أو ما حدث بعده.

توقف عن ترتيب الأوراق.

— وما الذي تريدين فعله؟

وضعت أمامه ورقتي سلمى، وقالت إنها تريد متابعة مصدر البلاغين جنبًا إلى جنب، واستكمال طلب ملف 2022، واستماعًا ثانيًا لرشيد. لا لتواجهه باتهام، بل لتسأله عما يعرفه عن عودة الاتصال بين كمال وسلمى، وعن أوراق قد تكون انتقلت بينهما.

قرأ الملخص، ثم رفع نظره إليها.

— وهذا قد يعطي سلمى سببًا لقتل كمال.

— وقد يفسر لماذا أراد مقابلتها. نحتاج إلى الملف.

— اطلبيه.

– أحتاج إلى من يتابعه، لا إلى أن يبقى الطلب في قائمة المراسلات. وأريد مراجعة البلاغين من التسجيل الأصلي وسجل تلقيهما، ثم متابعة ما يمكن الوصول إليه عن مصدر كل اتصال بالإجراءات اللازمة.

– تعرفين عدد الناس الموجودين الليلة.

كانت تعرفه. أحد أفراد الفريق غائب، وآخر مع مهمة خارج المدينة. على اللوحة خلف قاسمي أسماء موزعة على ساعات، وبينها مهمتانُ كتبتا فوق اسم واحد. أشارت إلى الشرطيين المكلفين باستكمال جمع تسجيلات الشارع الأمامي.

– أحّولهما إلى هذين المسارين، وأتولى أنا الاستماع إلى رشيد. يبقى زميلهما على التسجيلات.

– ثلاثة صاروا واحًدا.

– حتى ننتهي من المراجعة الأولى.

سحب العميد ورقة توزيع العمل، ودار بها نحوها. كانت بعض العناوين مشطوبة بعد أخذ نسخ تسجيلاتها، وبقيت إلى جوار أخرى ملاحظات: محل مغلق، المسؤول غير موجود، موعد صباحي، رقم لا يجيب. مرت بعينيها على القائمة قبل أن تضع إصبعها عند آخر ما أُنجز.

– نرتب الباقي بحسب ما أمكن معرفته عن مدة الاحتفاظ. ونطلب حفظ ما لم يُنسخ بعد.

– طلب الحفظ لا يعني أن أحًدا قرأه. ولا تعرفين مدة الاحتفاظ في كل جهاز.

رفعت إصبعها عن الورقة. كان اعتراضه صحيًحا، وهذا ما جعل القرار أصعب من خلاف حول مشتبه به. تحتاج إلى التسجيلات كما

تحتاج إلى الملف الذي بدأ يتشكل وراء البلاغين. وإذا انتظرت اكتمال كل مسار قبل فتح الذي يليه، فقد تصل إلى أجوبة بعد أن تفقد الأسئلة ما يمكن أن يجيب عنها.

— أعرف، قالت. سأحدد في المذكرة ما بقي ومن سيتابعه.

— لماذا الآن؟ ما الذي يمنع تأجيل الملف القديم إلى الغد؟

أعادت محضر التفتيش إلى أعلى الأوراق.

— لأن البلاغ الأول وضع إدريس أمامنا، والثاني يضع الساعة في بيته بعد أن فتشناه وأفرجنا عنه. لا أقول إنهما كاذبان. أقول إننا نعرف عن الرجل الذي سّمياه أكثر مما نعرف عمن سّماه. وإذا انتظرنا نتيجة التفتيش الجديد وحدها، فسنعود إلى السؤال نفسه مهما كانت النتيجة.

— وإن وجدنا الساعة؟

— سنحتاج إلى معرفة كيف وصلت. وإن لم نجدها، سنحتاج إلى معرفة لماذا قيل لنا إنها هناك.

فرك قاسمي جسر أنفه، وأبعد علبة النظارات عن حافة المكتب. ظل ينظر إلى توزيع العمل حتى حسبت أنه سيرفض.

— التحرك بشأن الشقة يستمر وفق ما تقرره النيابة. والمراقبة تبقى. لا تسحبي أحدًا منهما.

— متفقة.

— وللرجلين مهمة محددة وموعد مراجعة. لا تفتحي بهما كل ملفات سنة 2022.

أومأت. أعاد إليها الورقة، وأبقى إصبعه عند قائمة التسجيلات الناقصة.

— إن ضاع تسجيل، فهو عليك. اكتبي لي لماذا.

أخذت الأوراق وعادت إلى مكتبها. في الممر بدأت تصوغ جملة عن «ضرورة توسيع البحث»، ثم تركتها؛ تصلح لتغطية أي قرار، ولا تفسر هذا القرار بالذات.

كتبت زمن البلاغ الأول، وزمن تفتيش السبت، ووقت الإفراج، وزمن البلاغ الثاني. فصلت الوقائع المثبتة عن احتمال أن تكون المعلومة قد وصلت من شخص يتابع تحركات البحث. وأثبتت صلة سلمى بملف رشيد، وما قالته عن موعد كمال، من غير أن تجعل ذلك اتهامًا لأي منهما.

عند فقرة توزيع العمل توقفت. كان أسهل أن تذكر المهمتين الجديدتين وحدهما، فتبدو المذكرة إضافة إلى البحث. أدرجت اسمي الشرطيين، والمهمة التي سيتوقفان عن متابعتها، والعناوين الباقية للزميل الثالث، وما ينبغي طلب حفظه منها. ثم حددت موعد مراجعة التكليف في صباح اليوم التالي.

وصلت رسالة من أبي ابنها: «نام. ترك الكتاب على الطاولة».

كتبت «شكرًا لك»، ومسحت «سامحني» قبل أن ترسل. أعادت الهاتف إلى الحقيبة المفتوحة عند قدمها، وسحبت المذكرة من الطابعة.

قرأت صفحة توزيع العمل مرة أخيرة. لم يكن فيها ما يضمن أن اختيارها صحيح.

تحت التاريخ والساعة، وّقعت هناء المريني.

سارق الاحتمالات

القسم الثاني



الفصل الثامن

ملف جاهز

الاثنين، 19 يناير، مساءً

أعاد إدريس بطاقة المحامي إلى جيبه، واتجه نحو محل الهواتف بدل الطريق المؤدي إلى بيته.

اختار جهازا مستعملا يكفي للاتصال، وانتظر حتى جرّبه البائع أمامه. كان الصبي الذي ينظف الواجهة يرفع عينيه عن الزجاج كلما سعل، وفي الخارج توقفت السيارة التي رآها عند خروجه من مقر الشرطة وراء عربة خبز. هذه المرة استطاع رؤية الراكب بجوار السائق. وجه عادي، ضاق قليلا حين انعكست الشمس في الزجاج.

دفع ثمن الهاتف، وطلب إيصالا باسمه. وهو ينتظر استكمال إجراءات الخط، كتب رقم مروان في الجهاز الجديد، ثم رقم بنعيسى الذي يحفظه منذ كانت ذاكرته تحتفظ بالأرقام بدل الهواتف. رفع إبهامه عن زر الاتصال. إذا أخبره بأنه آت، فقد يجد عند وصوله رجلا استعد للأسئلة. أراد أن يسمع الجواب قبل أن يستقيم.

ترك سيارته بعيدة وسار نحو السوق الداخل، والسترة المستعارة تحتك بمعصميه. عند مدخل الزقاق وقف يشتري خبزا، فرأى رجلا ينزل من السيارة ويتابع على قدميه. حوّل نظره إلى الخبز. صار لديه من اليقين ما يكفي لاختيار مكان اللقاء، لا ما يكفي لمعرفة كل من يراقبه.

دخل المقهى من بابه الأمامي.

رفع بنعيسى رأسه خلف الصندوق. قبض على المنشفة التي كان يمسح بها صحنا، وعندما وضع الصحن اصطدم بآخر فخرج صوت قصير. تقّدم نحوه بخطوتين، ثم أبطأ، كأن المسافة المتبقية تحتاج إلى إذن.

قال: «الحمد لله. متى خرجت؟»

وضع إدريس كيس الخبز على الطاولة التي جلس عندها مع ليلى.

«اليوم. أريد الملف الذي أرسلته يوم الأربعاء. والورقة التي كانت مع الصورة أول مرة.»

نظر بنعيسى إلى الباب. دخل الرجل الذي تبعه وطلب شايًا، ثم جلس قرب الجدار. اختار مقعدا يرى منه الطاولات كلها، وأخرج هاتفه.

خفض بنعيسى صوته: «هنا؟»

«هنا.»

كان في المقهى عاملان من السوق ورجلان يلعبان الدومينو. يعرف إدريس أكثرهم بالوجوه، ويعرف أن الناس يتذكرون من رفع صوته قبل أن يتذكروا ما قال. أزاح الكرسي المقابل بقدمه، وجلس بحيث يرى بنعيسى، لا الباب. هذه المرة تعّمد ذلك.

«رجل مات»، قال.

حرك بنعيسى المنشفة بين كفيه. «عرفت.»

«كنت تعرف أنه في البيت؟»

«لا.»

جاء الجواب فوًرا، وتوقف ما بعده. أراد إدريس أن يصدقه. انزعج من وضوح هذه الرغبة؛ كانت أول معلومة ينبغي أن يضعها أمامه قبل

أن يبدأ.

أحضر بنعيسى القهوة دون أن ُيطلب منه ذلك. وضع السكر قرب الفنجان، ثم أخذه بعدما تذكر. جلس وأبقى المنشفة فوق ركبتيه.

«لم أقل إنني رأيته في مدريد.»

«قَلت: ثابت.»

نظر الرجل إلى الفنجان. تحركت شفتاه كأنه يعيد سماع الكلمة بالنبرة التي قالها بها.

«أردت أن أقول إن الخبر لم يتغير.»

«عند من؟»

عبر النادل بينهما حامًلا صينية. انتظر بنعيسى حتى ابتعد، واستمر صمته.

«سأحضر الأوراق.»

قام، وراقبه إدريس حتى دخل الغرفة الضيقة وراء الصندوق. لم تكن في الغرفة نافذة تطل على الخارج؛ يعرف ذلك من أيام كان يبيت فيها على أريكة قصيرة بعد مرض صاحب المقهى. ذات شتاء نهض بنعيسى عند الفجر ليغطي قدميه ببطانية إضافية، وظن إدريس يومها أنه نائم. تذكر حركة الرجل وهو يحاول ّالا يوقظه، وغضب لأن الذكرى جاءت الآن.

عاد بنعيسى بملف بلاستيكي أزرق. وضعه أمامه، لكن يده ظلت فوقه لحظة.

«ليس كل ما فيه خطأ.»

فتح إدريس الغلاف.

كانت الصفحة مؤرخة في الرابع عشر من يناير. موعد الرحلة، وعنوان البيت، ووصف مواعيد العاملة، وملاحظة عن الزقاق الخلفي. عند أسفل الورقة أثر حبر من طابعة تحتاج إلى تنظيف؛ شريط باهت يمتد في الهامش، ويتوقف قبل السطر الأخير. يعرف هذه الصفحة. قرأها في سيارته وفي مطبخه، وفي ليلة الجمعة قبل أن يخرج إلى البرد. الغريب أنه يراها الآن بوصفها ورقة وصلت من مكان آخر.

«من كتبها؟»

«جمعت لك ما وصلني.»

«الملف الأصلي، من كتبه؟»

سحب بنعيسى يده.

«وصلني هكذا.»

أمال إدريس الصفحة نحو الضوء. في الأيام الماضية كان قد غيّر ترتيب الأسئلة، وأضاف تحفظاته، وجمع مصادر مختلفة في دفتره. أما هذا التنسيق فلم يصنعه بنعيسى. كان الرجل يكتب العناوين بخط كبير، ويترك بين الأرقام مسافات لا داعي لها، ويضع تحت اسم كل شخص لقبًا يميزه به. هذه الورقة مرتبة على نحو لا يشبهه.

قال بنعيسى: «راجعت بعض الأشياء.»

«أيها؟»

أشار إلى عنوان البيت. وإلى اسم الشركة. ثم ذكر ما سمعه عن آل الحسوني. سأل إدريس عن السفر، وعن الكاميرا، وعن مصدر مواعيد العاملة. مع كل سؤال كان إصبع الرجل يبتعد عن الورق حتى عاد إلى المنشفة.

دفع إدريس الملف قليلًا، وأخرج هاتفه الجديد. حاول فتح الموقع المحلي الذي قرأ اسمه صباحًا على شاشة في ممر الانتظار. كان الاتصال بطيئًا، وصفحة الأخبار تعرض إعلانًا يغطي نصف العنوان. أزاحه، وبحث باسم كمال الطاهري.

ظهر الخبر بين صورة سيارة إسعاف قديمة ونافذة تطلب قبول الإشعارات. عنوان عن «أيام رجل الأعمال الأخيرة»، وتحته فقرات تنقل عن مصادر قريبة من محيطه. قرأ إلى منتصف الصفحة، فتوقف عند سطر يقول إن كمال ألغى سفرًا إلى مدريد يوم الاثنين السابق للجريمة.

أدار الشاشة نحو بنعيسى.

«إذا صح هذا، فقد ألغى السفر قبل تاريخ ورقتك بيومين.»

قرب بنعيسى وجهه من الهاتف، ثم أعاده إليه. «الصحافة تكتب أشياء كثيرة.»

«صحيح. لهذا لن أستبدل ورقتك بخبر وأقول إنني تحققت.»

وجد اسم المحرر في أسفل المقال، ورقم هيئة التحرير في صفحة الاتصال. اتصل من مكانه. ردت امرأة، ثم حوّلت المكالمة إلى رجل يتحدث وبالقرب منه صوت لوحة مفاتيح. عرّف إدريس بنفسه باسمه الأول، وقال إنه يراجع تاريخ إلغاء السفر الوارد في الخبر، وسأل إن كان اليوم قد نُقل عن مصدر أم استنتجه الكاتب.

«قاله المصدر»، أجاب الصحفي. «هل عندك تاريخ آخر؟»

«عندي ورقة تشير إلى أن السفر قائم بعد الاثنين. هل اطلَعت على إلغاء حجز؟»

خفّف صوت الكتابة.

«لم ننشر أننا اطلعنا على حجز. نقلنا ما قيل لنا.»

شكره إدريس، وطلب منه تصحيح الخبر إذا تبدلت المعلومة. قبل أن يغلق، سأله الصحفي من أين جاءت الورقة. قال إنها ورقة يحتاج إلى التحقق منها، ولم يعرضها عليه. أضاف الرجل أنه يستطيع الاتصال متى أراد إرسالها، وانتهت المكالمة دون أن يحصل أي منهما على ما كان يأمل الحصول عليه كاملًا.

كتب إدريس في هامش الصفحة: «إلغاء الاثنين: خبر منقول، يحتاج تثبيتا». نظر بنعيسى إلى العبارة، فانفرج فمه قليلًا، كأنه وجد فيها فسحة.

قال إدريس: «الخبر وحده لا يكفي لإدانتك بالكذب. لكنك تعرف الآن لماذا أسأل عن الشخص الذي أكد لك السفر.»

أعاد بنعيسى ترتيب السكر في الحامل الخشبي، مع أنه كان مرتبًا.

«رجل أعرفه.»

«وأنا أعرفك. انظر أين انتهت الجملة.»

على الطاولة المجاورة اصطدمت قطعة دومينو بأخرى، وقال أحد اللاعبين إن الحساب خطأ. كاد إدريس يلتفت. تعب ذراعيه يعود كلما جلس دون حركة، فأبعد الفنجان وأراح كفيه على ركبتيه. رأى بنعيسى الحركة وسأله إن كان ضربه أحد. قال إنه بخير. كان الجواب غير دقيق، لكنه أول جواب في هذا المساء يستطيع الرجل تقبله دون أن يدافع عن نفسه.

قلب الصفحة إلى ملاحظة الكاميرا.

«رأيت صورتي وأنا أتسلق السور.»

أغمض بنعيسى عينيه.

«هل تعلم متى ركّبها الجار؟»

هز رأسه، وأشار إلى فقرة أخرى في الملف. في أسفلها اسم متجر صغير للتركيبات، دوّنه بخطه لاحقًا.

«سألت بعد أن أخذوك. الرجل الذي يعمل هناك قال إنه ركب جهازًا يوم الجمعة التي سبقت الجريمة. التاسع.»

«بعد أن أخذوني؟»

«نعم.»

طلب إدريس الرقم. هذه المرة قرأه بنعيسى من دفتر الحساب، ولم يقل إنه يعرف صاحبه جيدًا. رد الفني بعد محاولتين. تحفّظ حين سمع وصف البيت، وسأل عن سبب السؤال. قال إدريس إنه يريد التحقق من تاريخ ورد في معلومة تتعلق به، وإن الرجل يستطيع أن يمتنع عن الإجابة.

«الشرطة سألتني بالفعل»، قال الفني. «لن أتكلم عن الصور.»

«لا أطلب الصور. هل التاسع من يناير تاريخ تركيب أم تاريخ فاتورة؟»

سمع أوراقًا تتقلب. أكد الرجل أن التركيب تم في التاسع، وأن لديه أمر عمل بذلك. رفض إرسال الوثيقة إلى رقم لا يعرفه، ولم يحدد زاوية الجهاز أو طريقة عمله. شكره إدريس قبل أن يغلق.

كتب: «الفني يؤكد التاسع، الوثيقة عنده». خمسة أيام بين التركيب وإرسال الملف الذي يقول إن الزقاق بلا كاميرات.

أجابه بنعيسى قبل أن يسأل:

«لم أذهب.»

ترك إدريس القلم. كانت العبارة أبسط من كل التفسيرات التي أعدها له في الطريق.

«وفي الجمعة، حين كتَبت ثابت؟»

«اتصلت بالرجل.»

«وأعاد عليك ما كان قد أرسله.»

أومأ.

تأمل إدريس الصفحة التي ازدحمت بأسماء الجهات التي قيل له إنها راجعت الحكاية. رقم يسند رقَما، وورقة توافق ورقة. ظن أنه وسّع دائرة التحقق كلما اتصل بشخص جديد، لكن بعض الأجوبة كان قد دار وعاد إليه من الباب نفسه. لا يختلف الخبر لأنه وصل بصوتين إذا كان الصوتان يقرآن السطر ذاته.

«وليلى، كيف عرفتها؟»

«الرجل نفسه رتب مجيئها.»

«رأيت بطاقتها؟ قابلت أحَدا من الأسرة معها؟»

«لا. عرفتها ذلك الأسبوع.»

«ما الذي تدين به له؟»

رفع بنعيسى وجهه. كانت هذه أول مرة يتغير فيها صمته إلى شيء يشبه الاعتراض.

«لماذا تفترض أنني مدين؟»

«لأنك تخاف منه أكثر مما تخاف من أن أخسرك.»

نظر الرجل إلى الباب، حيث نهض مراقب إدريس ليؤدي ثمن الشاي. ذهب إلى الصندوق، وأخذ الباقي، وعاد إلى مقعده. عاد بنعيسى بعينيه إلى إدريس.

قال بنعيسى: «لو كان الأمر مآلا فقط لانتهى منذ زمن.»

انتظر إدريس.

«هناك أوراق. أشياء وقعتها. وأناس يدخلون في الأمر إنْ فتح.»

«هل كنت تعرف أن كمال سُيقتل؟»

«لا.»

جاء الجواب سريعًا هذه المرة أيضا. المنشفة مشدودة بين كفيه.

«هل قلت له إنني سأتصل بالإسعاف إذا وجدت مصابًا؟»

تحركت المنشفة أخيرا. سقط طرفها عن الركبة ولم يرفعه بنعيسى.

«قلت أشياء عنك. قبل هذا. حين كان يسأل عن الناس الذين أتعامل معهم.»

«عن قواعدي؟»

«عن أنك لا تحمل سلاحا. وأنك تعيد ما يزيد على الاتفاق. كنت أظن...»

قطع الجملة بنفسه. جلس رجل في السبعين، في مقهاه الذي يعرف فيه موضع كل كأس، يبحث عن عبارة لا يستطيع ترتيبها.

مد إدريس يده.

«الورقة الأولى.»

استغرق إخراجها وقتا قصيرا، أقصر مما توقع. كانت في محفظة جلدية داخل جيب القميص. طياتها الأربع لانت، وفي طرفها أثر دائري من رطوبة قديمة. بسطها بنعيسى ولم يدفعها إليه، فقرأ إدريس وهي بين يديه.

في الأعلى تعليمات عن اللقاء والصورة والقرابة التي ستذكرها المرأة. تحتها سطر مطبوع، منفصل بمسافة صغيرة:

«لا يتحرك قبل أن يتحقق. أعطوه ما يتحقق منه.»

قرأه مرة ثانية. عرف نفسه في الجملة، لهذا أثّرت فيه أكثر. كلما سأل عن ظلم آل الحسوني وجد ظلًما، وكلما طلب صورة وصلت صورة. أُعطي ما يشغله حتى ظن أن بقية الأسئلة أقل شأنًا. ثم أكمل هو العمل: اختار الإجابات التي تمنحه القدرة على المضي، وكتب تحفظاته الصغيرة كأنه بذلك أدى ما عليه.

قال بنعيسى: «كنت سأوقف الأمر إن شعرت...»

رفع إدريس عينيه.

«متى؟»

صمت بنعيسى.

وضع بنعيسى يده على طرف الورقة، وسأل إن كان سيأخذها إلى الشرطة.

«سأعرضها على محامّي.»

«فيها ما يخصك أيضا.»

«أعرف.»

خرجت الكلمة هذه المرة ببطء. الورقة لم تسّمه، لكن بنعيسى يستطيع أن يكمل الفراغات. وإذا فعل، فلن يستطيع إدريس أن ينتقي من شهادته الجزء الذي يثبت أنه خُدع، ويترك ما يثبت أنه جاء مستعدا للسرقة. كان يريد حقيقة تنقذه، والورقة تعرض حقيقة تستطيع أن تسير في الاتجاهين.

قال بنعيسى: «أستطيع أن أقول إنني أخطأت في خبر السفر. أقول إنني ظننت أنه غادر، وإنك سألتني فأجبت.»

«هذا ما حدث؟»

أزاح الرجل عينيه.

«جزء منه.»

«ستقول إنك كتبت هذا السطر أيضاً؟»

نظر بنعيسى إلى التعليمات المطبوعة. كان يعرض عليه أن يحمل خطأ يمكن احتماله ليحجب وراءه خطأ أكبر. رأى إدريس، للمرة الأولى، أن خوف صديقه لا يمنعه من التفكير فيه؛ إنه يفكر فيه فعلاً، ويحاول إنقاذه بالمقدار الذي لا يعّرض الشخص الآخر للخطر.

«لا أريد منك أن تؤلف لي شهادة»، قال. «احتفظ بما وصلك، وبالرسائل، وبأرقام من اتصلوا. وإذا طلبوا منك ما تعرفه، قل ما تعرفه.»

تحرك رأس بنعيسى حركة صغيرة لم تصل إلى الموافقة. ثم سأل عن الحارس، عن الرجل الذي كان إدريس يتابع خبره. ذكر أنه رآه قبل يومين، وأنه سأله إن كان صاحب الورقة سيعود. جاء السؤال في غير موضعه، وعرف الاثنان ذلك.

«إن سألك مرة أخرى، لا تعده بشيء عني.»

خفض بنعيسى عينيه. أراد إدريس أن يسأله عما أجاب به الحارس، لكنه رأى كيف يستطيع خبر صغير أن يعيد بينهما الإيقاع القديم: هو يسأل، والرجل يطمئنه، ويصبح السؤال الآخر أقل إلحاحا. أبقى يده ممدودة نحو الورقة.

طلب الاحتفاظ بها. بعد تردد أرخى الرجل أصابعه، فرفعها إدريس من غير أن يعيد طيها. أدخلها في الملف الأزرق، وكتب على غلافه تاريخ تسلمه. لن يجعلها اعترافاً باسم كاتبها؛ بنعيسى يستطيع إنكار الطريق الذي وصلت به، والطباعة لا تحمل وجهاً. لكنها تغير السؤال كله. لم يعد يبحث فقط عن معلومة أخطأ فيها صديقه، بل عن شخص عرف كيف يجعل خطأه منتجاً.

«اسم الرجل»، قال.

نظر بنعيسى إلى كيس الخبز الذي أحضره إدريس، ثم إلى يديه.

«لا أستطيع.»

قام إدريس. تناول نقود القهوة من جيبه، فوضع بنعيسى كفه على الطاولة معترضا. دفعها إدريس إلى جوار الفنجان. كانت حركة صغيرة قاسية، وعرف أنه اختارها لتكون كذلك.

«لن أرسل أحدًا مكانك»، قال بنعيسى بصوت منخفض.

«أنت أرسلتني بالفعل.»

في الخارج أحس بالبرد على رقبته. توقف عند الحائط ليغلق الملف، فرأى من خلال الزجاج بنعيسى يرفع كيس الخبز وينقله خلف الصندوق، إلى المكان الذي وضع فيه الكيس الأول قبل عشرة أيام. كاد يرجع. كان في مقدوره أن يسأله عن الدواء، أو يترك له جملة تجعل الليلة محتملة، لكنه خشي أن يستعملها الرجل بدل الجواب.

فتح دفتره عند قائمة المصادر. أمام اسم بنعيسى كانت كلمة «مباشر»، كتبها قديمًا ولم يعد يراجعها. شطب الكلمة، لا الاسم، وأضاف: «ينقل عن شخص يرفض تسميته».

اتسع السطر لما عرفه. أما السنوات التي كانت تجعله يطمئن حين يرى الاسم، فلم يجد لها مكانًا آخر يضعها فيه.

الفصل التاسع

غبار على الصندوق

ليلة 19 يناير وصباح 20 يناير

أضاء إدريس مصباح المدخل، ووضع المفتاح في الصحن الصغير قرب الباب.

كان المفتاح يصدر عادة رنتين؛ واحدة حين يصطدم بالفخار، وأخرى حين يستقر فوق القطعة النقدية التي يحتفظ بها هناك. هذه المرة خرجت رنة واحدة. نظر إلى الصحن. القطعة النقدية إلى جانبه، قرب فاتورة الكهرباء، وفوقها شعرات دقيقة من الغبار.

الشرطة دخلت البيت يوم السبت. بدأ بهذه الحقيقة قبل أن يسمح لنفسه بالبحث عن أخرى.

خلع سترة مروان ووضعها على ظهر كرسي. حمل الملف الأزرق إلى الطاولة، وترك كيسًا اشتراه في الطريق بجوار الموقد. بيض، وجبن، وقنينة ماء. أشياء تكفي لليلة عادية، وقد اختارها كأن شراءها يلزم الليلة بأن تصبح كذلك.

كانت الساعة تقترب من العاشرة. من النافذة رأى رجلًا عند أسفل الزقاق، يقف تحت الضوء ويقرأ في هاتفه. لم يستطع معرفة إن كان الرجل نفسه الذي جلس في المقهى. أغلق الستارة إلى منتصفها، ومر بين الغرف.

الأدراج مرتبة على نحو مختلف؛ أوراق العمل لم تعد في ترتيبها، وثلاثة شماعات فارغة تتدلى في الخزانة. فكر في المعطف المحجوز،

وفي كّميه اللذين فحصهما عند الفجر. كان يفهم لماذا يبحثون عن أثر، ما صار أثقل الآن هو أن يمشي داخل بيته فيرى آثار البحث عنه.

أشعل النار تحت مقلاة صغيرة. بينما يسخن الزيت فتح خزانة المطبخ ليأخذ طبًقا، فسقط منها برغي على البلاط.

انحنى بصعوبة والتقطه. برغي قصير ذو رأس عريض، يستعمله في تثبيت مقبض الخزانة الذي يرتخي كل بضعة أشهر. كان يضع القطع الصغيرة في كيس داخل صندوق الأدوات أسفل الرف. مد يده إلى موضع الصندوق، ثم توقف.

يمتد على الرف غبار خفيف، أقدم من الأيام الثلاثة التي غابها. وسطه مستطيلٍ داكن، نظيف نسبًيا، وخلف حافة الصندوق خط آخر يدل على أنه دفع إلى الداخل أكثر مما اعتاد. هذا كله يمكن أن يكون من التفتيش. لا يحتاج إلى لص كي يغير موضع صندوق.

أخرجه ووضعه على الطاولة. الغطاء المعدني يحمل خًطا أعرض من إصبع، مسح الغبار حتى ظهر اللون الرمادي تحته. قلب الغطاء فرأى المفك الكبير، ومتر القياس، وشريًطا عازًلا نسي أنه اشتراه. أشياء تصلح لإصلاح بيت، وقد صار يتساءل بأي اسم ستدخل المحضر إذا رآها أحد قرب صورة رجل يتسلق سوًرا.

أعاد البرغي إلى الكيس. في الزاوية قطعة قماش مطوية لا يعرفها.

ظل ممسًكا بالكيس لحظة، ثم ألقاه في الصندوق وأطفأ النار تحت المقلاة.

كانت قطعة القماش بنية، أنعم من الخرق التي يحتفظ بها عادة. رَفع طرفها، فظهرت حلقة سلسلة، وتحتها انحناءة ذهبية. احتاج إلى كشف قدر صغير آخر قبل أن يسحب يده.

ساعة جيب.

رآها أيًاما في الصور، ثم بحث عنها بعينيه في خزنة مفتوحة بجوار رجل يحتضر. الآن استقرت بين مفك وعلبة مسامير في مطبخه، في المكان الذي ينتهي إليه من يدخل ليبحث عن شيء لا يريد صاحب البيت أن يراه الآخرون.

دفع الكرسي إلى الخلف وجلس.

أول ما خطر له كان المحامي. الرقم في الهاتف الجديد، والبطاقة في جيب السترة، ومروان قال له أن يتصل إذا وقع أي جديد. هذه كلمة واسعة بما يكفي لتشمل ساعة مسروقة تظهر في صندوقه، وأضيق مما ينبغي لتحتوي ما سيحدث بعد المكالمة.

أخرج الهاتف ووضعه على الطاولة، بعيًدا عن القماش. فتح شاشة الاتصال ولم يكتب الرقم.

إذا جاءوا، سيجدون ما لم يجدوه يوم السبت. يستطيع أن يقول إن أحًدا وضعها هنا، وسيكون عليه أن يشرح لماذا اختار أحًد بيته. قد يسألونه عن ليلى، وعن المهمة، وعن الصور الموجودة في هاتفه المحجوز. وفي نهاية تلك الأسئلة سيظل قادًرا على قول إنه لم يقتل كمال، لكنه لن يعود قادًرا على اختيار موضع صمته.

حّرك إبهامه نحو الاسم المحفوظ، ثم أقفل الشاشة.

أخذ قفازين من علبة التنظيف تحت الحوض، وارتداهما. قرب المصباح من الساعة.

ظهرت العلامة الصغيرة عند موضع اتصال السلسلة. كانت في الصور التي أحضرتها ليلى، قرب خدش مائل يضيع مع انعكاس الضوء. فتح الملف الأزرق، وأخرج إحدى الصور المطبوعة. توافق الشكل، وتوافقت العلامتان، لكن الصورة لا تثبت كل ما يريد معرفته. قد

تكون نسخة جيدة، وقد يكون الشيء الذي سعى إلى أخذه قد وصل أخيرًا على الطريقة التي اختارها شخص آخر.

صّور الصندوق كما وجده. ثم صّور الساعة في القماش، والحافة التي ظهر عندها أثر نظيف من الغبار. تردد قبل الصورة الثالثة؛ كل صورة جديدة تضيف إلى جهازه ما يربطه بالشيء. أخذها رغم ذلك. في ليلة الجمعة التقط صورًا لأنه اعتاد تسجيل ما يأخذه وما يتركه. الليلة احتاج إلى تسجيل ما وُضع عنده، وكان يعرف أن الصور وحدها لن تقول من وضعه.

رفع الساعة. كان وزنها أكبر مما توحي به الصور، والسلسلة تلتف على أصابعه وتستقر. انفتح الغطاء الأمامي بلمسة خفيفة. عقرباها واقفان، ووراء الزجاج شعرة دقيقة من شرخ قديم قرب الطرف، تكاد تختفي حين يغير زاوية المصباح.

أراد تشغيل الرنين الذي وصفته ليلى، ثم تراجع. سيعرف أنها تصدر صوتًا؛ لن يعرف بذلك من حملها إلى شقته. أعاد الغطاء، وقلبها بحذر.

في الداخل، عند الغطاء الواقي للآلية، لطخة خضراء ضيقة قرب المفصل. مالت إلى السواد حيث تراكمت، وإلى الشفافية عند طرفها. رأى لونًا مألوفًا على قطع النحاس القديمة، فكتب على ورقة صغيرة: «اخضرار داخل الغطاء». كاد يضيف «صدأ»، وتوقف. لم يعرف معدن القطعة على وجه اليقين، ولم يختبر الأثر. ترك الكلمة في رأسه، أخف من أن يعترض عليها وأقوى مما تستحق.

صّور الموضع كما استطاع، ثم أغلق الساعة والأثر في موضعه.

جاء صوت في الدرج؛ خطوتان، ثم باب يغلق في الطابق الأدنى. رفع إدريس رأسه. بعد ثوان سمع ماءً يجري في الأنابيب، وعاد إلى تنفسه الذي أوقفه دون أن يشعر.

كان آخر من يمكنه تأكيد خلو الصندوق هو من فتحه يوم السبت. أما هو فلم يفحص كل زاوية قبل خروجه. هذه فجوة، وقد يستقر فيها كل ما يريد إثباته. راجع في ذهنه ما وُضع أمامه في محضر الحجز. لم تكن الساعة بين المحجوزات. لكنه يعرف الفرق بين غياب شيء عن قائمة وبين شهادة بأن المكان كله خلا منه.

كتب: «وجدتها ليلة الاثنين، بعد العودة»، وأضاف الوقت من الهاتف وحفظ الورقة مع الصور.

عندئذ رأى الشخص الذي اختار الصندوق كما لو أنه خرج لتوه من المطبخ: يعرف كيف سيقرأ وجود الساعة كل من يدخل، ويعرف أن أدوات إدريس أقرب إلى تهمة من درج الملابس. يكفي أن يضع الشيء الصحيح في الموضع الذي سيجعل القصة سهلة.

بنعيسى يعرف البيت. أشخاص من أعماله يعرفون عنوانه. مالك العمارة يحتفظ بمفتاح احتياطي منذ واقعة تسرب الماء. وفريق التفتيش دخل يوم السبت. بعض هذه الطرق مشروع، وبعضها ممكن، ولا يختار مجرد إمكان الدخول الشخص الذي استعمله.

نظر إلى الهاتف مرة أخرى. كان الاتصال بمروان ما زال ممكنًا، والعبارة التي يمكن أن يبدأ بها لا تتجاوز بضع كلمات.

وجدت الساعة في بيتي.

قالها بصوت منخفض، فبدت له أخطر مما كانت في رأسه. وراءها انتظار جديد، وباب يغلق، وأشخاص يحتاج إلى الوصول إليهم قبل أن تختفي أخبارهم. لكنه يعرف أيضا أن الوقت الذي يريد شراءه سيكلفه شيئًا حين يضطر إلى شرح ما فعل به.

أخرج من الخزانة علبة فارغة، ووضع فيها القماش والساعة دون أن يلمع المعدن أو يمسح الصندوق. لّف العلبة بكيس يحميها من الرطوبة،

وحملها إلى السطح.

انفتح باب السلم على برد رطب. كانت مصابيح المدينة تتفرق وراء الحيطان، ومن مطبخ في الجوار جاء صوت امرأة تنادي طفلًا باسمه. مر بصره فوق سطح منخفض، فيه أصص مهملة وخزان ماء. خطر له أن يبعد الساعة عن بيته إلى هناك. يكفي أن توجد في مكان آخر حتى يصبح إثبات أنها له أصعب.

تذكر الحارس الذي استعاد مفتاحه وصار يقضي استراحته في المدخل.

أبعد عينيه عن سطح الجار.

ركع قرب الموضع الذي يحتفظ فيه بأرشيفه، وأوجعه معصمه حين استند إلى الأرض. ترك البطاقة القديمة في علبتها المعدنية. وضع الساعة منفصلة عنها، في الجزء الذي يعرف أنه سيعود إليه بنفسه. أي بحث يصل إلى هذا الموضع سيجد ما أخفاه، ومعه سنوات لم تدخل بعد في الأسئلة. للمرة الأولى جمع بيده بين ما قد يبرئه من قتل وما قد يدينه بسرقات أخرى.

حين عاد إلى المطبخ كان الزيت بارِدًا. ألقى البيض في المقلاة من غير أن يشعل النار، وانتبه إلى خطئه حين انتشر البياض بلا صوت.

جلس، وغطى وجهه بيديه.

عند منتصفِ الليلِ اتصل بمروان. رد الرجل بعد رنات طويلة، وصوته يحمل نوما خفيفا.

«هل حدث شيء؟»

نظر إدريس إلى الصندوق المفتوح.

«قابلت الشخص الذي أعطاني معلومات البيت. بعض ما نقله كان خطأ. عندي أوراق.»

اعتدل صوت المحامي. سأله إن كان الشخص مستعدًا لقول ذلك رسميًا. أجاب بالنفي، ثم تحدث عن تاريخ الملف، وخبر السفر، والكاميرا. سمع مروان حتى انتهى، وطلب منه الاحتفاظ بالأصول، وألا يعامل الخبر الصحفي كوثيقة إلغاء.

«أرسل لي صور الأوراق، ونتحدث صباحًا.»

قال إدريس: «هناك شيء آخر...»

سكت مروان ينتظر.

رأى الساعة تحت البلاطة، ورأى صوته وهو يتحول إلى جملة مكتوبة في ملف.

«أظن أن أحدًا استعمل معرفته بي.»

«هذا احتمال نبحثه. ما الذي حدث فعلًا؟»

أخبره عن الورقة المطوية. أنهى المكالمة والساعة خارجها.

نام على الأريكة، واستيقظ على طرق الباب.

ثلاث ضربات متقاربة على الباب، أعقبها اسمه. فتح عينيه على ضوء صباح رمادي، ورأى الهاتف يعرض السابعة ودقيقتين.

وقفت هناء في الدرج، وبجوارها شرطيان. كانت تحمل ملفًا رفيعًا، ونظرت أولًا إلى وجهه، ثم إلى القميص الذي نام فيه. عرّفت بسبب حضورها، وأطلعته على الوثيقة المتعلقة بالتفتيش. طلب الاتصال بمحاميه، فاتصل وهو يبتعد عن العتبة ليدخلوا.

سمع مروان يقول له أن يقرأ ما يُعرض عليه، وأن يطلب تثبيت ملاحظاته، ثم أخذ منه الوقت والعنوان على نحو دقيق رغم أنه

يعرفهما. وضع إدريس الهاتف على الطاولة، ورفع البيض البارد عن الموقد كي يفسح مكانًا. خجل من الحركة المنزلية الصغيرة وسط ما يحدث.

بدأ البحث في الغرفة الأقرب. توزعت الخطوات بين الأدراج، والأشياء التي تُرفع تُرى من جهتين قبل أن تعود أو تُوضع جانبًا. كلما اقترب صوت من المطبخ أحس بظهره يتصلب، مع أن الساعة لم تعد فيه.

سألته هناء: «هل دخل أحد إلى هنا منذ التفتيش الأول؟»

«كنت عندكم معظم الوقت.»

«وبعد خروجك؟»

«عدت مساءً.»

«أسأل عن شخص آخر.»

رأى الفرصة كما يرى بابًا مفتوحًا، ولم يعرف أي جانب منه أخطر.

«وجدت أشياء في غير موضعها. لا أعرف ما الذي تغير أثناء التفتيش وما الذي تغير بعده.»

دوّنت جوابه، وسألت عمّن يملك مفتاحًا. ذكر مالك العمارة، وشرح واقعة التسرب. أعطاها الرقم من ورقة مثبتة على جانب الخزانة. انتظر وهي تنقل الرقم.

فتح أحد الشرطيين صندوق الأدوات. رفع قطعة بعد أخرى، ثم أخرج الصينية الداخلية وفحص ما تحتها. تابع إدريس يديه، وحاول ألّا يتابع عيني هناء في الوقت نفسه. الصورة التي التقطها قبل ساعات تعرض قماشًا وساعة. ما يراه الشرطي الآن مسامير وأثر مستطيل خفيف في الزاوية.

تساءل إن كانت تعرف المكان الذي ينبغي أن تبحث فيه بالضبط. لكن هناء انتقلت من الصندوق إلى الرف، ثم إلى الخزانة التي فوقه. قد يكون عندها وصف، وقد يكون هذا مجرد ترتيب طبيعي للبحث. كان خوفه يعرض عليه الأجوبة كلها بصوت واحد.

وصلوا إلى السطح أيضا. صعد معهم، والهواء البارد يمر في قميصه. كان مشتركا بين السكان؛ سأل الشرطيان عن الباب الصغير والغرفة التي يستعملها المالك، وفحصا الأوعية المفتوحة وما أمكن الوصول إليه حول الخزان. عند رقع الترميم القديمة توقف أحدهما، وصوّر الأرضية. سمع إدريس هناء تقول من باب السلم: «أثبتوا ما فُحص وما لم يُفحص. لن نرفع كسوة السطح كلها الآن». سئل إن كان يصعد كثيرا، فقال إنه يصعد. سكت عن السبب، وهو يقف قرب الموضع الذي أخفى فيه الساعة.

عندما نزلوا، فهم إدريس أن البحث توقف عند السطح الظاهر، وأن الفراغ تحته لم يُفحص. كلمة «الآن» لم تغب عن سمعه. الأرضية التي أخفت الساعة دخلت الصورة، وما تركوه اليوم يستطيعون العودة إليه.

اتصل مالك العمارة وطلب الحديث مع هناء. أعطاها الهاتف. سمعت منه تفاصيل المفتاح، وأعادت عليه بعض الأجوبة للتثبت منها. ثم قالت:

«الشخص الذي جاء الأحد لأمر البيع، هل دخل الشقة أيضا؟»

أدار إدريس رأسه.

استمعت، وسألت عن الاسم. كتبت رقما، وطلبت منه إرسال ما لديه من مراسلات مع وكالة العقار. حين أعادت الهاتف قال له

المالك، قبل أن يسأله، إن الزيارة كانت قصيرة، وإنه لم يرد إزعاجه «في ظروفه».

«من دخل؟»

«خبير تقييم أرسلته الوكالة. قلت لهم إن الشقة مأهولة، لكنهم أرادوا رؤية توزيعها.»

«ما اسمه؟»

«الاسم عند الوكالة. أعطيت رقمهم للسيدة. كنت أظنهم مروا على الغرفة الأمامية فقط.»

أغلق إدريس عينيه. هناك طريق إلى بيته لم يحتج إلى مفتاح مصنوع ولا إلى نافذة مفتوحة. مجرد مالك يعتقد أن موافقته تكفي، ووسيط يختصر الأسماء في صفات مهنية محترمة.

قال إنه يريد نسخة من مراسلات الزيارة أيضا. وعده الرجل بأن يطلبها، وبدأ يشرح أمر البيع، فعاد إدريس إلى هناء بدل أن يسمعه.

كانت واقفة عند الرف. مررت بإصبعها على الخط النظيف خلف الصندوق، ثم نظرت إلى الغطاء المعدني. أشارت إلى الشرطي كي يصوّر الأثر على وجه الغطاء.

«أخرجته أمس؟»

قال: «نعم.»

«لأي سبب؟»

شعر بالمفتاح في جيبه رغم أنه وضعه في الصحن عند الدخول. أو ربما كان يتذكر وزنه فقط.

«سأتحدث مع محامّي قبل أن أجيب.»

أثبتت الجواب، وتفحصت المستطيل النظيف على الرف.

«كان هنا شيء»، قالت.

انحنت لتقرأ ما كتبته في المحضر، وأدرك إدريس أنه سيحتاج يوًما إلى تفسير هذا الصباح أيضاً.

الفصل العاشر

امرأة بلا اسم

من 21 إلى 23 يناير

شطب إدريس اسم «ليلى الحسوني» من خانة البحث، وأبقى كلمة واحدة: «ليلى».

ظهرت أمامه الوجوه نفسها التي رآها منذ نصف ساعة: حسابات مغلقة، وصور أطفال، وامرأة تبيع ستائر، وأخرى تقف أمام واجهة مطعم في مدينة لا يعرفها. كان يفتش عن اسم أعطته له امرأة استطاعت أن تقدم نسبًا كاملًا على ورق. لا سبب يدعوه إلى افتراض أنها احتفظت باسمها الأول كي تسهّل عليه البحث عنها.

أغلق النافذة، وأدار الكرسي نحو الزجاج.

في محل خدمات الإنترنت ثلاثة حواسيب مشغولة، وطابعة تطرد ورقة كل بضع ثوان. جاء طالب يطلب تصغير صورة بطاقته، ووقف رجل فوق رأس الموظف يشرح له كيف يريد كتابة طلب إداري. خارج المحل مرّت السيارة التي صار يعرف لونها، ثم توقفت قرب تقاطع الشارع. أخذ إدريس رشفة من قهوة باردة، وعاد إلى الشاشة.

كان قد أمضى الثلاثاء بين اتصال بمروان، ونسخ الأوراق التي أخذها من بنعيسى، وانتظار جواب عن زيارة العمارة. الوكالة طلبت أن يأتيها طلب المالك مكتوبًا قبل أن ترسل معلومات عن معاينة البيع. أعطى المحامي ما لديه من أرقام، ولم يحاول أن يدخل المكتب بقصة أخرى. الشرطة تملك سببًا للسؤال لا يملكه هو، وإصراره على الوصول

إلى كل شيء قبلها كان جزءًا من المشكلة، وإن كره الاعتراف بذلك.

عن الساعة لم يقل شيئًا.

اتصل برقم المرأة مرتين. الهاتف غير متاح.

كتب على صفحة نظيفة ما يتذكره من لقائه بها، وحاول أن يفصل ما رآه عما قالته. معطف كحلي، حقيبة بنية، أثر خاتم، عينان داكنتان، شامة صغيرة قرب الفك ظهرت حين التفتت نحو بنعيسى. تردد أمام الشامة؛ ربما نقلها في ذاكرته من وجه آخر. وضع قربها علامة استفهام.

أما تطوان، فقد قالت إنها عاشت فيها. هذه معلومة من روايتها، لكن نطقها لبعض الكلمات حمل شيئًا يعرفه من المدينة، خاصة حين تضايقت ونسيت ترتيب الجملة. لهجة محتملة لا بطاقة تعريف. أضافها إلى الصفحة، دون أن يحذف علامة السؤال الأخرى.

كانت تجيد رواية النزاع العقاري بطريقة تختلف عن حديثها عن الغرفة القديمة. في الأولى أسماء كاملة ومصطلحات وتسلسل، وفي الثانية أجوبة قصيرة تبحث عن شيء تستند إليه. يومها فسّر الفرق بأن الأوراق أثبت من ذاكرة الطفولة. الآن يستطيع تفسيره بأنها حفظت الجزء الأول.

مد يده إلى لوحة المفاتيح وكتب: «ممثلات تطوان».

قرأ العبارة، فضايقته سهولة القفزة. آلاف الناس يحفظون كلامًا يريدون قوله؛ موظفون في مقابلات، وأبناء يشرحون لآبائهم نتائجهم، ورجال يقفون أمام محققة ويختارون من الحقيقة أقل ما يكفي. هو نفسه تدرب في رأسه على بعض إجاباته قبل أن ينطقها.

ترك البحث مفتوحًا بوصفه احتمالًا قليل الكلفة، لا اكتشافًا.

مّرت أمامه صور مهرجانات ووجوه يعرفها من التلفاز. استبعد المشهورات بسرعة، ثم وجد صفحات فرق صغيرة، وورشا للتمثيل، وإعلانات اختيار ممثلين لأفلام قصيرة. تكررت الوجوه نفسها في صفحات مختلفة، وأغراه ذلك بأن يظن أنه يضيق الدائرة. انتبه إلى أن معظم الصفحات يعيد نشر الصور ذاتها؛ ليس ظهور الوجه خمس مرات خمس قرائن.

حفظ رابط كل صورة وتاريخها إن ظهر.

عند الظهر وجد وجهًا يشبهها في صورة لورشة مسرحية. كانت المرأة واقفة في الطرف، والضوء يمحو جانبًا من خدها. كبر الصورة حتى انقسم الوجه إلى مربعات، فأغلق التكبير. تشابه الوجه عند هذا الحجم يمنحه ما يريد أن يراه أكثر مما يمنحه معلومة.

بحث عن تسجيل الورشة. وجد عشر دقائق صّورها أحد الحاضرين. ظهرت المرأة في الدقيقة السادسة وتكلمت. كان صوتها مختلفًا؛ أرفع، وأنفاسها أسرع، وملامحها حين اقتربت من الكاميرا أبعد عن ليلى مما توهم في الصورة.

أنزل القلم من يده. كان قد كتب تحت الصورة «مرجح»، والآن اضطر إلى شطبها. أحس بخيبة أكبر من الوقت الذي خسره، فخرج ليأكل قبل أن يختار وجهًا آخر لتخفيفها.

في المطعم الصغير سأل النادل إن كان يريد الوجبة المعتادة. وافق من غير أن يتذكر آخر مرة جاء فيها. جلس قرب رجل يطوي صحيفة، وحاول قراءة عنوان مقلوب على الصفحة الخارجية. كان يتوقع اسم كمال في كل سطر. وحين جاءت الوجبة، رأى في طرفها فنجانًا صغيرًا للقهوة، فتركه بعيدًا.

عاد إلى المحل بعد ساعة. سأل الموظف إن كان قد انتهى من الجهاز، وقال إن طالبًا يريد إنجاز عرض. دفع إدريس ثمن الوقت، وانتقل إلى حاسوب عند النافذة. حمل دفتره والروابط التي حفظها، وأحس بمهانة خفيفة لأن بحثًا يتوقف عليه ما تبقى من حياته يشغل للموظف مقعدًا يحسب بالساعة. ثم وجد في ذلك ما يريحه: العالم لم يتوقف ليشاهد مشكلته.

في نهاية المساء كانت حصيلته أربع صفحات تستحق العودة، وصورتين استبعدهما، ومقطعًا مسرحيًا لم يصل إلى نهايته لأن الصوت انقطع. أغلق الحاسوب قبل أن يغلق المحل، ومشى إلى بيته ببطء.

على الدرجة الأولى في المدخل وجد ظرفًا تركه المالك. داخله فاتورة قديمة، وورقة يطلب فيها تحديد وقت مناسب لزيارة تخص إصلاح أنبوب. في أسفلها عبارة: «هذه المرة بحضورك». لم يعرف إدريس هل يشكره أم يغضب منه. حمل الظرف إلى الداخل، وأبقى المفتاح في يده حتى أضاء الغرفتين.

يوم الخميس بدأ بالصوت.

أعاد في رأسه جملتها عن عدم رغبتها في أن تبقى الساعة عند أحد. تذكر من النبرة الطريقة التي تستقيم بها المقاطع الأخيرة حين تحاول ألا تنفعل. بحث في المقاطع التي وجدها أمس، وشاهدها بأصواتها الأصلية، دون أن يسرعها. بعد ساعتين صار كل صوت نسائي قريبًا منها، فعرف أن عليه أن يتوقف.

في صفحة جمعية ثقافية محلية ظهر إعلان قديم عن عرض أفلام شباب. الصور صغيرة، وأسماء المشاركين مطبوعة فوق بعضها بخط لا يصلح إلا للملصق الأصلي. فتح الألبوم. في إحدى الصور امرأة ترتدي

معطّفا رماديًا، وتمسك كوبًا بكلتا يديها. التفتت نحو شخص خارج إطار الكاميرا، فانكشف جانب فكها.

أعاد الهاتف إلى الطاولة حتى يتوقف اهتزاز يده.

هناك الشامة، في الموضع الذي شك في تذكره. لكن الوجه وحده لا يكفي. فتح الصورة التالية، ثم السابقة. في ثالثة ظهرت المرأة أمام باب حافلة صغيرة، وهي ترفع يدها لتحجب الشمس. العينان وطريقة ضم الفم أعادتا إليه مقهى بنعيسى دفعة واحدة.

وجد عنوان الفيلم في التعليق: «آخر النهار». فيلم قصير شارك في عرض جامعي قبل عامين. كتب العنوان مع اسم الجمعية، فظهرت نتائج لا تخصه وأغانٍ قديمة ومسلسل. أضاف اسم المخرج المطبوع على الملصق، حتى وصل إلى نسخة منشورة في صفحة الفريق.

كانت المدة أقل من عشرين دقيقة.

جلس يشاهد. رجل عجوز في بيت، وابنته تصل لتعيد إليه مفتاحًا. تصنع له الشاي، ويختلفان على شيء لا تسميه الشخصيات مباشرة. عند الدقيقة الخامسة دخلت المرأة التي يبحث عنها، تحمل كيس دواء. شعر بحركة في بطنه قبل أن تتكلم. كأنها ستخرج من الشاشة وتجلس في المقعد الذي تركه بنعيسى.

قالت في الفيلم: «كنت أستطيع أن أرسلها مع أحد.»

أوقف المقطع.

ليس لأن الجملة تشبه ما قالته له؛ بل لأن الصوت الذي حاول استعادته يومين صار يأتي من خارج ذاكرته. أعاده من البداية، وتركه يستمر. وقفت قرب نافذة، ثم التفتت إلى الرجل، وفي حركة الرأس نفسها عرفها.

انتظر الشارة الأخيرة.

ظهرت أسماء الفريق على خلفية سوداء. تحت خانة التمثيل ثلاثة أسماء، بينها اسم امرأة واحدة:

سهام البركاني.

كتب الاسم.

حفظ رابط الفيلم وتوقيت المشهد. بحث عن وسيلة تواصل تربط الاسم بصاحبة الوجه.

اتصل بالرقم العام للجمعية الوارد في إعلان حديث. رد شاب لا يعرف الفيلم، ووعد بأن يرسل سؤاله إلى من أشرف على النشاط. سأله إدريس عن وسيلة تواصل مهنية معلنة مع الممثلة، ولم يطلب عنوان بيتها. قال الشاب إن الأمر يعود إليها، ثم أخذ اسمه ورقمه.

بعد العصر اتصلت امرأة قدمت نفسها بأنها كانت ضمن فريق الإنتاج. طلبت معرفة سبب بحثه.

«قابلتها في طنجة بشأن معاملة، وانقطع الاتصال بيننا. أريد الوصول إليها لأفهم ما حدث.»

«ما نوع المعاملة؟»

نظر إلى الشاشة، حيث توقف وجه سهام عند النافذة.

«مقتنى قديم. تحدثت إلّي باسم آخر.»

صمتت المرأة قليًلا. خشي أن تغلق الخط، لكنه رفض أن يضيف قصة عرض عمل أو تصوير جديد. سيكون سهًلا أن يجعل حاجته إليها فرصة تخاف خسارتها، وسهًلا أن يسمي الكذبة وسيلة ضرورية.

قالت: «ليس كل من يستخدم اسًما آخر محتًالا.»

«أعرف. لهذا أريد أن أسألها.»

«هل أنت من الشرطة؟»

«لا.»

أعطى اسمه كاملًا. طلبت أن يرسل الرابط الذي يقصده لتتأكد من الوجه، فأرسله. بعد دقائق كتبت أن المرأة هي سهام البركاني فعلًا، وأن رقم العمل القديم لم يعد يصل إليها أيضا. أضافت أنها لا تستطيع إعطاءه معلومات شخصية، لكنها ستمرر له رسالته إن وجدت وسيلة.

شكرها، وبعث جملة واحدة: «إدريس الذي قابِلته في طنجة يريد أن يفهم لماذا أرسِلت الرسالة ليلة الجمعة.»

قرأها بعد الإرسال. يستطيع أي شخص يعرف القصة أن يستنتج منها أشياء، لكنه تعمد ألّا يذكر الساعة أو كمال. وفي الوقت نفسه لم تكن جملة بريئة يمكن أن تحمل على معاملة لم تتم. لقد حرّك شيئًا، وسيضطر إلى انتظار ما يرد عليه.

قبل إغلاق المحل وصلته صورة بطاقة إشهارية قديمة لورشة تمثيل. قالت امرأة الإنتاج إن سهام كانت تضع عنوان مراسلات مهنيا في مارتيل على هذه البطاقة، وإن نشرها كان علنيا. لم تعد الورشة قائمة، ولا تعرف إن كانت سهام تستخدم المكان. أسفل البطاقة شارع ورقم عمارة، وبريد إلكتروني.

أرسل إلى البريد الرسالة نفسها. عادت إليه رسالة آلية تفيد بتعذر التسليم.

في المساء فتح دفتره عند أثر الخاتم. ظهر في الفيلم خاتم في يدها، لكنه لم يستطع الجزم بأن أثره هو الذي رآه. كان الدور لامرأة متزوجة، وربما ألبسها فريق التصوير خاتما ليوم واحد. شطب السؤال الذي بدأ يكتبه عن زوجها. سيضيع أيامًا إذا حوّل كل تفصيل في دور أدته إلى حياة عاشتها.

بقي عنوان مارتيل.

صباح الجمعة اتصل بمروان، وأخبره بأنه سيذهب إليها ويعود في اليوم نفسه. أعطاه اسم سهام ورابط الفيلم، وشرح ما يستطيع إثباته وما لا يستطيع. سأله المحامي إن كان ينوي مواجهة المرأة وحده، فقال إنه لا يعرف إن كانت موجودة أصلًا.

«إذا وجدت ما يخص القضية، احتفظ بأصله. لا تجعل بحثك قصة أخرى تحتاج إلى الدفاع عنها.»

سافر في سيارة أجرة كبيرة. بعد الخروج من طنجة حاول أن يرى الطريق خلفه، ثم كّف. المركبات تتبدل، ولا يستطيع أن يمنح نفسه عزلة لمجرد أنه فقد السيارة المألوفة. أراح ذراعه قرب النافذة، وراقب التلال الرطبة. لم يكن يغادر البلاد، ومع ذلك أحس بجواز السفر الغائب كما لو أنه ترك عضوا من جسده في درج رسمي.

وصل إلى العمارة بعد الظهر. في الطابق الأرضي محل مغلق، وبجانبه لافتة قديمة لقاعة تدريب. العنوان صحيح، لكن الطلاء تقشر حول الرقم، وعلى الزجاج ورقة تعرض المحل للكراء. سأل بقّالا قريبا عن الورشة، فأشار إلى الطابق الأول وقال إن امرأة كانت تستعمله، وإن الباب صار يغلق أكثر مما يفتح.

صعد وطرق.

فتحت له امرأة في نحو الستين، وعلى كتفها منشفة صغيرة. كانت تحمل ممسحة أرض في يدها، وأوقفتها عند العتبة حين ذكر اسم سهام.

«غادرت.»

«متى؟»

نظرت إليه نظرة أطول. «من أنت؟»

قدم اسمه وسبب مجيئه بالقدر نفسه الذي قاله لامرأة الإنتاج. عرض إطارا واضحا من الفيلم على هاتفه. أومأت بأنها المقصودة، وأوضحت أنها مالكة الشقة، وأن سهام استأجرتها للتدريب والإقامة، ثم توقفت عن الدروس. في الآونة الأخيرة كانت تأتي على فترات.

«أخذت أغراضها هذا الصباح. اتصلت بي أمس مساء تطلب تسليم المفاتيح مبكرا. قالت إن مكالمة جاءتها غيّرت ترتيبها. لا أستطيع أن أعطيك رقما؛ الرقم الذي عندي هو الذي لا تجيب عنه.»

وقف إدريس يسمع ماء يقطر من الممسحة إلى دلو خلفها. أخرج هاتفه وراجع وقت رسالته إلى امرأة الإنتاج: مساء أمس أيضا. بين الرسالة وتسليم المفاتيح ليلة واحدة. قد تكون المكالمة بشأن أمر آخر، لكنه هو من طلب إيصال خبر البحث عنها. ربما لم يتأخر عن سهام؛ ربما نبّهها إلى أن تغادر قبل وصوله. أعاد الهاتف إلى جيبه، وقد صار للطريق الذي أغلق قبل ساعات سبب يحتمل أن يكون فعله هو.

«هل قالت إلى أين؟»

«قالت عند أهلها. وربما قالت ذلك كي أنتهي من سؤالها عن الباقي من الكراء.»

طلب أن يترك اسمه ورقمه إن عادت، فمدّت له ظهر إيصال وقلما. كتب وهو واقف. من خلال الباب رأى جدارا علقت عليه أوراق تدريب، وستارة سوداء مطوية، وكرسيين بلا تنجيد. لا أثر لصورة جد ولا لحكاية أسرة تنتظر ساعة.

سأل عن الأشياء التي تركتها. شدت المرأة يدها على الممسحة.

«إن كانت لك أغراض، صفها أولا.»

«ليست لي. أعطتني أوراقًا تخص معاملة، وأريد أن أعرف إن كانت تركت شيئًا منها.»

«لا أدخل أحدًا إلى غرف الناس ليفتش.»

«معك حق.»

أعاد القلم. كان يستطيع ذكر القتيل، وأن يجعل خوف المرأة يفتح الباب، لكنه لا يعرف ما إذا كانت سهام هاربة من جريمة أو من الشخص الذي أرسلها إليه. وإخافة امرأة أخرى لن يصلح هذا النقص.

نزل درجتين قبل أن تناديه.

«أوراق؟ كل ما بقي من الأوراق جمعته هنا. غير ذلك لن تلمس شيئًا.»

وضعت كيسًا شفافًا عند الباب. قصاصات مطبوعة، وعلب فارغة، وأوراق عليها حوار مسرحي. قالت إن سهام سلمتها المفاتيح وأذنت لها بالتخلص مما بقي، وإنها كانت على وشك إنزال الكيس. جلست المرأة على الكرسي القريب، وأشارت إليه أن يفحص الأوراق عند العتبة، أمامها.

جثا إدريس على ركبته، وفرز ما سمحت به فقط. صفحة من مشهد تتجادل فيه امرأتان، وإيصال شراء لا يظهر فيه اسم، ونصف ملصق. على ورقة بيضاء كانت كلمة «زهور» مكتوبة مرتين، ثم مشطوبة. توقف إصبعه فوقها. بقية الصفحة مليئة بأسماء أخرى تصلح لتدريب أو لعبة، فلم يستطع أن يجعل الكلمة وحدها حجة.

تحت الورق ظهرت صفحة مطبوعة من موقع رحلات بحرية. اسم ميناء طنجة المتوسط، والجزيرة الخضراء، وأعمدة أوقات. بعض الحروف انقطع عند الحافة بسبب الطباعة. في أعلى الصفحة أيام

متتابعة، وحول يوم الأحد الخامس والعشرين دائرة بقلم أزرق. خط صغير يصل الدائرة بإحدى الرحلات، لكنه يتوقف قبلها.

طلب تصوير الورقة. وافقت المرأة، ثم قالت إنه يستطيع أخذها إذا أراد؛ لا حاجة لها بجدول قديم. صّورها أوّلا في موضعها، وكتب على غلاف ورقي المكان واليوم واسم من سمحت له بأخذها. لم يعد يستطيع ادعاء أنه يحفظ أثرا لم تمسه يد؛ الكيس مّر بيدي صاحبته وبيدي المالكة وبيديه. كل ما يمكنه فعله أن يحتفظ بطريق وصوله إليه واضحا.

«هل ذكرت الأحد؟»

«قالت إنها ستسافر. لم أسألها في أي يوم. أنا سألتها متى ستؤدي.»

شكرها، وترك رقمه مرة أخرى على الإيصال، هذه المرة بخط أوضح. عند الباب سألته إن كان وجوده سيجلب لها مشكلة. قال إنه لا يعرف ما الذي ستحتاج إليه الشرطة إن وصلت إلى سهام، وإن الأفضل أن تحتفظ برسائل الكراء ولا تمسحها. نظرت إليه حتى فرغ، ثم أغلقت الباب ببطء.

في الشارع جلس على حافة منخفضة، وفتح موقع الرحلات على هاتفه ليتحقق من أن الورقة تخص خطا قائما في ذلك اليوم. كانت الرحلات تتغير بحسب الشركة والطقس، والصفحة المطبوعة لا تحمل حجزا أو اسم مسافر. هناك دائرة حول يوم؛ قد تكون خطة ُألغيت كما ُألغي سفر كمال، وقد تكون آخر ما تركته امرأة تريد الابتعاد.

هذه المرة احتفظ بالفرق.

اتصل بالرقم الذي نسبته امرأة الإنتاج إلى سهام. غير متاح. كتب رسالة باسمه، ثم توقف قبل إرسالها. رسالته الأولى قد وصلت إليها عبر

شخص آخر، ولا يعرفَ من يستطيع رؤية الهاتف الآن. أعاد الجهاز إلى جيبه، وقرأ الورقة مرة أخرى.

الأحد بعد يومين.

في طنجة كان جواز سفره ينتظر في درج لا يملك فتحه. أما هي فربما تستطيع أن تعبر، ويصير البحر بين سؤال وجواب.

طوى الورقة على خطوطها القديمة، ونهض يبحث عن سيارة تعيده إلى المدينة قبل المساء.

الفصل الحادي عشر

الميناء

الأحد، 25 يناير

جاءه الرد حين كاد يطوي ورقة الرحلات للمرة الأخيرة.

«إن كنت تريد الكلام، تعال وحدك. سأراك قبل أن تراني.»

قرأ إدريس الرسالة من الرقم الذي ظهر مساء السبت في هاتفه الجديد. كانت صاحبته قد اكتفت يومها بسؤالين: ماذا يريد منها، وهل أعطى اسمها للشرطة؟ أجاب بأنه يريد معرفة من أرسلها إليه، وأن محاميه يعرف اسمها. وبعد ذلك انقطع الكلام حتى هذا الصباح.

كتب: «أنا قرب موقف السيارات، خارج محطة المسافرين. لن أدخل.»

أعاد الهاتف إلى جيبه، ورفع رأسه إلى الزجاج الذي تعكس فيه السماء لونًا أشد زرقة مما تحمله. كانت حقائب تتدحرج وراء أصحابها، وسيارة تتوقف لُتنزل امرأة مع طفلين، ثم تمضي قبل أن تستقيم يد المرأة على مقبض الحقيبة. حمل أحد الصغيرين كيسًا أكبر منه، وغضب حين حاولت أمه أخذه.

اختار إدريس موضعًا يمكن رؤيته من الطريق. توقف قبل نقطة المراقبة المؤدية إلى الأرصفة؛ جوازه محجوز. ومع ذلك كان المكان يجعل المنع محسوسًا على نحو جديد. عند البيت يستطيع أن ينسى البحر ساعات. هنا لكل حقيبة طريق يستطيع صاحبها أن يكمله، وعليه هو أن يتوقف قبل أن يبدأ.

مّرت عشر دقائق. خرج الهاتف من جيبه مرتين، وعاد دون رسالة.

في السبت أرسل إلى الرقم المجهول صورة ورقة الرحلات، بعد أن قّص منها ما يخص مالكة الشقة. كتب أنه وصل إلى مارتيل بعد رحيلها، وأنه علم بموعد الأحد من ورقة تركتها. كان في كشف مصدره مخاطرة: تستطيع تغيير خطتها. لكن البديل أن ينتظر يوًما في مكان واسع، يبحث بين المسافرين عن وجه، ويعامل ذلك بوصفه خطة.

اهتز الهاتف.

«لا تلتفت الآن. هل الرجل عند السيارة البيضاء معك؟»

نظر إدريس إلى انعكاس الزجاج بدل أن يدير رأسه. لم يستطع تمييز الرجل الذي تعنيه.

«لا أعرفه. وقد يكون هناك من يراقبني. لا أستطيع أن أعدك بأنني بلا مراقبة.»

تأخر الرد حتى ظن أنها غادرت.

«إذن لماذا جئت؟»

كتب: «لأنك طلبت أن آتي. ولأن هناك رجًلا مات.»

قرأ الجملة قبل إرسالها. قد تستعمل هي الموت سببًا للهرب كما يستعمله هو سببًا للكلام. ضغط الزر، ثم وضع الهاتف فوق الحافة الحجرية إلى جواره، وابتعد عنه نصف خطوة.

قال صوت خلفه: «لا تقل اسمي بصوت عالٍ.»

التفت ببطء.

كانت ترتدي معطًفا رماديًا، وشعرها مجموع تحت وشاح خفيف. لا شيء في ملامحها تغير كثيًرا، لكن وجهها الذي وجده في الفيلم بدا أكبر الآن. في يدها حقيبة صغيرة، وعلى كتفها حقيبة أخرى

شّدت الحزام حتى ترك خطًا في القماش. رأى أثر الخاتم مرة ثانية، أبهت من قبل، ولم يبحث عن تفسيره.

«أين تريدين أن نجلس؟»

«لن أجلس طويلًا.»

اختارت طرف مقعد مكشوف قريبًا من الطريق، وجلست والحقيبة بين قدميها. أبقى مسافة تكفي لشخص ثالث. في لقائهما الأول كان ينتظر أن تخطئ في اسم أو تاريخ. الآن يخشى أن تصيب في شيء لا يريد سماعه.

قالت: «المرأة التي كلمَتها لا علاقة لها بأي شيء.»

«لم أقل إن لها علاقة.»

«اتصلت بي الخميس. كانت تظن أنك تريد مالك. قالت إنك سألت عن اسم آخر. بعد المكالمة لم أستطع البقاء في الشقة.»

عاد إليه صوت الماء الذي كان يقطر من ممسحة المالكة. لم يكن وحده سبب الرحيل، ربما، لكنه دخل في أسبابه. سألها إن كان الشخص الذي أرسلها يعرف أنه يبحث عنها.

«اتصل بعد ذلك.»

«بعد مكالمة المرأة؟»

«في الليل. قال إن علّي أن أصمت حتى تهدأ الأمور. لم أقل له إنك تبحث عني.»

سألها عن اسمٍ الرجل.

«لم يعطني اسمًا يصلح لشيء. اسم أول، يتغير بحسب من يتكلم معه. أنا لا أعرف إن كان اسمه فعلًا.»

«والرقم الذي اتصل به؟»

ضّمت يدها إلى الحقيبة.

«قبل ذلك، ما الذي ستفعله بي؟»

كان السؤال قريبًا من سؤال الحارس، وإن اختلفت طريقته. هؤلاء جميعًا يريدون أن يعرفوا أين سيتركونهم حين يمضي.

«لن أمنعك من المغادرة. ولن أعدك بإخفاء ما أعرفه إذا سُئلت عنه. أريد أن أفهم ما فعلِته، وما كنِت تعرفينه.»

«هذه ليست صفقة جيدة.»

«ليس عندي صفقة أخرى صادقة.»

نظرت إلى الساعة في هاتفها. خرج رجل من سيارة أجرة وهو يحاول إغلاق حقيبة انفلت سحابها. انحنت سهام لترفع طرف حزامها عن الأرض، واستغلت الحركة كي تنظر وراء إدريس.

«قالوا إن الأمر يخص ساعة»، قالت. «شيء أخذته أسرة غنية من أسرة أخرى. أنت تستعيدها، وأنا أجعلك تسمع الحكاية. هكذا قيل لي.»

«كان يمكنك أن تحكيها باسمك.»

«لم يكن اسمي جزءًا من المطلوب.»

سكتت، ثم أضافت وهي تنظر إلى الحقيبة: «عرفت أنني أكذب. لا تنتظر مني أن أقول غير ذلك. لكنني لم أعرف أن هناك رجلا سيموت.»

«متى اتصلوا بك أول مرة؟»

«آخر ديسمبر. عرف أنني أمّثل، وعرف مشكلة قديمة وقعت فيها.»

«هددك؟»

«ذّكرني بها. بصوت مثل صوتك الآن.»

«قابلته في تطوان. وعدني بأجر جيد، وسّلمني الصور وهاتف العمل. أخذ نسخة بطاقتي ليعّد العقد.»

«والعقد؟»

«كلما سألت عنه طلب مني شيًئا آخر.»

«وهذا هو الذي دّربك على الكلام؟»

«لا. أخذني إلى شخص آخر.»

كان إدريس يمسك الدفتر داخل جيبه. أخرجه هذه المرة ووضعه فوق ركبته.

«أريد أن تفرقي بينهما كلما تكلمِت. الرجل الذي اتصل، والرجل الآخر.»

«أوصلني إلى سيارة. جلس في الأمام، والآخر في الخلف. كان المصباح مطفأ أكثر الوقت.»

«وماذا فعل الآخر؟»

«أعطاني الأوراق واستمع إلّي. كلما اختصرت أعادني إلى البداية.»

«كان يقول: لا تقولي أخذوا البيت. قولي كيف انتقل، وبأي أوراق. يتضايق إذا اختصرت.»

تذكر إدريس استقامة اللغة في فمها حين روت النزاع، وترددها عند الغرفة التي الُتقطت فيها الصورة. سألها إن كان أعطاها قصة جدتها أيضا.

«اسم الزوجةُ أضيف إلى الأوراق. كنت أنساه. عبد السلام أسهل، لأن الاسم تحت صورته. زهور لم تكن مكتوبة على الصورة.»

قالت ذلك دون أن تعرف أنه رأى الاسم مشطوًبا في ورقة التدريب. أشار إلى الصورة القديمة داخل الملف الذي يحمله، فسحبت نظرها

منها.

«لا أحد فيهما من أسرتي.»

«هل قابِلت صاحبة البيت؟»

«لا.»

«ويوسف الطاهري؟»

ترددت. أبقى السؤال كما هو، ولم يضف أنها قالت سابقًا إنها تعرفه بوصفه مصدر الصور.

«لم أقابله. الرجل الذي اتصل بي قال إن الصور جاءت عن طريقه، وأعطاني ما ينبغي أن أقول إذا سألت. حين سألت فعلًا، اتصلت به ليعطيني جوابًا.»

«والرجل في السيارة، ماذا يعرف عني؟»

«أكثر مما كنت أعرف أنا. قال إن المال وحده لا يقنعك. يجب أن تعرف أن صاحب الشيء أخذ من غيره قبل أن تأخذ منه.»

توقف قلم إدريس لحظة.

«قالها هكذا؟»

«قال: سيصدقك إن قِلت إنهم سرقوا أولًا. ثم قال ألا أستعمل كلمة سرقة كثيرًا. أنت ستصل إليها بنفسك.»

«كيف كان صوته؟»

«هادئًا. إذا أخطأت يشرح بطريقة أخرى. وحين أراد أن يريني الورقة أشعل مصباحًا صغيرًا.»

«رأيت يده؟»

«جانب إصبعه الوسطى، هنا. شيء أخضر. حكّه بإبهامه وهو يسمعني.»

«حبر؟»

«بدا لي حبرًا. ربما شيء آخر. لم أفحص يده.»

كتب وصفها دون أن يحّول اللون إلى اسم. كان عنده أثر أخضر آخر، في مكان لم يخبرها عنه، لكنه أبقى يده فوق الصفحة حتى انتهت من الكلام. لونان متشابهان لا يثبتان أنهما الشيء نفسه، وها هو عقله يطلب مرة أخرى طريقًا قصيرًا بين واقعتين.

«هل رأيت وجهه بما يكفي لتتعرفي إليه؟»

«ربما إذا رأيته. لا أستطيع أن أرسمه لك.»

«وهل تعرفين صوته إذا سمعِته؟»

رفعت وجهها إليه هذه المرة.

«احتفظت بشيء منه.»

انتظر أن تكمل، لكنها نظرت إلى الوقت من جديد، وأدخلت الهاتف في الحقيبة.

«ليس الآن.»

مّرت بينهما عائلة تبحث عن السيارة التي أحضرتها. انتظر حتى ابتعدت، ثم فتح في هاتفه صورة الرسالة التي نقل نصها إلى دفتره بعد ليلة الجريمة. لم يعرض صورة المكتبة ولا الصندوق.

«هذه وصلتني من الرقم الذي كِنت تستعملينه. الثالثة والعشرون وست وأربعون دقيقة.»

قَرأت: «شكرًا على حضورك في الموعد».

ضغطت شفتيها. «لم أكتبها.»

«من كان معه الهاتف؟»

«الرجل الذي اتصل بي أول مرة. أعطيته الهاتف ظهر الجمعة. قال إن دوري انتهى، وإنه سيتولى التسليم. كانت شريحة العمل فيه. هاتفي هذا لم أعطه لأحد.»

سأل عن مكالمتها صباح الجمعة، فوصفت سؤالها عن المكان الذي ستنتظر فيه خبره، ووصفت اعتراضه على التسليم المستعجل. هذا حديث جرى بينهما؛ تذكرته كما تذكره. لا يجعل بقية كلامها صحيحًا، لكنه يحدد آخر وقت يعرف فيه بنفسه أنها كانت تستعمل الرقم.

«هل طلبت استرجاع الهاتف؟»

«طلبت بقية أجري.»

«وهل دفع؟»

هزت رأسها. «قال بعد أن يهدأ الأمر.»

«دعيني أدّون رقم الاتصال الأول. من سجلك، إذا كنت موافقة.»

أخرجت الهاتف، وفتحت قائمة المكالمات بنفسها. طال البحث حتى ظهر سجلٌ قديم تحت اسم حفظته: «العمل». فتحت التفاصيل، فبان الرقم كاملًا، وتواريخ اتصالات متباعدة من أواخر ديسمبر إلى الخميس الماضي. وضعته أمامه دون أن تتركه من يدها.

نقله رقمًا رقمًا، وأعاده عليها لتتأكد. طلب أن ترسل لقطةُ تظهره مع التواريخ، وقال إن اللقطة لا تغني لاحقًا عن فحص الهاتف نفسه. ضاقت عيناها عند كلمة «لاحقًا».

«قلت لك إنني لن أذهب إلى الشرطة.»

«قلت ذلك. وأنا لم أقل إن الورقة التي أكتبها الآن ستكفي بدلًا منك.»

أعادت الهاتف إلى حقيبتها.

نهضت.

«علّي أن أمضي.»

وقف هو أيضا، ثم ابتعد عن الطريق بينها وبين حقائبها. حملت الصغيرة، وشّدت الحزام على كتفها. لاحظ أن يده اليمنى تحركت نحوها، فأعادها إلى جانبه قبل أن تصل.

قالت: «أنت تستطيع أن توقفني بمكالمة.»

لم يجب بسرعة. كان يستطيع أن يبلغ عما سمعه، ويجعل خوفها من الجهات الرسمية يقوم بما يرفض أن تقوم به يده. لم يكن الامتناع عن لمسها وحده كافيا كي يسمي ما يفعله اختيارا لها.

«ما سمعته يتعلق بقتل رجل. لن أدفنه. لكنني لا أملك أن أجعلك تتكلمين بالقوة، ولا أن أعدك بما سيقرره غيري.»

«إذن لا تقل إنك تساعدني.»

قال: «حسنا.»

استدارت ومشت. تابعها إلى طرف الساحة، حيث اختلطت بالواصلين. كان يستطيع أن يناديها باسمها، وأن يجعل الاسم يوقف الوجوه حولها. تركها تبتعد.

عاد إلى المقعد، ووضع الدفتر في الملف. الرقم عنده، والوصف عنده، أما الصوت الذي ذكرْته فاختفى معها. أدرك أنه استعمل دقائق كثيرة ليكون دقيقا، ثم خرج بأقل مما يحتاج إليه. كان يريد التسجيل.

اتصل بمروان. أخبره باللقاء، وبالرقم، وبقول سهام إنها سّلمت هاتف العمل ظهر الجمعة. طلب المحامي أن يرسل الملاحظات، وأن يميز

في كل سطر بين ما رآه وما روته. حين قال إن معها تسجيلًا لم تعطه له، سأله مروان إن كان يعرف مكانها الآن.

نظر إلى الطريق الذي سلكته.

«لا.»

انتهت المكالمة. انتظر قليلًا قبل أن ينهض، فاهتز الهاتف.

ملف صوتي، وتحته رسالة:

«لن أركب اليوم. سأذهب عند خالتي في تطوان. لا تسأل المرأة من الفيلم عني مرة أخرى.»

وصلت بعدها لقطة سجل الاتصالات، ثم جملة أخيرة:

«سجلته من هاتفي في السيارة. لم يكن يعرف. الأصل عندي.»

وصل سماعتيه وشغّل المقطع.

احتكاك قماش، وكلمة قطعتها ضوضاء من الخارج. سمع صوت سهام تذكر اسم الحسوني، ثم صوت رجل يصحح لها ترتيب جملة. لم يستطع أن يعرف من الصوت وحده إن كان مسنا أو متعبا، ولا إن كان الهدوء طبعا فيه أم عناية بمن يسمعه.

قال الرجل: «لا تستعجلي في الإجابة. اتركيه يسأل.»

جاء صوتها: «وإذا طلب أن يقابلها؟»

توقف الرجل لحظة.

«قولي إنها مريضة. لا تضيفي شيئًا من عندك. هو يذهب إلى التفاصيل حين يريد أن يطمئن.»

انتهى المقطع بعد نحو أربعين ثانية.

لم يسمع اسما. سمع شخصا يتحدث عن عاداته كأنه يشرح لصاحب متجر كيف يعمل قفل اشتراه منه.

حفظ الملف كما وصله، وأرسله إلى مروان مع الرسائل المحيطة به. حين رفع رأسه كانت سهام قد اختارت طريقا لا يراه، وكانت العّبارات تواصل عملها خلف الزجاج. كتب يسألها عن عنوان خالتها، ثم قرأ السؤال ومسحه.

أرسل: «وصل. احتفظي بالأصل».

طوى ورقة الرحلات، ونهض ليعود من الطريق الذي جاء منه.

الفصل الثاني عشر

ما لم آخذه

26 و27 يناير

في الصورة التي حملها إدريس كان للمرأة بيت خلفها. في الدرادب، احتاج إلى أن يسأل عن اسم صاحب الدكان الذي تقع غرفتها فوقه.

أعاده الرجل الذي أصلح باب بيت مرشان قديًما إلى جارة سابقة، وأعادته الجارة إلى امرأة تعرف ابنة أخ لالة زهور. استغرق ذلك معظم الاثنين. في كل مرة شرح أنه يبحث في مصير ساعة خرجت من البيت، وفي كل مرة اضطر إلى احتمال النظرة التي تأتي بعد السؤال عن مقتنى قديم عند امرأة فقدت ممتلكاتها. لم يعد يستعجل تصحيح ما يظنه الناس به؛ بعض ظنهم قريب مما فعله فعلًا.

في الاتصال الأول طلبت ابنة الأخ رقمه وسبب الزيارة، وقالت إنها ستسأل خالتها. جاءت الموافقة صباح الثلاثاء، محددة بوقت، ومعها تنبيه بسيط: لا يَعدها بشيء قبل أن يعرف إن كان يستطيع فعله.

وصل قبل الموعد بدقائق. كان الدرج ضيِّقا، وطلاؤه أخضر إلى نصف الجدار. في البسطة صندوق أحذية قديم حُوّل إلى مكان للمشابك، وعلى حبل قصير جوارب صغيرة لا تخص المرأة التي يبحث عنها. توقف عند الباب الذي وصفوه، وسمع حركة مزلاج، ثم صوت امرأة تسأله عن اسمه.

قاله كاملًا.

فتحت له ابنة الأخ. أدخلته إلى غرفة مطلة على الشارع، فيها سرير مغطى بنسيج ثقيل، وخزانة قصيرة، وكرسيان مختلفان. جلست لالة زهور قرب النافذة، ترفع رأسها قليلًا كي ترى الداخل. كانت أكبر من المرأة التي حاول استخراج وجهها من الصورة، لكن طريقة إمالة الكتف جاءت كما هي، كأن السنوات غيّرت ما حول الحركة وتركتها.

أشار إلى كرسي، فطلبت أن يقّربه حتى لا تضطر إلى رفع صوتها. فعل. وضعت ابنة الأخ كأس ماء أمامه، وأبقت باب الغرفة مفتوحا قبل أن تنتقل إلى المطبخ القريب.

قالت لالة زهور: «قالت إن عندك خبرًا عن الساعة.»

«عندي صور، وأسئلة عنها.»

«الصور رأيتها كثيرًا. الخبر هو أين تكون.»

أخرج الصورة القديمة ووضعها أمامها، في غلافها الشفاف. نظرت إليها دون أن تمد يدها، ثم طلبت منه إخراجها من الغلاف؛ اللمعان يغطي وجه الرجل.

ناولها الورقة.

«هذا عبد السلام.»

رفعت إصبعها إلى جزء عند حافة الصورة، حيث ظهر طرف مقعد لم ينتبه إليه من قبل.

«وهذا الكرسي كان له ظهر مكسور. وضعناه في الجهة التي لا تظهر. كان يرفض أن نصوره جالسًا على غيره.»

ابتسمت للصورة ابتسامة قصيرة، ثم قّربتها من عينيها.

«وأنا كنت أظن أن يده تحجب الساعة. قلت له أن يبعدها، فرفض. كان يضعها هناك حتى لا أنسى إعادتها إلى جيب سترته.»

توقف إدريس عند الضمير. كانت المرأة الواقفة خلفه هي نفسها التي تجلس أمامه، لا الاسم الذي تعثرت فيه سهام فقط. حملت الصورة إلى الضوء، وانتظرت أن يسأل عما جاء من أجله.

«قابلت امرأة قالت إنها حفيدتك. تعيش في تطوان، أو عاشت فيها. اسمها ليلى.»

أعادت الصورة إلى حضنها.

«لا حفيدة لي في تطوان.»

قال لها إن المرأة قد تكون استعملت اسًما آخر، وعرض الصورة الثابتة من الفيلم.

تأملتها لالة زهور، ثم نادت ابنة أخيها. جاءت وجففت يديها في المنشفة، ونظرت إلى الشاشة. قالت إنها لا تعرفها. أعادت لالة زهور الهاتف إليه، وقالت:

«هذه ليست من أهلي. وَمن أرسلها؟»

«هذا ما أحاول معرفته.»

«وما الذي طلبته منك باسمي؟»

«أن آخذها من كمال الطاهري.»

تغير وجه ابنة الأخ. أما لالة زهور فاحتفظت بالصورة فوق ركبتيها.

«بأي حق؟»

«أحضرت أوراًقا عن الأسرة. وصدقت منها أكثر مما كان ينبغي.»

«الأوراق لا تجعلها مني.»

«الآن عرفت»، قال.

سألته ابنة الأخ: «أنت محامٍ؟ من الشرطة؟»

«لا. أراجع المخاطر والملفات.»

قالت لالة زهور: «أنت لم تأت لتراجع حسابات.»

«لا.»

انقطع الحوار عند هذه الإجابة. في الشارع نادى بائعٌ على شيء لم يفهم اسمه، وتابع النداء حتى ابتعد. أراد إدريس أن يُخرج صورة الساعة الحديثة ليعيد الحديث إلى ما يعرف كيف يسأل عنه، لكن المرأة سبقته:

«هل أخذتها؟»

رفع عينيه إليها.

«لم آخذها من بيت كمال.»

كانت جملة صحيحة، بالصيغة التي أتقنها حتى صارت تظهر قبل أن يختارها. بعد أن نطقها أحس بمقدار ما أخفاه داخل حرف الجر. الساعة موجودة، وقد حملها بيديه، والمرأة التي لها الحق الأول في السؤال تنتظر جوابًا لا ينبغي أن يحتاج إلى تحليل لغوي.

قالت ابنة الأخ: «سألناك سؤالًا بسيطًا.»

«أعرف. وهناك أشياء تتعلق بتحقيق في قتل كمال لا أستطيع أن أفصلها عن الجواب. أستطيع أن أقول إنني رأيت ساعة تطابق الصور، وإنني أحاول التأكد من طريق وصولها إليه.»

«إذن هي موجودة»، قالت لالة زهور.

«نعم.»

«رنينها يعمل؟»

«لم أجربه.»

«كان يشغله في الظلام ويضحك. كنت أرفض أن أضيء المصباح كلما أراد معرفة الوقت.»

«كان يستطيع أن يسألني. لكنه أحب أن تجيبه الساعة.»

أخرج إحدى الصور الحديثة. عرفتها بسرعة، لكنه سأل عّما جعلها تتعرف إليها. أشارت إلى موضع السلسلة، وروت كيف أصلحه صائغ بعد أن علق جيب سترته بمقبض باب. طلبت منه تكبير الظهر. هناك خدش دقيق قرب الحافة، وتذكرت أنه وقع يوم نقلوا الخزانة. قامت ابنة الأخ وجلبت ملًفا من درج، وقالت إن ما بقي من الأوراق موجود هنا.

كان الملف متعًبا من كثرة الفتح. أغلفة شفافة فارغة، وصور مراسلات، وأسماء محامين، ونسخ تختلف جودتها. صارت الورقة التي فحصها إدريس عند ليلى قبل أسبوعين جزءا صغيًرا من حياة لم تدخل ملفه. امرأة تدفع ثمن نسخة، ثم تذهب بها إلى مكتب، ثم تعود لتضعها في المكان نفسه.

طلب الإذن بتدوين التواريخ. وافقت ابنة الأخ بشرط ألا يصور شيًئا قبل أن يبّين لماذا يحتاج إليه. قرأ اسم شركة كانت قد دخلت في انتقال البيت، وعرف صلتها بكمال من بحثه السابق. أعاد الورقة، وسأل عن الوثائق الأصلية التي ورد ذكرها في إحدى المراسلات.

قالت لالة زهور: «قالوا إنها سرقت.»

«من أين؟»

«من خزنة الموثق. حين احتجنا إليها، صارت مسروقة.»

قلبت ابنة الأخ ورقتين حتى وصلت إلى رسالة يشرح فيها المحامي القديم ما تعذر عليه الحصول عليه. تحت التاريخ ظهر اسم المكتب.

رشيد البقالي.

عرف إدريس الاسم.

رأى أرضا داكنة تلمع قرب حافة سجادة، ومصباحا أخضر فوق مكتب، وكتلة خزنة في الجدار الجانبي. وعاد إليه ثقلٍ حقيبة حملها ذات ليلة، ودفتر كان قد كتب فيه مبلغا ووضع تحته خطا. احتاج إلى أن ينظر إلى النافذة كي تستعيد الغرفة الحالية موضعها.

سألته ابنة الأخ إن كان يعرف الاسم.

«رأيت اسم المكتب من قبل.»

كانت السرقة في أكتوبر 2022.

وصل الخبر عن طريق بنعيسى: مبلغ نقدي كبير، خارج ما يُعلن عنه في حسابات المكتب، مرتبط بأعمال أضرت بأصحاب عقارات.

أرسل معه ما جعل إدريس يتحقق من جزء من الرواية. استغرق أياما في مقارنة أسماء وشركات ومطالبات قديمة، وانتهى إلى مبلغ رآه قابلا للأخذ، وإلى رجل يستطيع تحمل خسارته. لم يبحث يومها عمن سيُطلب منه تفسير اختفاء المال بعده.

تذكر الليلة بلا حاجة إلى استعادة طريقة الدخول. كان في الخزنة رزم نقدية، ودفتر حسابات صغير، وأختام في علبة، وجهاز تحكم أسود عليه شريط فاتح. الحرفان المكتوبان فوق الشريط لم يكونا واضحين من أول نظرة؛ قرب الهاتف ليرى، ثم ترك الجهاز حيث كان.

«ط. ك.»؛ الحرفان على الشريط الفاتح عادا إليه مع بقية الأشياء التي تركها. تذكر الصورة التي التقطها، وتذكر أنه التقط أخرى بعد أن أخذ المال. في الصورة الثانية ظل الدفتر والأختام والجهاز، وتغير موضع الرزم فقط.

لم يحمل أوراقًا. هذه واقعة يعرفها عن يديه، لا عن بقية الليلة. أما أن الوثائق لم تكن في أي مكان من المكتب، فلا يستطيع قوله. لم يفتش المكتب كله، ولم ير كل ما حدث قبله أو بعده. لكنه يتذكر رفوف الخزنة التي صورها، ولا يتذكر فيها الملف الذي يقولون إنه اختفى مع النقود.

بعد السرقة سافر إلى إسبانيا. كانت له إقامة تسمح بالغياب الطويل آنذاك، وعمل متقطع يستطيع إنجازه من بعيد. أوقف أسئلته عند التأكد من خروجه، ثم جعل البعد طريقة لاستعادة هدوئه. لم يقرأ كل ما نُشر عن الواقعة، ولم يطلب من بنعيسى أسماء من استُمع إليهم. أخذ من العالم ما يثبت أن العملية انتهت، وانصرف.

عادت ابنة الأخ إلى الكلام، فرفع رأسه.

«... والموظفة، لأنها كانت تعرف الرمز.»

«أي موظفة؟»

أخرجت نسخة أخرى، وقالت إن لالة زهور حصلت عليها لاحقًا بمساعدة من تابع القضية. كانت الورقة تتعلق بالسرقة التي استُعملت لتفسير غياب الأصول؛ أما ملكية البيت ففي ملف آخر. طلب إدريس أن يقرأ الصفحة كاملة قبل أن يفسر الاسم الذي ظهر فيها.

سلمى الإدريسي.

قالت ابنة الأخ إن الموظفة أُدينت، وإن العقوبة كانت موقوفة التنفيذ. خسرت عملها، وتحدث الناس عن مكافأة دخلت حسابها قبيل السرقة. المبلغ عشرون ألف درهم. في الأوراق التي أمامه وصف للتحويل، وأقوال عن معرفتها بالخزنة، واستنتاجات ربطت بعضها ببعض حتى صار لها شكل حكاية.

«هل قالت إنها أخذت المال؟»

«قالت إنها لم تأخذ شيئًا. لكنهم لم يصدقوها.»

هو صاحب السرقة، جالس على كرسي لا يتسع لركبتيه، يقرأ ما قيل في غيابه.

وضع القلم على الطاولة قبل أن يكسره بين أصابعه.

تذكر الصباح الذي عّد فيه المال. أربعمئة ألف درهم. صرف منه ما كان متفقًا عليه، وأعاد جزءا إلى أشخاص كانوا يطالبون بحقوقهم، واحتفظ بأجره. عرف أين ذهبت الرزم، وأقنع نفسه أن معرفة الطريق الذي سلكه المال تكفي لمعرفة نتيجة الفعل. في دفتره كانت الصفحة مرتبة؛ لم يكن فيها مكان فارغ ينتظر اسم سلمى.

قالت لالة زهور: «لا تقل لي إن تلك البنت أخذت أوراقنا.»

«لم أقل ذلك.»

«جاءتني مرة بعد الحكم. وقفت هنا عند الباب. قالت إنها لم تأخذ شيئًا، وإنها لا تعرف كيف تثبته. لم تدخل حتى عرضت عليها أن تجلس.»

سألها إن كانت قد صدقتها.

«لا أعرف ماذا جرى في المكتب. لكنني أعرف كيف يخرج الإنسان من عندهم، يحمل ورقة تشرح له أنه خسر، ولا تشرح له كيف يعود.»

أعادت ابنة الأخ ترتيب الأوراق، فتوقف عند صفحة تحمل لائحة مقتنيات. خزانة ذات بابين، وطاولة، وصندوق صور، وأشياء بأسماء عامة لا تميز قطعة عن أخرى. عند كلمة «ساعة» وضع شخص قديًما خطًا بالقلم.

سأل إن كانت هذه لائحة ما خرج من البيت.

«ما تذكرناه بعد الخروج»، قالت. «هناك فرق.»

قالت لالة زهور إنهم احتاجوا إلى وقت ليعرفوا ما ينقصهم. في الأيام الأولى بحثوا عن الأدوية والملابس، ثم افتقدوا ورقة، وبعد أسابيع صورة. الساعة تذكروها منذ البداية، لكنِ من سألهم عن الأشياء كتبها بين أشياء أخرى، وصارت بنًدا يصلح أن تجمع قيمته مع قيمة كرسي.

نظر إدريس إلى الاسم المفرد على الصفحة. جاء إلى الحكاية لأن بنًدا واحدا منها أعجبه: شيء صغير يمكن حمله وإعادته. لم يكن يستطيع أن يحمل البيت إلى المرأة، ولا أن يعيد لها سنوات المراجعات، فاختار الجزء الذي يلائم قدرته، وسمى اختياره مساعدة.

قالت ابنة الأخ: «لا نظن أن الساعة ستعيد البيت. نريد فقط ألا نخسرها هي أيضا.»

رفع عينيه إليها. كان الشيء الذي تطلبه الآن قريًبا منه على نحو لا تعرفه؛ أقل من ساعة تفصله عن سطح بيته. أما المسافة التي صنعها خوفه بين الغرفة والساعة فكانت أطول من الطريق كله.

طلب أن يصّور الصفحات المتصلة بالسرقة. سألت ابنة الأخ عّما سيفعله بها، فقال إنه سيعرضها على محاميه، ويحاول الوصول إلى سلمى بموافقتها. ذّكرته بأن محاميا سبق أن رأى الأوراق، وآخر بعده، وأن الصور لا تعيد شيئا وحدها.

«أعرف»، قال.

سكت بعدها.

سمحت له بتصوير الصفحات التي اختارتها، وأعادت الأصول المصّورة إلى الملف. احتفظت برقم سلمى، وقالت إنها تستطيع أن تتصل بها، وتترك لها أن تقرر إن كانت تريد سماعه. أعطاها بطاقته ورقم مروان أيضا، كي تستطيع سلمى أن تسأل شخًصا آخر عن هويته.

حين انتهى، رفعت لالة زهور الصورة القديمة من حضنها.

«من أعطاهم هذه؟»

كان سؤالًا لم يطرحه إدريس بما يكفي. أخبرها أنه لا يعرف الطريق كله. قالت إن نسخا منها خرجت مع ملف البيت، وإن معرفة الوجه لا تعني معرفة الأسرة. أعادها إلى الغلاف، وترك لها نسخة كان قد طبعها. هذه المرة أخذتها.

قامت ابنة الأخ لترافقه إلى الباب. عند العتبة طلبت منه ألّا يذكر الساعة أمام خالتها مرة أخرى إلا إذا حمل خبرًا يستطيع الوقوف وراءه. أومأ، لكنه سمع صوت لالة زهور من الغرفة:

«أعرف أنك تخفي شيئًا يا ولدي. إذا كان الذي تخفيه يخصنا، فلا تطل.»

وقف لحظة والباب مفتوح. كان يستطيع أن يعود ويقول إن الساعة تحت بلاطة في سطح بيته، وإن الصورة التي قد تساعد سلمى في علبة بجوارها. كان يستطيع أيضا أن يبدأ من 2022، فتتغير نظرة المرأتين إليه قبل أن يصل إلى آخر الجملة.

قال إنه سيتصل بعد أن يتكلم مع محاميه، ونزل.

جلس على أول مقعد في الشارع، والملف مفتوح عند اسم رشيد. هذه المرّة كان يعرف اسم من أخذ النقود دون حاجة إلى شاهد.

أراد الاتصال ببنعيسى. ضغط الاسم، ثم أوقف المكالمة قبل أن تبدأ. أسئلة كثيرة يمكنه أن يصرخ بها: هل كنت تعرف؟ متى عرفت؟ لماذا سكّت؟ وكان السؤال الذي يخصه هو أقل صخبا وأشد إلحاحا: لماذا لم تسأل أنت بعد أن أخذت المال؟

كتب إلى مروان طالبًا لقاءً. لم يسّمه عاجلًا حتى لا يُجبر نفسه على قول ما زال يحاول تأجيله، ثم مسح الرسالة وكتبها من جديد: «أحتاج أن أراك اليوم. الأمر يتصل بسرقة قديمة.»

أرسلها.

في الطريق إلى بيته أخرج دفتره ليضيف اسم سلمى. وجد صفحة 2022 في الفهرس الذي يحمله معه، وإلى جوارها علامة صغيرة كان يستعملها للعملية المنتهية. احتاج إلى ضغط القلم أكثر من مرة كي يمحو العلامة.

بقي أثرها محفورًا في الورق.

الفصل الثالث عشر

جرس لم يُفتح له

28 و29 يناير

ترك مروان الورقة على المكتب، وأبعد عنها كوب الماء.

«كنت أنت؟»

أومأ إدريس.

كانا قد عادا إلى الحديث الذي بدأ مساء أمس، وانقطع لأن إدريس ظل يجيب عن السؤال الذي يليه قبل أن يجيب عن السؤال المطروح. المكتب نفسه، والكرسي نفسه، والملف الأزرق بينهما؛ لكنه احتاج إلى ليلة أخرى كي يقول جملة لا تحتاج إلى تصحيح.

«أخذت المال من خزنة رشيد البقالي في أكتوبر 2022. لم آخذ ملفًا ولا وثائق.»

انتظر مروان قليلًا، ثم سأله عمّا يستطيع إثباته.

«صور التقطتها قبل الأخذ وبعده.»

«أين هي؟»

«عندي نسخة محفوظة.»

«هل أحضرتها؟»

هز رأسه.

أعاد المحامي القلم إلى الطاولة. سأل عن تاريخ علمه بإدانة سلمى. أجاب بأنه علم أمس بما جاء في الأوراق التي اطلع عليها عند لالة زهور.

«وقبل أمس؟»

«لم أكن أعرف.»

«هل بحثت؟»

نظر إدريس إلى طرف الملف. «لا.»

كتب مروان الجواب كما قاله، وأخبره أن صوًرا قديمة تحتاج إلى فحص وتوثيق، وأن الذاكرة لا تحل محلها، وأن ما قد تدل عليه بشأن وثائق الخزنة مسألة مختلفة عن اعترافه بأخذ المال. ثم أعاد إليه الورقة التي تحمل اسم سلمى.

«أحضر صور العملية كاملة، واكتب ما أخذته وما تركته. يمكن أن نبدأ في عرض ما عندك بالطريق المناسب. لكنني لن أقول إنك تملك دلًيلا وأنت تؤجل تسليمه إلّي.»

«أريد أن أعرف ما الذي جرى لكمال أوًلا.»

«هذا ما تريده أنت. سلمى تنتظر منذ سنوات.»

تراجع إدريس في الكرسي. كان يستطيع أن يشرح أن اعترافًا قديًما سيجعل نظرية اللص القاتل أسهل، وأنه يحتاج إلى إضعافها قبل أن يضيف إليها ما يقوي صورتها. سمع التفسير في رأسه مرتبا، وسمع معه مقدار ما يجعل حياة المرأة موعًدا تابًعا لخوفه.

«لن أطلب منها أن تنتظر»، قال.

«أنت تقرر ذلك بالفعل ما دمت تحجب ما عندك.»

طال الصمت. جاء صوت من الردهة، فسأل مروان من خلف الباب أن ينتظر صاحب الموعد دقائق. ثم عاد إلى إدريس.

«إذا قابلتها، لا تقدم لها وعًدا باسم القانون، ولا باسمي. قل لها ما تستطيع قوله، واترك لها أن تختار إن كانت تريد سماعك.»

أغلق حقيبته على الأوراق وخرج.

جاءت موافقة سلمى على اللقاء عن طريق ابنة أخ لالة زهور. طلبت أن يكون في مكان عام، وألا يصورها أو يسجل حديثها، وأن تعرف قبل وصوله إن كان يعمل لحساب رشيد. أجاب بالنفي، وقبل الشروط. أرسلت إليه اسم مقهى قرب المكان الذي تعمل فيه، ووقتًا لا يتجاوز نصف ساعة.

وصل في الثانية عشرة وخمس دقائق، قبل موعدهما بعشر دقائق. على الطاولة المجاورة رجلان يقارنان أرقامًا في دفتر، وفي التلفاز مباراة قديمة بلا صوت. اختار مقعدًا جانبيًا، ووضع الهاتف أمامه. حين جاءت، عرّف بنفسه ثم أطفأ الجهاز ووضعه في جيبه.

كانت تحمل ملفًا رفيعًا وكيس طعام صغيرًا. علقت الكيس بظهر الكرسي، واحتفظت بالملف في حضنها. بدت أصغر مما جعلتها الورقة في ذهنه؛ الأوراق لا تذكر كيف يرفع الشخص شعره عن وجهه حين يجلس، ولا كيف ينظر إلى باب المقهى قبل أن يسأل سؤالًا.

«ما علاقتك بالقضية؟»

«استمعت إلّي الشرطة في مقتل كمال. أراجع المعلومات التي قادتني إلى بيته.»

«دخلت البيت؟»

«هناك أمور أراجعها مع محامّي قبل أن أقدمها كاملة. لن أطلب منك أن تجيبي عن كل شيء وأنا لا أفعل.»

«لكن جئت تسأل.»

«نعم.»

وضعت الملف على الطاولة. «خالتنا زهور قالت إن عندك شيئًا جديدا عن المكتب.»

لم تكن قريبة لالة زهور، لكنه فهم من طريقة قولها «خالتنا» أن الكلمة صارت صلة أقوى من النسب الذي ادعته سهام. أخبرها بأنه راجع أوراقًا تتصل بسرقة 2022، وأن لديه سببًا قويا للاعتقاد بأن الرواية التي اُتهمت بها لا تصف ما وقع.

نظرت إليه دون أن تتحرك.

«أي سبب؟»

في هذا الموضع تنتهي الجمل التي تحتمل أكثر من حقيقة. يستطيع أن يقول إنه يعرف من أخذ المال، فتسأله عن الاسم. يستطيع أن يقول إن لديه صورا، فتطلبها. وكلتا الطريقتين تعيده إلى ما تركه عند مروان قبل ساعة.

قال: «معلومات عن محتويات الخزنة في تلك الليلة. لم أضعها بعد بين يدي جهة تستطيع فحصها.»

انحنت قليلًا إلى الأمام.

«هل تريد مني أن أشكرك عليها الآن؟»

«لا.»

«إذن ابدأ بها، ثم اتصل بي.»

رفعت الملف من الطاولة. أحس بأن نصف الساعة انتهت قبل أن تبدأ، وأنه جاء ليحصل على روايتها بينما يحتفظ لها بما يخصها في صندوق لا تملك فتحه.

قال: «معك حق. لا أستطيع أن أطلب ثقتك بهذا الشكل.»

وقفت، وحملت كيس الطعام. جلس يراقب الباب. قرب الباب توقفت حين ناداها النادل باسمها ليسأل إن كانت ستأخذ قهوتها، فقد أعدها كما اعتاد. نظرت إلى الكوب، ثم إلى إدريس، وقالت إنها ستشربها هنا.

عادت إلى الكرسي، لكنها أبعدته قليًلا عن الطاولة.

«سأتكلم عن كمال. لأنني لا أعرف إن كان قد مات قبل أن أصل. أما 2022، فلا أريد رجلا آخر يقول لي إن الصبر سيفيدني.»

طلب إدريس الإذن بإخراج دفتره. وافقت، وطلبت أن يقرأ عليها ما يكتبه عن أوقات الزيارة. أخرج القلم وفتح صفحة بيضاء، وترك الصفحة المتعلقة بسرقة رشيد مطوية تحتها.

«هو الذي اتصل بي. في ديسمبر»، قالت. «ظننت أنه يريد أن يتأكد من سكوتي، فأغلقت الحديث. اتصل مرة ثانية. قال إن عنده ما يصلح بعض ما حدث.»

«هل قال إنك بريئة؟»

«قال إن الحقيقة ستظهر. هذه عبارة يحبونها. لا تقولَ من أخفاها.»

«وفي يناير؟»

«الثلاثاء الثالث عشر اتفقنا على الجمعة، التاسعة. قال إنه سيسلمني أوراقًا، وإن الكلام لا يصلح للهاتف.»

«هل سألته لماذا في البيت؟»

«قلت إنني أفضل مكتب محامٍ. قال إن الخطوة التالية ستكون عند محامٍ، لكن عليه أن يشرح لي شيئًا أوًلا.»

«وصدقته؟»

«ذهبت. التصديق كلمة كبيرة على ما فعلت.»

«وصلت قبل التاسعة بقليل. اقتربت من الجرس ثم رجعت إلى الرصيف. رننت وانتظرت ورننت ثانية. حتى العنوان راجعته في هاتفي.»

فتحت سجل هاتفها: «اتصلت في الثامنة وتسع وخمسين. أجابني الرنين.»

«من هاتفك، أم من داخل البيت؟»

«من هاتفي.»

«لم تسمعي صوته، ولا صوت شخص آخر من الداخل.»

«صحيح.»

«هل رأيته في نافذة؟»

«لا. لو رأيته لما كنت أسألك إن كان قد مات.»

«غادرت التاسعة وسبع دقائق. فتحت الساعة لأنني قلت سأنتظر إلى الربع، ثم غضبت. حتى الانتظار صرت أفاوض نفسي عليه.»

«وفي الصباح عرفت أنه قُتل.»

أومأ. من حولهما كان المقهى يمتلئ، والمباراة الصامتة وصلت إلى احتفال طويل بهدف لا يسمعه أحد.

«حين قالت لي الشرطة إنهم يريدون سؤالي، ظننت أن الوقت سيحل المسألة»، تابعت. «كنت أمام الباب، وغادرت. قلت لهم ما أعرفه. لكن كل سؤال يفتح سؤالًا آخر. لماذا دعاك؟ لماذا ذهبت؟ لماذا غضبت منه قبل سنوات؟ كأن علّي أن أثبت أن لي حقًا في الموعد.»

«من عرف أنك ستذهبين؟»

«قلت لأهلي إنني سأتأخر. ورشيد لم أكلمه منذ زمن.»

«وكمال قال إنه سيستقبلك وحدك؟»

«قال إنه يريد الكلام معي.»

دّون الجواب، ثم شطب كلمة كان قد بدأها: «انفراد». ما وراء الباب خارج ما رأته.

التفتت إلى الصفحة، وسألته عن الكلمة التي شطبها. شرح لها، فهدأت ملامحها قليلا. هذه أول مرة ترى فيها منه عملا لا يتوقف على وعد.

«ماذا تريد من هذه الدقائق؟»

«أن أعرف ما الذي نستطيع استبعاده بها، وما الذي لا نستطيعه.»

«هل قالوا لك متى مات؟»

«ليس عندي تقرير الطبيب.»

«هل كان ينسى المواعيد؟»

«ينساك إذا لم يعد يحتاج إليك. أما الموعد الذي يريده فهو يتصل قبله ليذكرك.»

«هل كان مريضا؟»

«لست طبيبته. كان يتعب. ويميل إلى فتح النافذة كلما اشتكى أحد غيره من البرد.»

رفع إدريس رأسه.

«يفتح النافذة؟»

«في المكتب، حين يأتي. كان يقول إن الدفء يُنعس العقل. مرة أطفأ المدفأة ونحن نعمل، وخرج بعد عشر دقائق وتركنا نتجمد.»

قالت الجملة بشيء من الضيق القديم، لا كمن يعرض معلومة مهمة. وعادت إلى القهوة، لكن إدريس رأى أمامه ممرا باردا وباب مكتبة مواربا، ثم أحس بالدفء الذي قابله عندما دخل. كان فرق

الحرارة أول ما جعله يظن أن الحياة لم تبتعد كثيًرا عن الرجل الممدد على الأرض.

رأته يتوقف.

«ما الأمر؟»

«أحاول أن أفهم ما أعرفه عن الغرفة.»

«أنت كنت هناك.»

قال: «هناك ما سأقوله في مكانه. لا أريد أن أحّولك إلى حافظة لما أخاف أن أقوله للشرطة.»

«ولا أريد أن أكون حافظة لأسئلتك وحدها.»

أغلق الدفتر.

«لماذا تهتم بما حدث لي في 2022؟» سألت. «قضيتك كمال.»

نظر إلى يديها حول الكوب. لا يعرف إن كان ما سيقوله محاولة للصدق أو طريقًا آخر ليجعلها تنتظر. اختار أن يبدأ بما لا ينفع صورته.

«عملت في شركة تأمين. نماذج شاركت في إعدادها استعملت في ملفات اتهم أصحابها بالاحتيال. سجن رجلان.»

رفعت عينيها إليه.

«وأنت؟»

تذكر توقيعه أسفل تقرير، ورسالة أعاد قراءتها بعد أن صار اسم صاحبها في خبر عن حكم. هذه التفاصيل ما زال يمنعها من الوصول إلى الجملة كاملة.

«خرجت من الشركة بعد ذلك.»

«أقصد: ماذا فعلت لهما؟»

انخفض صوته.

«أقل مما كان يجب.»

دفعت الكوب بعيدًا. «لا تجعل قصتي طريقة لترتاح من قصتهما.»

أعطاها الدفتر فراجعت السطور المتعلقة بها. صححت صياغة الموعد: لم يعدها كمال بأنه سيعطيها «كل الأوراق»، بل قال إن لديه «أوراقًا». وصححت وصف الرنين مرة أخرى. طلبت نسخة مما كتبه، فأخبرها أنه سيرسل صورة الصفحة بعد اللقاء. أعادت إليه الدفتر عند صفحتها.

وقفت هذه المرة دون أن تعود. قبل أن تبتعد قالت:

«إذا كان عندك ما يخص براءتي، أعطه لمحاميك. لا تنتظر حتى يصير مفيدًا لك.»

ترك النقود على الطاولة، وخرج بعد دقائق. سار مسافة طويلة قبل أن ينتبه إلى أن يده ما زالت تمسك الدفتر. أدخله في الحقيبة، ثم أخرجه من جديد ليتأكد من أنه دوّن كلمتها كما قالتها: «براءتي». كانت قد اضطرت إلى جعل شيء تعرفه عن نفسها طلبًا يوجه إلى الآخرين.

في مساء الخميس جلس عند طاولة المطبخ. أرسل إلى سلمى صورة الصفحة، وإلى مروان ملخص اللقاء، وفصل فيه بين الأوقات التي أظهرتها له من سجل الهاتف وبين وقت المغادرة الذي تذكره. ترك سؤال الدفء مفتوحا.

أمامه ورقتان. في الأولى رجل دعا ضيفة إلى التاسعة، ولم يفتح لها. في الثانية ما يعرفه من ليلة دخوله: ممر بارد، وغرفة دافئة، وجسد أحس حرارته عبر القفاز، ومحاولة إنعاش فشلت. كتب تحت الورقة الثانية العبارة التي ظنها حقيقة منذ تلك الليلة: «مات قبل وقت قصير».

لم يتذكر أحدًا قالها له داخل المكتبة. كان هو من قالها لنفسه.

فتح حاسوبه القديم، وبحث في مراجع طبية عن تقدير الزمن المنقضي بعد الوفاة. اجتاز صفحات تقدم جداول سهلة أكثر مما ينبغي، ثم وصل إلى شرح يربط تبرد الجسد بحرارة المكان والملابس وحركة الهواء وعوامل أخرى. قرأ ببطء، وتوقف عند الفرق بين الإحساس بسطح دافئ وبين قياس يستعمله المختص ضمن معطيات متعددة.

أعاد يده إلى سطح الطاولة. هذه اليد لم تقس حرارة كمال، ولم تعرف درجة الغرفة قبل دخوله، ولا المدة التي عملت فيها المدفأة. ومع ذلك حولت دفئا عابرا إلى ساعة، ثم بنى هو فوق الساعة صورة قاتل ربما غادر قبل دقائق.

مّد الورقتين جنبًا إلى جنب. للمرة الأولى لم تتعارضا لمجرد أن الأولى تقع قبل الثانية بساعتين ونصف تقريبا. التعارض كان يقوم على الجملة التي أضافها هو: الموت حديث لأن الجسد دافئ.

شطبها.

حّل محلها سؤال لم يكن قد سمح لنفسه بطرحه: ماذا لو كان الدفء هو المعلومة المصنوعة؟

نظر إلى الموقد، ثم إلى النافذة المغلقة. يستطيع أن يفهم انتقال الحرارة في أجسام أبسط، وأن يختبر اتجاه أثر التدفئة، لكنه لا يملك جسد كمال ولا قياساته، ولن تمنحه تجربة في بيته ساعة وفاة. ما يستطيع طلبه هو إعادة النظر في السؤال نفسه، إذا وجد ما يبرر ذلك.

أخرج بطاقة مروان ووضعها فوق ورقة سلمى. سيعود إلى صور المكتبة التي حفظها على السطح. وفي العلبة نفسها ما يخص امرأة طلبت منه ألا ينتظر حتى تصبح براءتها مفيدة له.

ارتدى سترته، وأخذ مفتاح باب السطح.

حين عاد بالبطاقة إلى الطاولة، وصلها بالقارئ وأدخل كلمة المرور. ظهرت أسماء المجلدات مرتبة بالتاريخ؛ سنوات يستطيع أن يمر عليها بإصبعه في ثانية. وصل إلى أكتوبر 2022 وتوقف. هناك الصور التي طلبها مروان، والتي أقّر أمس أمامه بأنها موجودة.

وضع المؤشر فوق المجلد، ثم أنزله إلى يناير 2026.

كان يريد أن يجد ما يبرئه من القتل قبل أن يسلم ما يدينه بالسرقة. لم يستعمل اسم سلمى لتبرير الترتيب هذه المرة.

فتح صور ليلة الجمعة.

الفصل الرابع عشر

ما حفظته الصورة

30 و31 يناير

في الصورة الأولى كانت الخزنة أوضح من الرجل الممدد قربها.

لم يقصد إدريس هذا الترتيب حين رفع الهاتف تلك الليلة. أراد أن يحتفظ بما رآه قبل أن يغادر، فاختار موضعاً يُظهر الرفوف والباب المفتوح، وترك عند الحافة ما لم يعرف كيف ينظر إليه. الآن، على شاشة الحاسوب، بدا الاختيار أقل براءة من السرعة التي اتخذه بها.

انتقل إلى الصورة الثانية. ذراع مسعف في طرف الإطار، وقطعة من حقيبته، وسلك يهبط خلف جانب المكتب. حرّك المؤشر نحو الذراع. هذا تفصيل يستطيع أن يخدمه: كان يصّور بعد وصول النجدة. قّرب الصورة، وتخيل الجملة التي سيقولها لمروان، ثم توقف.

أعادها إلى حجمها، فرأى السلك مرة أخرى.

كان ينتهي عند قطعة بيضاء بين القابس ومأخذ الجدار. قربها مستطيل المدفأة الداكن. في الصورة الأولى حجب طرف المكتب جانب القطعة؛ في الثانية ظهر زر صغير وحافة سميكة، وعند طرف الزر نقطة حمراء مضيئة. لم يعرف إن كانت تدل على وصول الكهرباء إلى القطعة، أم على تشغيل الجهاز الموصول بها، أم على حالة أخرى. كّبرها حتى تكسرت حافة القطعة إلى مربعات صغيرة، وبقيت الكتابة غائبة. توقف قبل أن يجعل التكبير وعدا بشيء ليس في الصورة.

عاد إلى موضع المدفأة. يتذكر دفء الغرفة، لكنه لا يتذكر أنه وضع يده على الجهاز، ولا أنه رأى مؤشّرا مضاًء على المدفأة نفسها.

ربما كانت تعمل، وربما توقفت قبل دخوله. النقطة الحمراء التي رآها كانت في القطعة البيضاء، وجودها لا يشرح وحده ما كانت المدفأة تفعله. كتب السؤال، وحذف من صياغته فعل «شّغل»؛ كان قد منح شخصا مجهولا فعلا لم يثبت وقوعه بعد.

فتح نافذة جديدة ليحفظ نسخة مكّبرة من ذلك الجزء. فوق موضع الحفظ ظهر مجلد أكتوبر 2022.

ترك يده على الفأرة.

منذ دقائق كان ينتقي ذراع المسعف لأنها قد تنفعه، ثم انتقى القطعة البيضاء لأنها قد تقود إلى شخص غيره. في المجلد الآخر صور طلبها مروان كاملة. يستطيع الآن أن يفتحها، ولا ينقصه جهاز ولا إذن ولا معلومة عن كمال.

قالت سلمى: «لا تنتظر حتى يصير مفيدا لك».

أغلق نافذة الحفظ، وفتح أكتوبر.

ظهرت الخزنة التي تذكرها عند لالة زهور. المال، والدفتر الصغير، وعلبة الأختام. جهاز التحكم الأسود في موضعه، وعلى الشريط الفاتح حرفان يفصل بينهما أثر قلم: «ط. ك.» كان أوضح مما حفظته ذاكرته. لم يكن اسم مالكه مكتوبا، ولا سبب وجوده عند رشيد. أوقف نظره عند هذا القدر وانتقل إلى الصورة التالية.

بقيت الأشياء في أماكنها تقريبا، وغابت الرزم التي أخذها. عند طرف الرف ورقة مطوية لم يتذكرها. قّربها، فلم يظهر منها ما يكفي ليعرف طبيعتها.

في الغرفة عند لالة زهور كاد يقول إن الخزنة خلت من الوثائق. الآن يرى ورقة كان قد نسيها. لا يعرف ما فيها، ولا يستطيع أن يجعل

نسيانه دليلًا على غيابها. يعرف أنه لم يأخذها. هذا هو الشيء الذي يستطيع توقيعه.

نسخ جميع صور العملية إلى وسيط مستقل، بأسمائها كما حفظت. أبقى الإطارات كاملة والنسخ خالية من الإضافات. في ورقة منفصلة كتب ترتيبها بحسب ما يتذكر، وترك التواريخ المسجلة في الملفات قابلة للفحص؛ الساعة التي كانت في هاتفه القديم ليست شاهدًا لا يخطئ.

بدأ روايته بكلمة «دخلت»، وتوقف بعد الاسم.

رشيد البقالي.

كتب المبلغ، وما أخذه، وما يتذكر أنه تركه. وحين وصل إلى سبب اختياره المكتب كتب أن معلومات جاءته عن طريق بنعيسى جعلته يعتقد أن المال متصل بأعمال أضرت بآخرين. قرأ الجملة، وأضاف ما فعله بنفسه للتحقق وما اكتفى فيه بكلام الرجل. كان اسم بنعيسى يؤلمه، لكن حذف الاسم هنا سيجعل شخصا آخر يحمل مسؤولية رواية أرسلها إليه صديقه.

عند آخر الصفحة بدأ عبارة عن إعادة بعض المال إلى أصحابه. أمكنه أن يكتبها كما يتذكرها، لكن كلمة «أصحابه» كانت أكبر مما يستطيع إثباته لكل مبلغ. شطبها، وذكر الأشخاص والمبالغ التي يعرفها، ووضع ما يحتاج إلى مراجعة في سطر مستقل. لن تجعل طريقة التصرف في النقود دخوله المكتب حقا.

حين انتهى كانت المدينة قد هدأت خلف النافذة. طبع الأوراق، وترك موضع التوقيع فارغا حتى يقرأها مروان معه.

في الصباح اتصل بالمكتب وطلب أول وقت متاح.

قال: «أحضرت صور 2022».

كان مروان واقفًا حين دخل، يرتب ملفات فوق كرسي. أشار إلى المقعد المقابل، ثم جلس حين وضع إدريس وسيط الذاكرة والورق على المكتب.

«كل صور العملية؟»

«كل ما حفظته منها.»

قرأ المحامي الصفحة الأولى قبل أن يصل الجهاز بالحاسوب. سأله عن الورقة المطوية عند طرف الرف، فأخبره بأنه لا يعرف محتواها، وأنه لا يتذكر أنه فتحها.

«قلت لي إنك لم تأخذ وثائق.»

«وهذا صحيح. لا أستطيع أن أقول ما كان داخل كل ورقة هناك.»

أعاد مروان السؤال بصيغتين، وصحح معه سطرًا كان يجمع ما رآه بما استنتجه بعد ذلك. طلب نسخة مما صوّره من أوراق لالة زهور، وأسماء من يستطيع تأكيد الوقائع التي يذكرها.

عندما بلغ اسم بنعيسى رفع عينيه.

«هل أخبرته أنك ستذكره؟»

«لا.»

«لا تتصل به لتتفقا على ما ستقولانه.»

نظر إدريس إلى الاسم. أراد مكالمة يسمع فيها صوت الرجل قبل أن تصله الأسئلة. أدرك أن هذه الرغبة أيضا يمكن أن تغيّر ما سيحدث بعد المكالمة. أبعد هاتفه عن الورق.

قلب مروان الصفحة الأخيرة.

«ما الذي تريد مني أن أفعله بهذا الآن؟»

«ابدأ في قضية سلمى. اتصل بها، أو بمن تختاره للدفاع عنها. لا تنتظر نتيجة قضية كمال.»

«سأعرض عليها الطريق الذي يمكن سلوكه، بعد مراجعة الملف. القرار الذي يخصها يُتخذ معها. وأنت، هل تفهم أن روايتك لن تبقى مجرد حديث بيننا إذا استُعملت لتصحيح ما نسب إليها؟»

«أفهم.»

«وقد تُسأل أنت عمّا أقررت به، وعن مصدر الصور. لن أقدّمها كأن شخصا مجهولا وجدها في الطريق.»

نظر إدريس إلى موضع التوقيع. كان قد تخيل هذه اللحظة أكثر ضجيجا. في الخارج آلة تصوير تسحب ورقة بعد أخرى، ومن خلف الباب صوت امرأة تسأل عن وصل. لا شيء في المكتب ينتظر أن يصير شجاعا.

وقّع.

سحب مروان الأوراق نحوه، ثم سأله إن كان هناك شيء آخر يتصل بسرقة 2022 يجب أن يعرفه. أجاب عن سؤال يتعلق بالمال، ودوّن للمحامي اسما كان قد نسيه أثناء الكتابة. عاد اسم سلمى إلى أعلى الصفحة، وإلى جواره مهمة لها بداية، لا وعد مؤجل.

شعر بخفة قصيرة، فخجل من سرعتها. سلمى لم تستعد عملها، ولم تُمنح عنها كلمة واحدة. الذي حدث أن نسخة خرجت من يده، وأن رجلا آخر صار قادرا على العمل بها.

أغلق مروان الملف وسأله عن سبب اتصاله الثاني بالمكتب قبل وصوله؛ كان قد طلب أن يناقش أمرا يتعلق بالمدفأة.

أخبره إدريس بما قالته سلمى عن كمال، وبالقطعة البيضاء التي انتبه إليها في صور ليلة الجمعة.

«صور عندك أنت؟»

«نعم.»

سكت مروان لحظة، وأبعد ملف 2022 عن الموضع الذي بينهما.

«لماذا لم تخبرني بها من قبل؟»

«لأنها تثبت أنني كنت في الداخل.»

«وكلامك عنها الآن يثبت ماذا؟»

لم يجب. كانت أمامه طريقة جديدة لتكرار ما فعله مع سلمى: يخرج من الصورة السؤال الذي يفيده، ويحتفظ بالجزء الذي يسأل عنه الآخرون.

قال إنه يريد التحقق من الجهاز قبل أن يحّول القطعة إلى اتهام. أومأ مروان، لكنه لم يقبل السبب جوابًا عن حجب الصور.

«احتفظ بالملفات الأصلية. وما تطلب فحصه، سنذكر مصدر معرفتك به كما هو. لا ترسل لي صورة مقصوصة وتطلب أن ننسى ما حولها.»

وافق إدريس. لم يناوله بطاقة الأرشيف. كانت في البيت، وفيها أكثر من ليلة واحدة. أمكنه أن يقول ذلك ليخفف الصمت، لكنه اكتفى بوصف مكان القطعة وما يظهر منها، وطلب أن يصل إلى هناء سؤال محدد: هل فُحصت الوصلة التي كانت المدفأة موصولة بها؟

دّون مروان السؤال. اتفقا على أن يتصل به قبل أي لقاء معها. وهو ينهض، رأى إدريس الملفين منفصلين على الطاولة، وعرف أنه تقدم خطوة في أحدهما وترك الأخرى أمامه.

في البيت أعد كوب شاي، ونسيه حتى برد.

كان يستطيع أن يجعل الكوب بداية شرح طويل عن الزمن والحرارة، لكنه احتاج أولًا إلى طعام وإلى نوم. أكل واقفًا في المطبخ، ثم استلقى دون أن يخلع سترته. حين استيقظ وجد رسالة من مروان: تلّقت هناء طلبه، وستحدد معه وقتًا للكلام.

تحت الرسالة خبر آخر أقصر: تواصل المكتب مع سلمى، وستُراجع الأوراق المتعلقة بالحكم مع من يتولى مساعدتها. قرأ السطر مرتين. لم يتصل بها ليسأل إن كانت قد عرفت أنه هو السارق. سيصلها من الرواية ما ينبغي أن يصل، ولن يختار لها اللحظة التي تشكره فيها على أمر كان عليه أن يفعله.

صباح السبت اشترى مقياسي حرارة للمطبخ، وأخرج وعاءين زجاجيين متشابهين. أراد أن يرى ما ظل يعامله في ذهنه كعبارة مدرسية: أثر الوسط المحيط في سرعة التبّرد.

وضع المقياسين أولًا في الماء نفسه، وانتظر. كانت قراءتاهما متقاربتين، وبينهما فرق صغير دّونه. ملأ الوعاءين بكمية متساوية من ماء دافئ من الإناء نفسه. وضع أحدهما في حوض ماء أبرد، والآخر في حوض أقل برودة. ترك النافذة مغلقة، وأبعد الوعاءين عن الموقد.

كان يعرف أن الزجاج والأحواض والماء تغّير طريقة انتقال الحرارة. اختارها لأن السؤال محدود، لا لأنها تشبه المكتبة.

جلس أمامهما وبدأ التسجيل على فترات متساوية. في القراءات الأولى هبطت حرارة الوعاء المحاط بالماء الأبرد أسرع. ومع مرور الوقت صغر الهبوط بين قراءتين متتاليتين. كان مقدار الانخفاض يتغير.

في المراجع التي فتحها ورد قانون نيوتن للتّبرد بوصفه تقريبًا يصلح ضمن شروط: يتعلق معدل تغير الحرارة بالفرق بينها وبين حرارة الوسط. إذا اقتربت الحرارتان، تغير المعدل. أما إذا تغير الوسط نفسه أثناء التجربة، فلا يجوز التعامل معه كأنه ظل ثابتًا طوال الوقت.

كتب المعنى بجوار القراءات، دون أن يضع اسم كمال فوق أي عمود.

الرقمان على المقياسين أبسط من المكتبة على نحو يكاد يكون مهينًا لمحاولته الأولى. هنا يعرف متى بدأ، وكم وضع من الماء، وأين وضع الوعاء. هناك لم يقس حرارة واحدة، ولا يعرف كم دامت التدفئة، ولا ما تغير قبل وصوله. وإذا كان الماء داخل وعاء لا يتبرد بمعدل ثابت، فكيف منح جسدًا بشريًا ساعة من لمسة عبر قفاز؟

بعد وقت رفع أحد الوعاءين من حوضه ووضعه على الطاولة، ثم أعاد يده قبل أن يلمسه. أراد فجأة أن يختبر هل يبدو دافئًا، وابتسم بلا سرور. كان على وشك أن يضع إحساس أصابعه فوق القراءة التي أمامه.

تركه على الطاولة، وأثبت وقت تغيير موضعه.

عند نهاية التجربة رسم خطين للقراءات. لم يحاول تمديدهما إلى الوراء حتى يصلا إلى التاسعة؛ لن يكون ذلك حسابًا لوفاة رجل، بل رسمًا لخوفه في هيئة نتيجة. كتب تحت الورقة أن التجربة لا تعيد بناء ما جرى في البيت. أقصى ما تعطيه سبب واضح لرفض الاستدلال من الدفء وحده.

بقي السؤال الأصعب كما هو: هل تغيرت حرارة الغرفة بفعل شخص أراد تضليله، أم أن المدفأة كانت تؤدي عملها العادي؟

أفرغ الماء، وجفف الطاولة. الورقة التي عليها الخطان بدت شديدة النظام قرب كوب الشاي المنسي. وضعها في ملفه، وراء الصفحة التي تفصل ما رآه في الصورة عما يتذكره من الغرفة.

اتصل مروان بعد الظهر. كانت هناء ستعود إلى الفيلا مع أحد أفراد الفريق، ووافقت على لقائه عند المدخل في الرابعة، بعد أن أبلغها المحامي أن السؤال جاء من صور يحتفظ بها إدريس.

«لن يكون حديثًا عن قطعة كهربائية وحدها»، قال مروان.

«أعرف.»

«ولا تجعل وصولك إلى الباب موافقة على كل ما قد يُطلب منك. إن تحول الأمر إلى استماع رسمي، اتصل بي. أما ما تقرر قوله، فلا تبدأه بنصف معلومة.»

أعاد إدريس قراءة الصفحة التي أعدها. حذف جملة توحي بأن المدفأة ظلت تعمل حتى وصوله. هذا أيضا شيء لا يعرفه.

خرج مبكرًا. في السيارة تذكر أنه لم يعد إلى ذلك الشارع في الضوء. الطريق الذي قاس مسافاته ليلة الجمعة تغّير حين امتلأ بالمارة؛ باب متجر مفتوح، وامرأة تدفع عربة طفل، ورجل يغسل عتبة فينساب الماء إلى الحافة. وحده كان يحمل الفيلا في كل طريق سلكه منذ أسبوعين.

أوقف السيارة في مكان ظاهر، وحمل الملف. بطاقة صور ليلة الجريمة لم تكن معه. أحس بغيابها كما لو أنه ترك شيئًا ثقيلًا على المقعد، ثم أغلق الباب دون أن يعود ليتفقده.

كان الشرطي عند المدخل يتحدث في جهازه. عّرف إدريس بنفسه وذكر الموعد، فطلب منه الانتظار خارج البوابة. نظر إلى السور الذي

عبره، وإلى المسافة القصيرة بين طرفه والرصيف. في الليل احتاج إلى حسابها. الآن لم يعرف أين يضع عينيه حين يمر شخص بجواره.

خرجت هناء من البيت بعد دقائق. كانت تحمل غلافًا شفافًا بين أوراقه صورة مطبوعة، ظهر فيها مستطيل أبيض. بقيت بعيدة بما يكفي كي لا يميّز ما تصّوره. تبعها رجل توقف عند السيارة، ثم تركهما عند البوابة.

نظرت إلى الملف في يده.

«هل أحضرت الصور؟»

«أحضرت ما أريد أنْ يُفحص. الصور الأصلية محفوظة.»

تبدل وجهها تبدّلا صغيرًا؛ لم يكن استغرابًا.

«محاميك قال إن عندك سؤالا.»

فتح الملف، ثم أغلقه. الخطان اللذان رسمهما في المطبخ لن يجيبا عن أول ما سألته.

قال: «المدفأة كانت موصولة بقطعة بين القابس والجدار. أريد أن أعرف هل يمكن أن تكون اشتغلت وتوقفت من غير أن يكون أحد قربها.»

«يمكن أن نسأل عن ذلك.»

انتظر أن تكمل. من خلفها رأى باب البيت مفتوحًا، والممر الذي حاول أن يجعل ظلامه يحفظ وجهه. هذه المرة كان الضوء يأتي من الخارج، ولا يحتاج أحد إلى الاقتراب ليراه.

قالت هناء: «لكننا سنسأل أيضا عن الصور التي التقطتها، وعن سبب احتفاظك بها.»

أرخى أصابعه عن الملف.

«ابدأ من اللحظة التي قررت فيها الدخول.»

نظر إدريس إلى باب المكتبة الذي لا يراه من موضعه، لكنه يعرف أين يكون.

«قررت أن أخرج أوّلا»، قال.

سارق الاحتمالات

القسم الثالث



الفصل الخامس عشر

ما محاه الوقت

السبت، 31 يناير

«قررت أن أخرج أوّلا.»

رأت هناء يد إدريس تستقر على حافة الملف بعد أن قالها. كان الباب خلفها مفتوحا، وعند الرصيف طفل يتوقف ليربط حذاءه. هذا ليس مكانًا تبدأ فيه رواية دخول بيت قُتل صاحبه.

قالت: «إذا أردت أن تكمل، فسأحتاج إلى تدوين ما تقوله. اتصل بمحاميك قبل أن نتابع.»

«هل أنا مستدعى الآن؟»

«جئت بموعد طلبته. لكن ما بدأت تقوله يخص وجودك داخل البيت. لن أتعامل معه كحديث عابر عند البوابة.»

سألته إن كان يفّضل استكمال الكلام في المكتب. وافق، واتصل بمروان. ابتعدت بما يكفي ليحدثه دون أن يسمع الرجل عند السيارة.

كان الغلاف في يدها قد انثنى عند الزاوية. سّوت الحافة بإبهامها. داخله صورة من معاينة المكتبة، تظهر الوصلة البيضاء وسلك المدفأة، وورقة من التقرير التكميلي للطبيب. تاريخ اتصالها بالفريق التقني يسبق رسالة مروان بيوم. لم يُعدها إدريس إلى المقبس. أعادها إليه وصف الفك المتصلب عند بدء تدخل المسعفين، بعدما قرأته مع بقية ما أثبته الفحص، ومع الجملة التي لم يعد جائزًا تجاهلها: تاريخ حرارة الغرفة مجهول.

لم يمنحها ياسين ساعة وفاة جديدة. في حديثهما قال إن الحرارة قد تؤثر أيضاً في تطور التّيبس، وإنه لا يستطيع أن يأخذ علامة واحدة ويجعلها تعّوض كل ما ينقصه. ما رفضه هذه المرة هو استمرار تداول الفترة الأولى كأنها حّد يغلق ما قبله.

«العاشرة ليست جداًرا»، قال حين سألته إن كانت زيارات المساء المبكرة خارج البحث.

أخرجت من الملف نسخة كانت قد كتبت عليها تلك الفترة بقلم أزرق. ما زال الخط الأزرق أوضح من التحفظ المطبوع تحته. أمس لم تنتبه إلى ذلك لأنها هي التي وضعت الخط.

عاد إدريس، وأخبرها أن مروان طلب منه تحديد ما يستطيع قوله الآن، وأنه سيأتي إلى المصلحة ليلتقيه قبل استكمال الإجراءات. سألت إن كان يريد الانصراف معه أوًلا. قال إنه يستطيع الانتظار هناك، على أن تنتقل هي أيضاً.

أبقت إدريس عند البوابة وسّلمت زميلها الغلاف وطلبت أن يعيد الصورة إلى ملف المعاينة. أما الجهاز المحجوز، فكان في مساره الخاص للفحص، لا في حقيبتها ولا بين الأوراق التي تحملها إلى الشارع.

في طريق العودة اتصلت بقاسمي. نقلت إليه ما قاله إدريس حتى تلك اللحظة، دون أن تسميه اعترافا كاًملا. أخبرها أن تثبت الجديد وترفعه، وأنه سيلحق بها بعد مراجعة ملف آخر. ثم سأل عن الهاتف.

«سأطلب موقفه من فتحه مجدًدا.»

«اسأليه عن الصور أيضاً. لا أريد سؤًالا عن جهاز خرج من صورة لا يريد أحد أن يعطينا إياها.»

كان اعتراضه قريبًا مما كانت تنوي قوله. أغلقت المكالمة، وأرادت مراجعة الصورة مرة أخرى. مدت يدها إلى المقعد المجاور قبل أن تتذكر أن الغلاف مع زميلها في السيارة الأخرى.

انتظر إدريس خارج مكتبها نحو نصف ساعة. جاء مروان، وتحدث معه بعيدًا عنها، ثم دخل المحامي ليحدد طبيعة ما سيقدمه موكله. قال إن إدريس مستعد لإثبات وجوده ومحاولته طلب النجدة، وإنه يريد التشاور قبل الإجابة عن سبب دخوله وما سبقه.

«والصور؟»

«يعرف أنكم ستطلبونها. والهاتف المحجوز يتضمنها، على قوله. سيعطي رمز فتحه.»

لم تعتبر هناء العبارة نهاية السؤال. أمران مختلفان: ما يوجد في الجهاز الذي عندهم، وما احتفظ به خارجه. رتبت ورقة الموافقة على تسليم الرمز، وأبقت السؤال الآخر في قائمة الاستماع.

حين جلس إدريس أمامها، كانت النافذة إلى يمينه هذه المرة. في اللقاء السابق ظل ينظر إلى حافة الطاولة. الآن وضع يديه فوقها، من غير أن يدفعهما نحوها كدليل على شيء.

ثبتت هويته ووقت بدء الاستماع، وحددت له ما تريد سؤاله عنه. قال إنه تشاور مع محاميه، وإنه سيجيب عن بعض الوقائع ويترك غيرها إلى حين استكمال مشورته. دوّنت عبارته قبل السؤال الأول.

«هل دخلت بيت كمال الطاهري ليلة الجمعة السادس عشر من يناير؟»

«نعم.»

«هل كنت الرجل الذي اتصل بالنجدة؟»

«نعم.»

«قلت عند البوابة إنك قررت الخروج. لماذا؟»

نظر إلى الباب المغلق خلفها.

«وجدت أشياء تخالف ما توقعت. آخرها لوحة الإنذار. قررت أن أنسحب. في طريقي رأيت قدمه من شق الباب.»

«ما الذي كنت تتوقعه؟»

«لن أجيب عن ذلك الآن.»

أثبتت السؤال والجواب، وأبقت الصفحة مفتوحة بينهما.

«ماذا فعلت بعد أن رأيت القدم؟»

وصف اقترابه، ومحاولته الحصول على استجابة، والمكالمة من هاتف البيت. حين وصل إلى الضغط على الصدر، نظر إلى راحتيه. كانت لديها شهادة المسعفين والتسجيل؛ تركته يكمل قبل أن تطابق الكلمات بما تعرفه.

ذكر أن الجسد كان دافئًا، ثم صحح نفسه دون سؤال: «أحسست دفئًا عبر القفاز. لم أقس حرارته.»

«وما الذي استنتجته؟»

«أن ما حدث كان قريبًا من وصولي.»

«هل سمعت ذلك من أحد؟»

«لا.»

في الورقة خانة لما وجده وأخرى لما فعله. أضافت ثالثة: ما استنتجه.

أعطاها وقتًا تقريبيًا لدخوله. أثبتت أنه من الذاكرة، وأبقت توقيت فيديو الجار في ملفه حتى تنتهي من روايته.

قرأ ما دّونته ببطء. توقف عند «وجد كمال ميِّتا».

«وجدته لا يستجيب. لم أكن أعرف أنه مات.»

أعادت صياغة السطر. كان الفرق لازِما، مهما يكن الرجل الذي أمامها. وّقع على ما أدلى به، ثم على الورقة التي تثبت أنه أعطاهم رمز الجهاز طوعا. عندما طلبت الصور المحفوظة خارجه، قال إنها ضمن أرشيف يحتاج إلى مراجعته مع مروان، وإنه لن يمحو شيئًا منه.

«سأثبت أنك لم تسّلم النسخة الخارجية اليوم»، قالت.

أومأ.

كانت خبرة الصوت المطلوبة منذ الاستماع الأول تنتظر مادة مرجعية أنسب للمقارنة. أبلغته أن إقراره بالاتصال لا يلغي استكمالها. بعد مراجعةٍ مروان وافق على تسجيل العينة بالطريقة التي حددتها الجهة المختصة. ُسجلت عينة من كلامه الطبيعي وفق تعليمات الخبيرة، للمقارنة بتسجيل المكالمة.

سألها إن كانت النتيجة ستبين أنه حاول الإنقاذ.

«ستتناول مسألة الصوت. محاولة الإنقاذ نبحثها من وقائعها.»

خفض عينيه إلى يديه. بدا أنه يعرف الجواب، لكنه احتاج إلى سماعه من شخص لا يستطيع أن يغّيره ليطمئن.

قبل خروجه وضع ورقة عليها خطان أمامها، وشرح باختصار ما فعله بالماء. قرأت أسفلها أنه لا يقصد بها تقدير وقت وفاة كمال. سألته عن ظروف التجربة، فذكر ما غّيره وما لم يضبطه، ثم سحب يده عن الورقة.

«هل يفيد هذا في شيء؟»

«يفيدني أن أعرف كيف وصلت إلى السؤال. أما السؤال نفسه فسيذهب إلى المختصين.»

نظر إلى الصورة الموضوعة قرب الملف، حيث تظهر القطعة البيضاء في موضعها الأصلي. أدرك أنها كانت هناك قبل أن يشرح رسمه.

«كنتم تفحصونها؟»

«نعم.»

بدت عليه خيبة قصيرة أخفاها بإغلاق حقيبته. رأتها هناء، ولم تعلق. كان قد احتاج إلى أن يأتي بما يغير التحقيق. أصعب ما في العمل أحيانًا أن تكون الخطوة مفيدة، وألا تكون أنت أول من خطاها.

بعد انصرافه أرفقت التصريحات الجديدة بما سُيرفع إلى النيابة، بما فيه إقراره بوجوده والأسئلة التي امتنع عن إجابتها. في الاستمرار في البحث خطر عليه، لكن الخطر لا يختار لها نتيجة البحث.

جاءت مذكرة الفحص التقني المختصرة قبيل المساء. الطراز يسمح بالتحكم عبر التطبيق، وبضبط مواعيد للتشغيل والإيقاف. صورة النقطة الحمراء لا تكفي وحدها لإثبات أن الكهرباء كانت تصل إلى المدفأة عند التقاطها؛ يلزم تفسير المؤشر وفق حالة الجهاز، لا وفق لون اعتادته العين في جهاز آخر. ولم تتضمن المذكرة ساعة تشغيل ليلة الجريمة، ولا اسم مستخدم.

اتصلت بالتقني لتتأكد مما تعنيه عبارة «لا يتضمن الفحص سجلًا للأحداث». قال إن ما وصلهم لا يسمح بإعادة بناء أوامر تلك الليلة. لم يقل إن سجلًا قد مُحي؛ لم يكن عنده ما يثبت أنه وُجد أصلًا بالصيغة المطلوبة، أو أن البيانات المتاحة تغطي تلك المدة. الهاتف والحساب قد يقدمان معلومات أخرى، لكن لا يجوز أن تُكتب قبل الحصول عليها.

وضعت هناء خطًا تحت «غير متاح»، ثم تركت بجانبها سؤالًا عن مصدر أي بيانات لاحقة ومدة احتفاظه بها. لم تكن تريد خسارة ثانية تصنعها عبارة مطمئنة.

الخسارة الأولى كانت تنتظرها في رسالة من الفريق الميداني.

كاميرا الشارع الأمامي.

قرأتها مرة، ثم طلبت صاحب الرسالة. جاء وفي يده صورة لواجهة متجر وورقة من صاحبه. كانت الكاميرا تغطي جزءًا من الطريق إلى الفيلا، وقد كتب الفريق اسم المحل منذ الأيام الأولى. أُرسل طلب الحفظ إلى عنوان التواصل الذي أعطاه العامل. المالك كان غائبًا، والعامل فهم أن المطلوب سيصل إليه أحد ليأخذه. حين عاد الفريق، كانت الفترة قد استُبدلت في دورة التسجيل.

«هل فُحص الجهاز؟»

«فُحص ما أمكن الوصول إليه. لا تسجيل صالح لتلك الليلة حتى الآن. وهذه إفادة الفني.»

قرأت الإفادة. سألت عن وقت أول زيارة، وأول اتصال، ووقت العودة إلى المحل. أعطاها الأوقات من الأوراق، وبقي واقفًا بعدما انتهى.

عرفت لماذا.

كان أحد الرجلين اللذين سحبتهما من جمع تسجيلات الشارع.

«اكتب التسلسل كاملًا»، قالت. «بما فيه التكليف الآخر.»

فتح فمه ليفسر أن العمل تراكم عليهم، فأوقفته برفع كفها.

«لا أطلب منك أن تحمل القرار.»

خرج، وأبقى الباب موارًبا. في الممر أصوات مألوفة عن موعد سيارة وعن ورق نفد من آلة الطباعة. استمرت المصلحة في عملها، ولم يتغير صوتها لأن جزءًا من ليلة القتل صار أصعب استعادة.

أحضرت مذكرة الاثنين التاسع عشر، ووضعتها فوق إفادة الفني. اسما الشرطيين، والمهمة التي أوقفاها، وأسباب تحويلهما إلى البلاغين وملف 2022. كان توقيعها واضًحا، دون جملة تحميها من النتيجة.

دخل قاسمي حين كانت تقارن التاريخين.

قرأ الورقتين واقًفا.

«قلت لك إن طلب الحفظ لا يعني أن أحًدا قرأه.»

«أعرف.»

«كنت تعرفين يومها أًيضا.»

كان غاضًبا على تسجيل صار استرداده خارج سلطته. جلس، وسأل إن كان هناك تسجيل بديل يغطي الطريق نفسه.

«نبحث. الموجود لا يعوض هذه الزاوية.»

«إذن اكتبي ذلك. لا تكتبي إن التصوير لم يكن ضروًريا لأننا وجدنا مسارًا آخر.»

«لن أكتبها.»

نظر إلى ورقة إدريس التي تركتها على الطرف الآخر من المكتب.

«وهو يريد منا الآن أن نبحث قبل العاشرة.»

«الطبيب طلب ألا نستبعد ما قبلها. قبل أن يصلنا سؤاله.»

أعطته الورقة التكميلية. قرأها، ثم أعادها إلى المذكرة الأولى.

«هذا يجعل التسجيل الذي فقدناه أهم.»

«نعم.»

كتبت هناء: «لا يوجد تسجيل بديل يعوض الزاوية».

سأل قاسمي عن الاستماع الثاني لرشيد. فتحته له: أُنجز بعد طلبها السابق، وأقّر فيه بخلاف يوم الثلاثاء، وصفه بأنه خلاف على طريقة تسوية ملفات قديمة. وقّدم ما يدل على اتصال أجراه عند التاسعة وعشرين دقيقة، وقال إنه الاتصال الذي خرج من القاعة من أجله. بيانات الاتصال ومدته دخلت الملف؛ مضمونه لم يدخل معها.

«راجعنا الطرف الآخر؟»

«أكد أنه تحدث إليه. لا يستطيع أن يشهد أين كان رشيد في كل دقيقة من المساء.»

قلب قاسمي صور العشاء، ولم يتوقف عند واحدة طويلًا.

«أعيدي الكلام معه على الملفات القديمة. ومع يوسف على الأشياء التي أنكر نقلها. أما إدريس فلا تصنعي من اعترافه الجزئي نهاية الشك فيه.»

«ولا بداية استبعاد غيره.»

رفع عينيه إليها. «هذا ما أطلبه.»

فتحت ملف سلمى وكتبت: ماذا كانت تعرف عن دور كمال قبل موته؟

رن هاتفها. ابنها يسأل إن كان يستطيع إبقاء كتابه عند أبيه، لأنه ينساه كلما نقله من بيت إلى آخر.

قالت إن ذلك ممكن، وإنها تستطيع شراء نسخة ثانية.

«لا أحتاج نسختين»، قال.

أجابت بسرعة أقل هذه المرة: «حسنًا. أبقه هناك.»

انتهت المكالمة دون عتاب. وضعت الهاتف بعيدًا عن مذكرة التكليف، وأكملت السطر الذي تركته مفتوحا في تقرير خسارة التسجيل.

في خانة سبب تأخر العودة إلى المحل كتبت رقم مذكرتها وتاريخها.

لم تستعمل صيغة المبني للمجهول.

الفصل السادس عشر

الرقم الذي عاد

الأحد والاثنين، 1 و2 فبراير

وضع الصحفي هاتفه على الطاولة قبل أن يجلس.

«عندك الورقة؟»

كان إدريس قد اختار المقهى نفسه الذي جلس فيه مع بنعيسى، ثم ندم حين رأى الكرسي المقابل فارغًا. جلس الصحفي قبل أن يقترح مكانًا آخر، وطلب قهوة بلا سكر. اسمه عادل، وهو الرجل الذي اتصل به ليتحقق من خبر إلغاء سفر كمال. احتفظ برقمه، كما يحتفظ الصحفي برقم شخص يسأل عن خبر يعرف أكثر مما يقول.

«قلت إن عندك جديدًا عن العشاء»، قال إدريس.

«وعندك شيء يفسر لماذا سألتني عن مصدر الخبر أكثر مما سألتني عن الخبر نفسه.»

وضع الهاتف بينهما. صورة جماعية في مطعم، مأخوذة من صفحة أحد الحاضرين، وتحتها تاريخ النشر. عرف إدريس وجه رشيد من صورة المكتب التي بحث عنها بعد زيارة لالة زهور. كان واقفًا عند طرف المجموعة، لا في مركزها. شرح عادل أنه تحدث إلى صاحب الصفحة، وأن صورًا أخرى بقيت في مجموعة خاصة. لم يقدّم ما في المجموعة كأنه رآه.

«الشرطة سألتهم. وهم يقولون إنه قضى المساء معهم.»

«كل المساء؟»

«هذا ما يقولونه. أما ما يذكره كل واحد وحده فشيء آخر.»

أعجب إدريس أنه فصل بين العبارتين قبل أنْ يسأل. قرب الصورة، ثم أعادها إلى حجمها. الصورة الجماعية متأخرة؛ لا تروي ما وقع قبلها. ومع ذلك وجد نفسه يكرهها، لأنها تمنح الرجل الذي بدأ يشك فيه مكانًا آخر ووجوها تستطيع أن تقسم أنها رأته.

«لماذا جئت بها إلّي؟»

«لأنك تبحث في أمره. ولأن خبرًا عن موّثق قتل صديقه يبيع أكثر من خبر عن موّثق عشاءه طويل. أريد أن أعرف إن كنت تقودني إلى الأول، أو تستعملني كي تصل إليه.»

أخرج نسخة من الورقة التي أخذها من بنعيسى. أمسكها بين أصابعه. السطر المطبوع يصفه بطريقة لا يستطيع دفعها عن نفسه: «لا يتحرك قبل أن يتحقق. أعطوه ما يتحقق منه».

«يمكنك قراءتها. لا أستطيع أن أعطيك اسم من سّلمها إلّي.»

«إذن لا أستطيع أن أقول إنها صحيحة.»

«ولا أطلب منك ذلك.»

قرأ عادل الورقة، ثم طلب تصويرها. وافق إدريس بعد أن اتفقا على ألا تُنشر قبل التحقق من أصلها وسياقها، وعلى ألا تُستعمل عبارتها لاتهام شخص بالقتل. قال الصحفي إن موافقته لا تعني أن إدريس سيختار صياغة الخبر إذا صار قابلًا للنشر. أجاب بأنه يعرف.

حين رفع عادل الهاتف فوق الورقة شعر إدريس بما يعنيه أن يخرج الشيء إلى يد أخرى. قبل يومين وّقع روايته لمروان؛ الآن يسّلم خيطًا إلى رجل لا يعمل للدفاع عنه. أراد أن يستعيد الورقة قبل الصورة، ثم ترك يده تحت الطاولة.

«هذا ليس دلًيلا على رشيد»، قال.

«هل اسمه مكتوب؟»

«لا.»

«إذن لماذا تقول ذلك لي؟»

سكت. كان قد وضع الاسم في الجملة بنفسه. دّون عادل ملاحظة، وأعاد النسخة إليه. غادر وفي ذهنه أن احترازه قد يكون أول ما جعل الصحفي يرى اتجاه بحثه.

أرسل إلى مروان خبر اللقاء وصورة ما سمح بتصويره. لم يرد المحامي فورا. انتظر إدريس في السيارة حتى ظهرت رسالته: «لا توّسع تداول الأوراق أكثر. سنتكلم عصرا.»

كان يوسف قد وافق على لقائه صباح الاثنين في محل ضيق يستعمله صديق له لعرض قطع مستعملة. أرسل إليه إدريس صورة الساعة التي جاءت ضمن حكاية ليلى، وسأله عّمن التقطها. جاء الرد بعد ساعة: «من أعطاك هذه؟» ثم عنوان المحل.

وصل إدريس في الوقت المحدد. خلف الزجاج مصباحان لا يشبه أحدهما الآخر، وصينية فضية باهتة، وثلاث ساعات حائط متوقفة عند أوقات مختلفة. كان يوسف يجلس إلى مكتب صغير قرب الباب، وفي يده مفك دقيق يديره دون أن يستعمله. أغلق علبة أمامه حين دخل إدريس.

«أنت الرجل الذي يسألون عنه؟»

«أنا إدريس السراج.»

«أعرف اسمك.»

نظر إلى الشارع، ثم إلى السيارة التي جاء بها. جلس إدريس على الكرسي الذي أشار إليه يوسف، وأخرج الصورة من ملفه.

مّد يوسف يده، ثم تراجع.

«هذه عند الشرطة؟»

«لا أعرف ما عندهم كله. عندي نسخة، وأعرف أنها وصلت إلى امرأة استعملتها لتكذب عليّ.»

قال له إن المرأة ادعت قرابة مع أسرة الحسوني، وإنها سمت يوسف مصدرًا للصور. لم يذكر الساعة التي أخفاها، واكتفى بوضع الصورة بينهما.

«هي قالت إنها تعرفني؟»

«قالت ما جعلني أفهم أن الصور وصلتها عن طريقك.»

«لم أقابل امرأة من تلك الأسرة.»

«ومن قابلت؟»

رأى يوسف ينظر إلى العلبة التي أغلقها. على الغطاء ملصق صغير يحمل رقمًا، وفي الداخل شيء خفيف تحرك حين دفعها إلى الخلف.

«عمي أرسلني بها إلى التاجر، للتقييم والصيانة. صّورها التاجر وطلبت الصور لأريها لعمي.»

«فتحها؟»

«لا.»

«كان يريد أن يرى العلامات والحالة العامة أولًا. لم يصل إلى الداخل.»

«هل أخبرت الشرطة أن الصور كانت في يدك؟»

تغيرت يده فوق المفك.

«سألوني إن كنت أصّور ساعات عمي. قلت لا.»

«ولم تذكر صور التاجر؟»

«هو الذي صّورها. أنا حملتها فقط.»

كاد إدريس يجيبه بالجملة التي كان سيقولها لأي شخص يختبئ داخل فعل اختاره بعناية. تذكر وجه لالة زهور عندما قال إنه لم يأخذ الساعة من بيت كمال. ترك يوسف يسمع جوابه وحده، ثم سأله:

«هل أخذت الصور منه؟»

«نعم.»

«هل خرجت منك إلى أحد؟»

أغلق يوسف درج المفكات.

«جاء رجل. قال إنه يمثل عائلة تريد استعادة شيء من مقتنيات عمي، وإنهم يحتاجون الصور للمقارنة بوثائق قديمة. لم يطلب مني الساعة.»

«هل رأيت الوثائق؟»

«لا.»

«أخذت منه مالًا؟»

أومأ، ثم قال المبلغ بصوت أخفض. كتبه إدريس، وسأله إن كان الدفع مقابل الصور وحدها. رفع يوسف رأسه بسرعة.

«لم أعطه مفتاحا ولا موعدا للدخول.»

«هذا جواب عن سؤال آخر.»

«لأنني أعرف إلى أين تذهب.»

قال: «أبحث عّمن رتب وصول هذه الصور إلّي. وقد أجد شيئًا يخصك أيضا. لن أعدك بغير ذلك.»

فتح يوسف هاتفه وأراه رسائل قصيرة عن اللقاء وإرسال الملفات. لم يترك الجهاز في يده. كان الرقم محفوظا باسم «تقييم»، وتحته تاريخ يسبق الجريمة بأسابيع. طلب إدريس أن يقرأ الأرقام كاملة.

في أول قراءة شعر أنه يعرفها، فامتنع عن كتابة كلمة «نفسه». أخرج الصفحة التي دّون فيها رقم الاتصال الأول من سجل سهام، ووضعها إلى جانب الهاتف. قارن الأرقام من البداية إلى النهاية، ثم طلب من يوسف فتح تفاصيل جهة الاتصال حتى يتأكد من أنها ليست تسمية أضافها إلى رسالة من رقم آخر.

الرقم نفسه.

كان ينتظر أن يشعر بالانتصار. بدًلا من ذلك أحس بأن الطريق الذي ظنه يبدأ بامرأة صار يمر من غرفة صغيرة فيها رجل يدير مفًكا كي لا تتكشف رجفة يده.

«تعرفه؟» سأل يوسف.

«أعرف أن هذا الرقم اتصل بالشخص الذي أعطاني الصور.»

«إذن اسأله. هو الذي طلبها، وأنا لا أعرف ما فعل بها.»

«متى كلمته آخر مرة؟»

راجع يوسف السجل. اتصال قبل ليلة الجريمة بأيام، ورسالة بعدها لم يجب عنها. كانت الرسالة منه هو: يسأل ما الذي حصل. لم يظهر في المحادثة جواب. أذن بتصوير الشاشة، لكنه طلب إخفاء الرسائل التي تخص أشخاًصا آخرين. أبقى إدريس الإطار على المحادثة المعنية، وشرح أن الصورة لا تعّوض الهاتف إذا طلب فحصه.

«أعرف»، قال يوسف، بحدة شخص سمع هذه الجملة من قبل ولم ينجح في منعها من أن تصير واقعه.

سأل عن ديونه، فرفض الجواب. عند الباب دخل صاحب المحل، ووضع ظرفًا على المكتب. قال ليوسف إن الرجل الذي جاء السبت عاد يسأل، وإنه لن يقبل تأجيلًا آخر. نظر إلى إدريس، وتوقف عن الكلام، ثم خرج إلى الرصيف.

ترك يوسف الظرف مغلقًا.

«كم أعطاك عمك في آخر مرة طلبت منه؟»

«لم يعطني.»

«ومتى كانت؟»

«قبل أن يموت.»

«بيوم؟»

لم يكن عند إدريس ما يبرر اختيار اليوم. سمع نفسه يقذف احتمالًا لينظر إلى وجه الرجل، فتراجع عن السؤال.

«أنا أخّمن. قل لي متى طلبت، إذا كنت تريد أن تقول.»

تحركت شفتا يوسف كأنه كان يستعد لنفي ثم لم يجد ما ينفيه.

«الخميس.»

«هاتفته؟»

«ذهبت إليه.»

«في النهار؟»

نظر يوسف نحو صاحب المحل، الذي يتحدث الآن إلى زبون خارج الزجاج.

«ليلًا. وقت متأخر.»

«احِك لي الزيارة.»

«دخلت من البوابة. اختلفنا على المال.»

«هذا كل شيء؟»

«أخذت أشياء لي من المكتبة.»

«ماذا؟»

«أشيائي.»

«أي أشياء؟»

«هذا لا يخص موت عمي.»

«كيف عرفت؟»

أبعد يوسف الكرسي إلى الخلف. صدر صوت حاد عن إحدى قوائمه، فتوقف كلاهما. رأى إدريس في فجوة الدرج قماشا ناعما يشبه ما تُلف فيه الساعات، لكن القماش لا يسّمي ما كان فيه. أبقى نظره على يوسف.

«هل لمست ساعة الحسوني تلك الليلة؟»

استغرق الجواب وقتا.

«نعم.»

«لماذا؟»

«كنت أنظر إليها.»

«نقلتها؟»

«أعدتها إلى مكانها.»

«هل قلت للشرطة إنك زرت البيت الخميس؟»

«سألوني عن الجمعة.»

«الزيارة قد تظهر من مكان آخر.»

«أنا لا أنكرها. فتحت بجهازي المعتاد.»

«متى؟»

«قلت لك: لَيلا. الدقيقة لا أذكرها.»

من الشارع جاء صوت ضحكة، فتغير وجه يوسف. سحب الظرف إليه وفتحه، وأخرج ورقة لم يعرضها. قرأها مرة، ثم طواها بعناية زائدة.

«كان يستطيع مساعدتي»، قال. «كنت أعرف أنه يستطيع. هذه أكثر فكرة كنت أكرهها فيه.»

انتظر إدريس.

«كلما طلبت، جعلني أشرح ماذا سأفعل بالمبلغ، ولمن سأدفع، ولماذا فشلت أول مرة. كنت أغضب لأنه يتكلم كأنه سيعيش إلى الأبد ويراجع كل ما أفعله.»

مسح جانب أنفه بإصبعه، وأعاد الورقة إلى الظرف.

«الآن لا أعرف لمن أشرح.»

قال له إنه سيبلغ محاميه بما سمع، وبالرقم، وإن عليه أن يراجع أقواله مع من يدافع عنه بدل أن ينتظر ظهور ما يناقضها. نهض يوسف، وفتح الباب بنفسه.

«هل تساعدني الآن؟»

تذكر إدريس سهام عند الميناء.

«لا أعرف ما الذي سيحدث لك بسبب هذا الكلام.»

«جواب مريح.»

خرج، وترك الباب الذي أمسكه يوسف ينغلق ببطء.

في السيارة كتب إلى مروان ما يستطيع تثبيته: مصدر الصور، بيعها، الرقم، زيارة الخميس، والساعة التي قال يوسف إنه لمسها. فصل

اعترافه بالزيارة عن أي سجل قد يؤيده؛ لم ير سجًلا بعد. وأرفق الصور التي أذن يوسف بأخذها.

تحت ذلك أضاف اسم الوكالة العقارية الذي حصل عليه من مالك شقته. الرجل الذي جاء يوم الأحد بوصفه خبير تقييم وصل عبر موعد حجزته الوكالة. إذا كان الرقم سيعود مرة ثالثة، فالمكان الذي ينبغي السؤال فيه معروف الآن.

طلب مروان أن يحتفظ بما أرسله كما هو، وأن يمتنع عن مواجهة صاحب الرقم. قال إن المعلومات ستصل إلى هناء، وإن ملف 2022 بدأ يراجع مع دفاع سلمى. ثم سأله سؤالًا لم يكن يتوقعه:

«هل سألت يوسف عن الساعة لأنك لا تعرف أين هي؟»

ثبتت عيناه على الزجاج الأمامي.

«سألته عما فعله بها قبل موت عمه.»

«سنتكلم عن هذا أيضا»، قال مروان.

بعد انتهاء المكالمة رأى رسالة جديدة من عادل: يريد مقابلة من سّلمه الورقة المطبوعة. قال إنه سأل في المقهى وفي محل قريب عّمن كان يجلس مع إدريس. لم يذكر اسم بنعيسى، لكنه وصف الرجل المسن وموضع جلوسه. وأضاف أن أحد من سألهم ذكر وجود شرطي قرب المقهى يوم لقائهما. صار في الحي من يعرف أن صحفيًا يبحث عن رجل شوهد مع إدريس؛ لم يحتج عادل إلى نشر الورقة كي يخرج الخيط من يده.

كتب: «لا تنشر وصفه ولا تبحث عنه قبل أن نتكلم».

قرأ الجملة، وانتظر رد الصحفي.

اتصل ببنعيسى. رن الهاتف حتى انقطع الاتصال.

الفصل السابع عشر

الصوت وما لا يقوله

الثلاثاء، 3 فبراير

بدأ قاسمي القراءة من النتيجة.

كانت هناء قد وضعت تقرير مقارنة الصوت إلى يمينها، ومذكرة استخراج الهاتف إلى اليسار، لكنها وجدته يمسك الصفحة الأخيرة قبل أن يجلس. قرأ السطر مرتين، ثم رفع عينيه.

«هو المتصل.»

«النتيجة تدعم ذلك. وقد قال إنه المتصل يوم السبت.»

«يوم السبت، بعدما أمضى أسبوعين يعرف أن التسجيل عندنا.»

جلست، وفتحت التقرير عند وصف المواد التي اُستعملت في المقارنة. تسجيل النجدة، وعينة مرجعية أُخذت منه في مسار الخبرة، ومقاطع اُستبعدت أو خُفض وزنها بسبب الجهد وتغير طريقة الكلام وضجيج الخط. لم تكتب الخبيرة أن الصوت بصمة لا تخطئ، ولم تعط نسبة لاحتمال أن إدريس قاتل. قارنت تفسيرين للخصائص المسموعة: المتكلم نفسه، أو متكلم آخر ضمن المقارنة المناسبة.

«تريدين أن تقرئي التحفظات قبل النتيجة؟» سأل قاسمي.

«أريد أن أعرف أي سؤال أجابت عنه النتيجة.»

قلب الصفحة نحوها. «وهذا سؤال أجابت عنه.»

«نعم.»

أشارت إلى الفقرة التي تشرح قوة الترجيح. قال أحد زملائهما، الواقف قرب الباب، إن هذا يعني أن احتمال وجود شخص آخر بالصوت نفسه صار ضئيلًا إلى حد لا يعتد به. رفعت هناء يدها قبل أن تتحول العبارة إلى سطر في الملخص.

«ليس هذا ما حسبوه. التقرير يوازن مدى توافق ما سمعوه مع فرضيتين. لا يعطينا احتمال براءة الرجل، ولا حتى نسبة جاهزة لهويته بعد جمع القضية كلها.»

قال قاسمي للزميل أن يبقي العبارة كما وردت في التقرير، ثم عاد إلى هناء.

«لا نختلف على ذلك. لكننا لم نعد نتكلم عن هيئة مجهولة وحدها. عندنا رجل قال إنه دخل، وصوته يدعم أنه اتصل، وصوره من الغرفة.»

في الشاشة المقابلة ظهرت الصورة الثانية التي اسُتخرجت من هاتف إدريس. ذراع المسعف عند الحافة، والخزنة مفتوحة، والمدفأة قرب المكتب. الجهاز محجوز منذ السبت الذي تلا الجريمة، وُفتح بعد تسليم الرمز، وأُثبتت إجراءات الاستخراج في المذكرة. بقي التحقق من أوقات الملفات جزءا من الفحص، لا نتيجة تنشأ من الرقم الذي يعرضه الهاتف.

كانت الذراع تسمح بمطابقة اللقطة مع وجود فريق النجدة. لا تستطيع ساعة خاطئة في الهاتف أن تجعل المسعف يصل قبل وصوله، لكنها قد تغّير الدقيقة المكتوبة تحت الصورة. وضعت هناء زمن تدخل الفريق بجوارها، ثم عادت إلى الصورة الأولى.

«لماذا يصور الخزنة؟» سأل قاسمي.

«هذا سؤال له.»

«لأنه جاء من أجل ما فيها.»

«وقد جاء من أجل ما فيها. ذلك لا يخبرنا وحده من ضرب كمال.»

لم يعد الدفاع عن الفارق مريحًا كما كان حين لا يملكون سوى معطف وسيارة. الهاتف أظهر مراسلات مع رقم استعملته امرأة سمت نفسها ليلى، وصور الساعة، وموعدًا يتكرر فيه طلب إنجاز الأمر قبل منتصف الليل. ظهر أيضًا ما يثبت موافقته على المضي بعد تردده. أعطى ذلك الدخول سياقًا لم يقدمه في كلامه يوم السبت.

«موعد، وشيء مطلوب، وخزنة مفتوحة»، قال قاسمي. «دخل ليأخذ الساعة، ففوجئ بصاحب البيت.»

«أو دخل في الموعد الذي اختير له فوجد صاحب البيت مصابًا أو ميتًا.»

«ثم اتصل. أعرف روايته.»

«والصورتان لا تفصلان بين الروايتين.»

أعاد قاسمي الصورة الثانية إلى الشاشة، وأشار إلى اليد في طرفها.

«الإنعاش لا يمنع القتل. قد يندم، وقد يحاول أن يصنع سببًا لوجوده.»

«صحيح. وتفسير كل ما ينفعه بوصفه تمثيلًا يجعل الرواية غير قابلة للاختبار.»

وضع القلم، وعاد إلى التقرير.

قال: «إذن اختبريها. إذا كان الجسد أقدم مما ظننا، فقد دخل قبل ذلك ثم عاد في الثالثة والعشرين واثنتين وعشرين ليصطنع الاكتشاف.»

فتحت هناء صورة السيارة. لا تضعه في الحي عند الثامنة، ولا تثبت غيابه عنه. فيديو الجار يلتقط عبورًا، ولا يغطي كل الجهات طول المساء. الفرضية ممكنة. كتبتها كما قال، ثم أضافت تحتها ما تحتاج إليه: وصول سابق، وطريق دخول، وما يربط إدريس بكمال قبل لقاء ليلى.

«لن أرفضها لأنها لا تعجبه»، قالت. «لكن العودة تحتاج إلى مجيء أول.»

«ابحثي عنه.»

حركت المذكرة إلى الصفحة التي تحمل رسالة الثالثة والعشرين وست وأربعين دقيقة. قرأها قاسمي بصوت منخفض: «شكرًا على حضورك في الموعد».

الرسالة واردة من الرقم الذي حدد اللقاء. وقتها قريب من خروجه، وفق ما يرويه، لكن الهاتف لا يخبرهم كيف عرف مرسلها بما جرى. قد تكون رسالة مقررة سلفًا، أو صدفة زمنية، أو نتيجة متابعة. ولم يعد يجوز نسبتها إلى سهام لمجرد أنها استعملت الرقم قبلها؛ في أقوالها المنقولة عبر مروان أنها سلّمت هاتف العمل ظهر الجمعة.

«موافقة على عملية بين اثنين»، قال قاسمي.

«أو عبارة صيغت لتبدو كذلك إذا قُرئت بعد الجريمة.»

«هل عندك ما يثبت أنها لم تكن معها؟»

«عندي قولها. أطلب التحقق منه، لا اعتماده نتيجة.»

أوقف قاسمي عرض الصور. «إذن هي أيضًا في البحث. لا تجعلوا من قال إنه كذب شاهدًا صادقًا في كل ما بقي من كلامه.»

رفعا النتائج وطلبات استكمال فحص الهاتف ومصدر الرقم.

حين خرج قاسمي، أعادت تشغيل جزء قصير من مكالمة النجدة. جاء صوت إدريس متقطّعا من الجهد، ثم طلبه من المجيب أن يبقى معه. قطعت التسجيل قبل أن تستعمل رجاءه حجة على أمر لا يثبته الرجاء.

على هاتفها رسالة من الفريق الذي اتصل بالوكالة العقارية. الموعد في شقة إدريس حجز من رقم مثبت في سجلها، وقّدم صاحبه نفسه خبيرا يريد تقدير الشقة بطلب من مهتم بالشراء. الموظفة تعرف أن الرجل حضر، ولا تستطيع أن تجزم بما فعله داخل الغرف التي لم تدخلها معه.

طابقت رقم الزائر في سجل الوكالة بالرقم المحفوظ في هاتف يوسف والذي نقلته سهام من سجلها. طلبت حفظ المواد وتحديد من رأى الزائر، وأرفقتها بمسار البلاغين.

اتصلت بمروان لتبلغه بالحاجة إلى استكمال أقوال موكله بشأن المواد المستخرجة. حددت المطلوب، وأبلغته أن الاستدعاء للحضور صباح الأربعاء. قال إنه سيتصل بإدريس ليقابله قبل الموعد. ثم سألها إن كانت صورة المسعف قد ظهرت، فأجابت بأنها ظهرت.

«إذن صار عندكم ما احتفظ به من الليلة.»

«صار عندنا ما استُخرج من الهاتف. لا أعرف بعد إن كان هذا كل ما احتفظ به.»

سكت المحامي لحظة. «سأسأله بهذه الصيغة.»

عند الظهر حضر رشيد البقالي.

هذه المرة حمل ظرفا واحدا، وسأل إن كان يستطيع شرب ماء قبل أن يبدأ. جاء به العون، فوضعه رشيد قرب يده دون أن يفتحه. كان طرف كّمه مطويا قليلا إلى الداخل، وحين عّدله ظهر أن الزر الصغير

فقد خيطه. تفصيل لا تقول له هناء معنى، لكنه جعل الرجل أقل ترتيبًا من صورته في الملف.

«فهمت أن هناك أسئلة جديدة.»

«عن أمور قديمة أيضا.»

أخبرته أنها ستعود إلى خلاف الثلاثاء، وإلى علاقة كمال بملفات مكتبه. وضعت أمامها نسخة الملف القديم، وأبقت الأوراق التي قدّمها في استماعيه السابقين إلى جانبها. أرادت أن يشرح ما يعرف قبل أن تعطيه صيغة يصلح جوابه على مقاسها.

قال إن كمال صار يريد تسوية بعض الأمور بسرعة، وإن السرعة كانت موضوع خلافهما. سألت أي أمور، فأخرج من الظرف ورقة تحمل أسماء ملفات ومواعيد طلبات. وضعت الورقة بجانب المحضر وانتظرت جوابه.

«هل قال إنه يريد كشف شيء؟»

رفع رشيد وجهه، وأخذ وقتا قبل الجواب.

«قال إنه يريد أن ينتهي من أشياء. لا أريد أن أضع كلمة لم يقلها كي تبدو الجملة مناسبة لما حدث.»

«وماذا فهمت أنت؟»

«أنه تعب.»

«ممن؟»

التفت إلى كأس الماء. «منّا جميعًا، ربما.»

فتحت هناء ملف شركة كانت طرفًا في انتقال عقار أسرة الحسوني، وطلبت شرح دوره ودور كمال في المعاملة، كلًا على حدة. قدم أسماء ووثائق قال إنها موجودة، وأثبتت ما يجب طلبه من مصادره.

كلما قال «الشركة»، أعادته إلى الشخص الذي وّقع أو أمر أو تسلم. لم يتضايق من الدقة، لكنه طلب أن ُتراجع بعض التواريخ قبل أن يجيب عنها من الذاكرة.

حين ذكرت سلمى، مال إلى الخلف.

«كانت موظفة عندي. القضية موجودة.»

«الملف لا يعفينا من السؤال. هل تعرف لماذا أراد كمال لقاءها؟»

«لم يخبرني بموعد.»

«سألت عن السبب.»

«كان يتصل بها في شأن أوراق، على ما فهمت لاحًقا.»

«لاحًقا متى؟»

تحركت أصابعه نحو الظرف. «بعد أنُ سئلت عنها هنا.»

كتبت التاريخ الذي حدده.

قال رشيد إن سلمى كانت ترى أن كمال يستطيع مساعدتها، وإنه ربما وعدها بأكثر مما يملك. سألته عما يثبت ذلك، فأجاب بأنه تفسير، لا شيء سمعه منها.

«إذن نكتبه تفسيرك.»

«هذا ما قصدت.»

عادت إلى مساء الجمعة. اتصال التاسعة وعشرين دقيقة تحقق وجوده ومدته من البيانات، والطرف الآخر أكد الحديث. سألته إن كان الاتصال كله من أمام المطعم.

«من الخارج. كان الضجيج في الداخل مزعًجا.»

«هل بقيت في موضع واحد؟»

«قرب المدخل، أظن. تحركت خطوات. لا أتذكر أين وقفت كل دقيقة.»

«وهذا الاتصال هو الذي أشرت إليه حين قلت إنك خرجت للهاتف؟»

«نعم.»

ثبتت الجواب: اتصال التاسعة وعشرين دقيقة هو الذي خرج من أجله، وفق ما قال. وضعت توقيته إلى جانب قوله.

سألته عن كمال في الأيام الأخيرة، خارج العمل. نظر إليها طويلًا حتى ظنت أنه سيطلب تفسير صلة السؤال بالقضية.

«منذ مات، كل من يسألني عنه يريد يوم الثلاثاء أو الجمعة»، قال. «عشت معه سنوات لا يعرف أحد الآن أين يضعها.»

تركت القلم على الورقة.

فتح كأس الماء وشرب قليلًا.

«في آخر أشهر أمي كان يأتيها بالجريدة. كانت عيناها قد ضعفتا، ولا تقرأ منها شيئًا. كنت أقول له إنه ينسى ذلك. قال لي إنها لا تنتظر الجريدة؛ تنتظر أن تسأله عما فيها.»

«كان يقرأ لها الأخبار التي تضحكها، ويحذف الباقي. إذا دخلت الغرفة توقفا عن الكلام كأنني جئت أراقبهما.»

ابتسم هذه المرة، ثم انطفأت الابتسامة حين أدرك أنه بلغ آخر الحكاية.

«متى زارك آخر مرة في البيت؟»

ذكر زيارتين، وخلط تاريخ إحداهما بالأخرى، ثم صححه.

عاد رشيد إلى الظرف حين رأى القلم يتحرك من جديد.

«يوسف يحتاج إلى من ينتبه إليه.»

«بأي معنى؟»

«الديون. كان كمال يغضب منه، لكنه يعود فيدفع. الآن لن يجد من يفعل.»

«هل رأيته يهدد عمه؟»

«لا أريد أن أستعمل كلمة تهديد. سمعت كلاًما قاسًيا.»

أعطاها المناسبة والكلمات واسم من حضرها. طلبت الاستماع إليه. قال رشيد: «أنا لا أتهم يوسف».

سألته إن كان يعرف شيًئا عن بيع يوسف صور مقتنيات كمال. توقف قبل الجواب.

«يعرض أشياء على التجار أحيانًا. كمال كان يرسله.»

«وسؤالي عن الصور.»

«لا أعرف صفقة بعينها.»

قرأ المحضر، وصحح اسم شخص في قائمة الملفات، وطلب أن تبقى عبارة «على ما فهمت لاحقًا» كاملة. أعادته هناء إلى التاريخ الذي حدده لذلك الفهم، فوافق عليه. وّقع، وأغلق القلم دون أن يختبره على ورقة جانبية هذه المرة.

عند الباب سأل إن كانت فاطنة ما زالت ُتستدعى كثيًرا. قالت إنهم يتصلون بها عند الحاجة. أومأ، وقال إنها تخاف أن تخطئ في اسم فيتسبب ذلك في أذى أحد.

«قلنا لها أن تميز بين ما رأته وما تظنه.»

نظر إليها، ثم قال: «هذا صعب حتى على من اعتاد الكلام.»

خرج، وترك الكأس نصف ممتلئ.

عادت هناء إلى كلامه عن أمه، ووجدت نفسها تريد أن يكون صحيحًا. أضافت هذه الرغبة إلى ما ينبغي أن تنتبه إليه في قراءتها، دون أن تحول الحكاية إلى كذبة كي تتخلص منها.

قبل نهاية الدوام وصل طلب التحقق من زيارة يوسف ليلة الخميس إلى الفريق المعني بالبوابة. لم يكن السجل في يدها بعد. كتبت في صفحة المقارنة: «زيارة يقر بها، وسبب ناقص، وتوقيت يحتاج إلى مطابقة». وتحت اسم رشيد: «حضور في العشاء مثبت في لحظات، واتصال مثبت، واستمرار الوجود يحتاج إلى ما يتجاوز قول صاحبه». وتحت إدريس: «وجود واتصال وصور ومهمة أخفاها، لا دليل مستقل على دخول سابق حتى الآن».

ثلاثة أسطر لا تتساوى في القوة، لكنها لا تسمح بأن يبتلع أحدها الآخرين.

أعادت رسالة الثالثة والعشرين وست وأربعين إلى الشاشة. مرسل اختار كلمة «الموعد»، ورجل احتفظ بالرسالة رغم ما قد توحي به، وامرأة تقول إن الهاتف خرج من يدها قبل ساعات. سهل أن يختار المحقق أكثرهم كذبًا ويجعل الكذب جوابًا عن القتل. الأصعب أن يعرف أي كذبة تخفي أي فعل.

على مكتب قاسمي تُركت نسخة من التقرير الصوتي. مّرت هناء لتودع ما استجد، فوجدته يراجع طلبات البحث، وقد كتب بجوار اسم إدريس: «احتمال الدخول السابق».

ناولته ورقة الرقم المتكرر.

قرأها، ثم أضاف اسم الوكالة إلى قائمة المطلوب. لم يشطب السطر الذي يخص إدريس.

وهي تغلق ملفها، رن هاتف المصلحة. استمع الزميل القريب من الباب، وسأل عن العنوان مرة ثانية. رفع رأسه نحوها قبل أن ينهي الاتصال.

«رجل مسن نُقل حيًا إلى المستشفى بعد سقوطه على درج. كان فاقد الوعي حين حملوه. اسمه بنعيسى.»

الفصل الثامن عشر

من يعرف الطريق

الثلاثاء والأربعاء، 3 و4 فبراير

طلب إدريس من سائق الأجرة أن يتوقف قبل المدخل، وأكمل المسافة إلى المستشفى وهو يتصل بعادل.

كان مروان قد أخبره بالسقوط قبل عشر دقائق. قال إن بنعيسى نُقل حيًا، وإن ما عدا ذلك ينتظر جوابًا من الفريق المعالج. سأل إدريس عن القسم قبل أن يسأل من وجده. الآن لا يتذكر إن كان قد شكر المحامي أو أنهى المكالمة في منتصف كلامه.

رد عادل عند الباب الزجاجي.

«أين أنت؟» سأله إدريس.

«في المكتب. لماذا؟»

«أحتاج أسماء من سألتهم عن الرجل الذي كان معي.»

لم يسّمه. في اللحظة نفسها أحس بسخف هذا الاحتياط المتأخر، الاسم يعرفه رجال في المقهى، ورقم الهاتف يرن ولا يجيب، وهو يقف في مدخل يخشى أن يُقال له فيه إن صاحبه لن يستعمله ثانية.

«بنعيسى في المستشفى. سقط على الدرج.» قبض إدريس على إطار الباب حتى استقام صوته.

«من سألت، ومتى، وماذا قلت بالضبط؟»

«هل تتهمني؟»

«لا أعرف بعد ما الذي حدث. أريد أن أعرف ما الذي فعلناه.»

وعده عادل بأن يراجع دفتره ويأتي. طلب منه إدريس ألا يتصل بأحد ممن سألهم قبل أن يتكلما، ثم صحح الطلب: لا يريد منه أن ينسق رواياتهم أو أن يحذرهم من سؤال الشرطة. يريد أسماءهم كما هي، وبقية الأمر سيعرضه على مروان. قال الصحفي إنه فهم، وأغلق.

في الداخل امرأة تحمل كيسًا فيه نعال، ورجل يشرح لموظف أن اسم أخيه يُكتب بالياء لا بالألف المقصورة. وقف إدريس خلفهما. أحس بأنه يستطيع أن يستعمل أي اسم آخر إن كان ذلك سيجعله يصل إلى بنعيسى أسرع، وأن لا أحد هنا يعرف مقدار ما بينهما من كلام مؤجل.

حين جاء دوره قال إنه صديق للمصاب. طُلب منه الانتظار، فانتظر.

وجد مروان عند نهاية الممر، يحمل كوب ماء لم يشرب منه. نهض حين رآه، وأشار إلى المقعد المجاور.

قال إدريس قبل أن يجلس: «أنا أعطيت عادل الورقة. ظننت أن إخفاء الاسم يكفي لإخفاء الرجل.»

وضع مروان الكوب على المقعد بينهما.

«هل عرفت شيئًا يربط ذلك بسقوطه؟»

«لا.»

«إذن لا تبدأ بتوقيع رواية لا تعرفها.»

«اتصلت بالصحفي. سيأتي بأسماء من سألهم.»

«هذا يفيد. لوم نفسك لن يحفظ أسماءهم.»

جلس إدريس. في آخر الممر دخلت ممرضة من باب لا يحمل اسم بنعيسى، فنهض نصف نهضة ثم عاد. كل باب يتحرك يجعل الجسد يستعد قبل أن يعرف السبب.

جاء قريب لبنعيسى بعد قليل، رجل نحيف يحمل شاحًنا وهاًتفا قديًما. عرف إدريس من وصف سمعه، وتوقف أمامه دون تحية طويلة.

«أنت الذي كان يجلس معه؟»

قال نعم. كانت الجملة تتسع للجلسات كلها.

قال القريب إن بنعيسى ُوجد عند البسطة السفلى في عمارة يسكن فيها. امرأة نزلت لتأخذ خبًزا رأته، فنادت صاحب محل قريب. لم ير أحد منهما بداية السقوط. الباب الخارجي كان مفتوًحا، وهذا يحدث كثًيرا قبل المساء.

«هل دخل معه أحد؟» سأل إدريس.

«لا أعرف.»

«هل قال شيًئا؟»

هز الرجل رأسه، ثم مد الشاحن إلى مروان كأنه يعرف ما يفعل به أكثر منه. قال إنه جلبه احتياًطا، ربما يحتاجه حين يفيق. أخذ إدريس الشاحن ووضعه بجوار الكوب. كان سلكه ملفوًفا بعقدة صغيرة، من النوع الذي يصنعه بنعيسى حين يريد لشيء رخيص أن يعمر.

خرج طبيب، وتحدث إلى القريب أوًلا. سمع إدريس من مكانه أن الحالة خطرة، وأن المصاب تحت المراقبة، وأن الحديث عن الوعي أو الكلام سابق لأوانه. لم يعط الطبيب زمًنا للانتظار. سأل القريب إن كان يمكنه الدخول لحظة، فُأجيب بأنهم سيخبرونه متى أمكن ذلك.

تقدم إدريس خطوة.

«هل إصابته من السقوط؟»

نظر الطبيب إليه، وسأله عن صلته بالمصاب. أجاب، فأحال الكلام عن التفاصيل إلى القريب، واكتفى بقوله إن العلاج الآن هو الأولوية، وإن تحديد كيفية الإصابة ليس جواباً يعطى في الممر.

رجع إدريس إلى المقعد. لم يكن في الرد ما يثبت اعتداًء ولا ما ينفيه. ومع ذلك وجد نفسه يستعيد كلمة «كيفية» كأنها علامة تركها الطبيب عمدا.

قال مروان: «لا تحمل الكلمة أكثر مما قال.»

«لم أقل شيئًا.»

«وجهك قال إنك وجدت شيئًا.»

فك عقدة الشاحن وأعادها.

وصل عادل بعد نصف ساعة، بمعطف مفتوح ودفتر صغير. جلس إلى الطرف الآخر، وبدأ بالاعتراض الذي كان يحمله منذ المكالمة.

«اتفقت معك ألا أنشر الورقة قبل التحقق. لم أتفق ألا أتحقق منها.»

«أعرف.»

«وسألت عن مصدرها لأنك رفضت أن تسميه. هذا عملي.»

قال إدريس: «أعرف.»

توقف الصحفي. ربما كان مستعدًا لدفاع أطول. فتح الدفتر، ووضع إصبعه على صفحة مؤرخة بالاثنين الثاني من فبراير. طلب مروان أن يروي ما فعله، وأن يميز بين ما في الدفتر وما يتذكره الآن.

بدأ بالنادل في المقهى. سأله إن كان يتذكر إدريس والرجل المسن، ثم وصف موضع الجلوس. النادل تذكر الرجلين، وقال إن شخصا حسبه شرطيا كان قريبا يوم لقائهما. لم يعرف عادل إن كان التعرف إلى صفة الرجل صحيحا، ولم ير ذلك بنفسه.

بعدها سأل صاحب محل إصلاح صغير، لأن النادل قال إن المسن يمر به. هناك حصل على الاسم، وعلى معلومة أن بنعيسى يسكن في الشارع التالي. سأله صاحب المحل لماذا يبحث عنه. أجاب أنه صحفي يتحقق من ورقة تتصل بقضية كمال الطاهري.

رفع إدريس رأسه.

«ذكرت كمال؟»

«وإلا لماذا يظن أنني أريد الرجل؟ لا أستطيع أن أقول إنني قريب له.»

كان جوابه سليًما بالقدر الذي ضايق إدريس. ترك له الورقة، وحجب عنه الطريق إلى صاحبها، ثم توقع أن يظل البحث بلا أثر في الناس الذين يسألهم.

«لم أعرض صورة الورقة أو عبارتها»، قال عادل. «سألت عن الرجل وطريقة الاتصال به. كان هناك عامل وشخص ينتظر إصلاح هاتفه. تركت بطاقتي لصاحب المحل، وطلبت أن يتصل بي بنعيسى إن مّر.»

«وهل اتصل؟»

«لا.»

سأل مروان إن كان عادل قد دّون وقت الزيارة. لم يفعل، لكن عنده رسالة أرسلها بعدها إلى زميله بشأن موعد آخر. عرضها عليه. قال المحامي إنها تساعد على تقريب وقت وجوده هناك، لا على تحديد كل دقيقة منه. أومأ عادل، وكتب في الهامش «تقريبي» بنفسه.

أخبر الصحفي مروان باسم صاحب المحل، وأراه عنوانه. وافق على تقديم روايته للشرطة، لكنه طلب أن تُنقل كما قالها، لا باعتبارها إقرارا

بأنه تسبب في اعتداء لم يثبت أصلًا. قال مروان إن هذا من حق الوقائع أيضا.

عندها فتح إدريس رسالته القديمة: «لا تنشر وصفه ولا تبحث عنه قبل أن نتكلم». أرسلها بعد أن انتهى عادل من السؤال. كان قد وضع قفلا على باب مّر منه الناس بالفعل.

«هل اتصل بك أحد بعد الزيارة؟»

راجع عادل هاتفه. اتصال من رقم لا يعرفه مساء الاثنين، لم يجب عنه لأنه كان في لقاء. لم يترك صاحبه رسالة. مد الهاتف إلى إدريس، ثم سحبه قليلًا.

«لن أقول لك إنه يخص هذا.»

«ولا أنا.»

أثبت مروان الرقم والاتصال ضمن ما سيبلغه.

خرج عادل، وبقي إدريس مع مروان حتى أُبلغ القريب بأن لا زيارة متاحة تلك الليلة. عرض إدريس أن يحضر ما يحتاجه، فأعطاه الرجل كيس النعال وطلب أن يحتفظ به؛ لم يعد يعرف أي كيس جاء به وأيها أخذه من يد غيره.

عند الباب الخارجي تذكر إدريس أنه لم يسأل عن هاتف بنعيسى.

قال مروان إن الشرطة ستراجع ما عُثر عليه معه.

«وعندك استدعاء صباح الغد»، أضاف.

«أتذكر.»

«لا أريد أن تذهب إليه من هذا الممر مباشرة. نم قليلًا. وسنراجع ما ستقوله قبل الموعد.»

نظر إدريس إلى الكيس في يده. كان بنعيسى يعرف طرقًا لا تظهر في الخرائط: من يقبل أن يسمع، ومن يبيع خبرًا، ومن يستطيع أن ينقل ورقة من يد إلى يد دون أن يسأل. والآن صار هو الشخص الذي يحتاج إلى من يحمل له نعالًا وشاحنًا، ولا يستطيع أن يحدد لمن.

عاد إلى البيت، ووضع الكيس على كرسي، وفتح حاسوبه ليكتب ما سمعه، بالأسماء والعبارات التي تحفظ الشك في مكانه. حين وصل إلى ما قاله عادل في محل الإصلاح، كتب: «ذكر قضية كمال». توقف، ثم أضاف فوقها: «أنا سمحت له بتصوير الورقة، وعرفت أنه سيتحقق من مصدرها».

صباح الأربعاء، قبل أن يخرج إلى لقاء مروان، اتصل القريب. الحالة ما زالت خطرة، ولم يسمحوا بالكلام معه. شكره إدريس، وسأل إن كانوا يحتاجون شيئًا، فأجابه أن ينتظر خبرًا.

في مكتب المحامي وضع دفتره مفتوحًا، وأخبره بما كتبه. قرأ مروان الصفحة، ثم أعادها إليه.

«هذا بلاغ بما تعرف. لا تضع فيه استنتاجك عمّن فعل.»

«سأوقعه.»

«وهناك ما سُيسأل عنه اليوم من هاتفك.»

«أعرف.»

استعاد صور الساعة التي أرسلتها ليلى، وطلب منتصف الليل، وموافقته التي بدت وقتها أول خطوة في إنصاف امرأة. سيكون عليه أن يسمعها اليوم بلسان شخص لم يحتج إلى أن يصدقها كي يمضي.

في المصلحة سألته هناء عن رسالته إلى عادل قبل أن تسأله عن موعد دخوله الفيلا. كانت رواية الصحفي قد وصلت، وطلبت منه

أصل الورقة التي صُوّرت.

أخرجها من الملف الذي حمله. حملها هذه المرة داخل غلاف بسيط، وقد كتب على ورقة منفصلة متى أخذها ومن أخذها منه. قرأت هناء السطر المطبوع، ثم رفعت عينيها.

«من أعطاك هذه؟»

«بنعيسى.»

«ومتى؟»

أجاب. طلب أن يُثبت أنه لا يعرف من كتب السطر، وأن بنعيسى لم يحدد له صاحب النص بما يكفي ليتعرف إليه.

سألته لماذا لم يقدمها عند الاستماع السابق.

«لأنها تخص رجلًا أثق به، ولأنني خشيت ما قد يحدث له إذا عرفتم دوره.»

«وعرضتها على صحفي.»

«نعم.»

انتظرت بقية الجواب. سكت.

بعد إثبات تسلم الورقة أخبرته أنها ستحقق في ظروف السقوط، وفي استفسارات الصحفي، وأن وجود أحد قرب المقهى لا يكفي لتحديد ما عرفه أو نقله. ثم فتحت مذكرة الهاتف. رأى في أول صفحة صورة اختار زاويتها بنفسه ليلة الجريمة، وقد صارت الآن جزءا من ترتيب اختاره غيره.

خلال الاستماع تكلم عن موافقته على استعادة الساعة، وعن تحققه من تفاصيل دعمت القصة، وعن أشياء تركها دون تحقق. لم يسم ما

فعله إذًا من صاحبة حق؛ تلك الصفة هي أول ما لم يكن يملك إثباته. وعندما سُئل هل كان يعلم أن دخوله دون رضا كمال، قال نعم.

خرج بعد استكمال ما طُلب منه ذلك الصباح، ومروان إلى جانبه، وهو يعرف أن أقواله ستُلحق ببقية الملف وأن استدعاء آخر قد يأتي. الهاتف الجديد في جيبه، والقديم عندهم، والورقة التي أخفاها بنعيسى في جيبه أول مرة لم تعد في يد أي منهما.

عند الرصيف وصلته رسالة من عادل. صاحب محل الإصلاح اتصل به. قال إن رجلًا جاء صباح الثلاثاء يسأل: «هل الصحفي الذي كان عندك وجد بنعيسى؟» لم يسمه، ولم يقل إنه من الشرطة. ثم سأل إن كان المسن ما زال يسكن في العمارة نفسها.

أرى مروان الرسالة. خبر بحث عادل وصل إلى من يعرف العمارة.

قال مروان: «نرسلها، ويُسمع صاحب المحل مباشرة.»

وافق إدريس، وترك ترتيب اللقاء لمروان.

الفصل التاسع عشر

اسم في خانة

الخميس والجمعة، 5 و6 فبراير

حذفت هناء اسم سهام من الجملة قبل أن ترسلها.

كانت المسودة تقول إن المقبس ُشورك مع سهام البركاني. ما في التقرير أضيق من ذلك: معّرف حساب المتلقي ظهر في إدارة مشاركة الجهاز. وضعت المعّرف مكان الاسم، ثم طلبت إلحاق صورة الواجهة وطريقة الحصول عليه بالمذكرة.

في إفادة صاحب محل الإصلاح زائر يسأل عن الصحفي وعمارة بنعيسى. طلبت مراجعة ما يؤيد الزيارة. وبنعيسى ما زال عاجزا عن الكلام.

اتصلت بالتقني الذي فحص هاتف كمال.

كان قد أنهى الجزء المطلوب بشأن التطبيق بعد حفظ المواد التي أمكن استخراجها من الهاتف وتوثيق ما استدعى الرجوع إلى الحساب. فّرق في تقريره بين ما ُوجد على الجهاز وما عرضه الحساب وقت الفحص. هذا الفرق أهم من ترتيب الشاشات؛ الصورة الحالية قد تكون صحيحة تمامًا، ولا تخبرهم بالحالة قبل ثلاثة أسابيع.

«من أي طرف ُتنشأ المشاركة؟»

«من الحساب المالك للجهاز. الحساب الآخر يتّلقى الصلاحية.»

«أي إن شخصًا استعمل حساب كمال لإضافته.»

«نعم. ولا يلزم أن يكون قد استعمل هاتفه نفسه إذا استطاع الدخول إلى الحساب من جهاز آخر.»

وضعت هناء إفادة فاطنة قرب التقرير: يوم الثلاثاء، وتركيب القطعة، وإعدادها على هاتف كمال. كان عليها أن تعود إلى ما جرى بين تلك الأفعال، لا أن تجمعها في فعل واحد.

«هل يثبت ظهور المعّرف أن المشاركة كانت قائمة ليلة السادس عشر؟»

«لا، ليس وحده.»

«وهل يحدد من أصدر أمر التشغيل؟»

«لا.»

الجهاز في حساب كمال يحمل اسًما عادًيا: «المكتبة». ومعلوماته تطابق ما فحص من القطعة المحجوزة. في إدارة المشاركة معّرف حساب متلق، لا اسم رشيد ولا اسم سلمى. أما سجل أوامر ليلة الجريمة، فلم يظهر في المواد المتاحة سجل يمكن الاستناد إليه لإثبات زمن تشغيل أو اسم من أمر به.

«أريد في الخلاصة هذه الجمل الثلاث أيًضا»، قالت.

«هي في المتن.»

نظرت إلى الخط الأزرق الذي كانت قد وضعته على تقدير الوفاة الأول. «أعرف ما يحدث للمتن.»

بعد المكالمة فتحت المرفق الآخر. فاتورة شراء أُرسلت إلى بريد كمال في الثاني عشر من يناير، قبل زيارة الثلاثاء بيوم. وصلت ضمن مراجعة مراسلاته ذات الصلة، ومعها رسالة قصيرة من عنوان آخر:

«للاحتفاظ بالضمان». عنوان المرسل يطابق معّرف حساب المتلقي الذي وّثقه التقني.

تضمنت الفاتورة مقبًسا من الطراز الذي عاينوه، وثمنه، ومرجع الطلب، وبيانات المتجر. لم تتضمن رقًما تسلسًليا يميز تلك القطعة من كل قطعة مماثلة. في خانة العميل اسم مختصر لا يطابق اسم كمال، ورقم هاتف تعرفه هناء من ملف سهام: رقم العمل الذي قالت إنها أعادت شريحته مع الهاتف ظهر الجمعة.

أحالت الرسالة الأصلية للفحص ومرجع الشراء إلى من يتابع المتجر.

وصل قاسمي قبل أن ينتهي من القراءة على مكتبه.

«الرقم باسمها؟»

«وفق البيانات التي عندنا، نعم. وهي تقول إن الهاتف لم يعد معها ليلة الجريمة.»

«والحساب؟»

«نسألها عنه الآن.»

جلس، ووضع الفاتورة بجوار صورة المقبس.

«إذن المرأة التي جهزت دخول إدريس لها صلة بالجهاز الذي قد يغير تقدير زمن الموت.»

«هناك صلة بين رقم استعملته وطلب شراء، وبين عنوان بريد والفاتورة وحساب الجهاز. من كان يستعمل كل واحد منها، وفي أي وقت، هو السؤال.»

أعاد الورقة إليها.

«لا تجعلي كثرة الأسئلة تطرد ما وجدناه. هذه ليست مصادفة لغوية.»

«لن أطردها.»

«وسهام ليست مجرد ممثلة خدعوها حتى تقول هي ذلك ونصدقه.»

«نستمع إليها»، قالت.

رتب الاستماع إليها عبر الطريق الذي وصل به دفاعها، دون أن يتولى إدريس نقل الأسئلة. بدأت هناء بما تتذكره سهام، قبل عرض الوثائق عليها.

حضرت في المساء، تحمل حقيبة صغيرة، وشعرها مربوط إلى الخلف. بدت هيئتها أبسط من صور الورشة والمقاطع المسرحية المرفقة بالملف. كانت امرأة تأخرت عن الرجوع من سفر قصير، ولم تعد تعرف ما الذي ينتظرها إذا رجعت إلى بيتها.

بدأت هناء بهواتفها، لا بالمقبس.

فّرقت سهام بين هاتفها الشخصي وهاتف العمل. الرقم الشخصي استعملته قبل الاتفاق وبعده. أما جهاز العمل، فقد استعملته في التواصل مع إدريس، وأعادته إلى الوسيط كما قالت من قبل. طلبت هناء تفاصيل التسليم: أين، ومنٍ كان حاضًرا، وكيف اتفقت معه على الموعد. أجابت، وصححت وقًتا بعد أن راجعت رسالة محفوظة في هاتفها الشخصي.

«لا أعرف الساعة من رأسي. هذا وقت رسالتي قبل أن أنزل.»

ُسجل التصحيح مع مصدره إلى جانب الجواب الأول.

بعد ذلك سألتها عن الحسابات التي استعملتها أثناء العمل. ذكرت حساب مراسلة، وعنوان بريد ُأنشئ لغرض العمل، وقالت إن الوسيط طلب أن تكون بياناته منفصلة عن حساباتها الشخصية. كانت تنتظر فيه

أوراقًا ومواعيد وتعليمات، لم تسأل لماذا يحتاج دور مدته أيام إلى هذا العدد من الأبواب.

«من اختار عنوان البريد؟»

«هو أرسله إلّي.»

«ومن كان يستطيع الدخول إليه؟»

«أنا في البداية. وهو يعرف بياناته. وبعد أن أعدت الهاتف لم أحاول.»

«كيف تعرفين أنه يعرفها؟»

أخرجت هاتفها الشخصي. فيه محادثة مع الرقم المحفوظ باسم «العمل»، تتضمن العنوان وتعليمات تخص استعماله. طلبت هناء فحص الموضع كاملًا بالإجراءات المتبعة، لا تصوير السطر الذي يجيبها فقط. وافقت سهام بعد أن سألت عما سيؤخذ من هاتفها وما سيُثبت في المحضر.

العنوان الذي نطقت به قبل أن تراه مطابق لعنوان المرسل ولمعّرف الحساب الموّثق في إدارة المشاركة. عرضت هناء صورة الفاتورة.

مالت سهام إلى الأمام، وأبعدت الصورة قليلًا لتقرأ.

«لم أشتر هذا.»

«ما هذا؟»

«لا أعرف. شاحن؟»

سألت عن المتجر، وعن الاسم المختصر، وعن سبب ورود رقم العمل في الطلب. نفت المعرفة بالشراء. قالت إن الوسيط كان يستعمل بيانات العمل في أمور لا يسألها عنها. ذّكرتها هناء بأن عدم سؤالها لا يثبت أنه هو من فعل كل ما لا تتذكره.

«أنا لا أستطيع أن أقول لك شيًئا غير هذا.»

«قولي ما تستطيعين، وسنبحث في الباقي.»

«هل اتصل بك أحد من المتجر، أو وصلتك رسالة منه على هاتف العمل؟»

فكرت سهام، ثم هزت رأسها قليًلا. «لا أتذكر. كنت أرّد على من أعرفه. لا أستطيع أن أحصي لك ما وصل إلى ذلك الهاتف.»

أضافت هناء إلى الطلب الموجه للمتجر طريقة تسليم الشراء وإرسال الفاتورة، وما إذا كان قد جرى تواصل مع الرقم المسجل في الطلب.

حين رأت اسم كمال في عنوان الرسالة التي أُرسلت إليها الفاتورة، تغير وجهها. وضعت يدها فوق الحقيبة.

«كنت أظن أن كل شيء متعلق بالساعة.»

«هل رأيت هذا الاسم قبل أن تقابلي إدريس؟»

«نعم. في الأوراق التي أعطوني.»

«إذن الاسم لم يكن جديًدا عليك.»

«الجهاز جديد علّي.»

أثبتت هناء العبارة في المحضر.

سألتها عن الرجل الجالس خلف الوسيط في السيارة. عادت إلى وصفه: صوته، توقفه عند بعض الكلمات، يده حين مد الورقة. لا وجه واضح، ولا اسم. عندما ذكرت الأثر الأخضر، سألتها هناء إن كانت كلمة «حبر» من وصفها الأول أم من سؤال إدريس.

«هو سأل إن كان حبًرا. قلت إنه بدا كذلك، لكنني لا أعرف.»

«هل تستطيعين تحديد الإصبع؟»

أشارت إلى جانب إصبعها الوسطى، ثم حركت الإبهام كما تذكرت الحركة. أثبتت هناء الوصف كما روته، ثم قرأته عليها.

عند انتهاء الاستماع سألت سهام إن كان تسليمها الهاتف سُيصّدق.

«سنتحقق منه.»

«كلما قلت ذلك، أشعر أنكم لم تسمعوني.»

أغلقت هناء الملف.

«سمعتك. ولهذا كتبت المكان والشخص والرسالة. لو لم أسمعك لاكتفيت بكلمة هاتف.»

نظرت سهام إلى الأوراق، ثم وّقعت. ظل قلقها في الحركة التي أعادت بها القلم.

في صباح الجمعة جاء رد المتجر الأولي. مرجع الفاتورة موجود في سجل البيع، والطلب مطابق للطراز والثمن. جرى التسليم لشخص جاء ليستلم الشراء، والدفع لم يعطهم اسم صاحب بطاقة يستطيعون الرجوع إليه. البائع يتذكر طلب نسخة إلكترونية للضمان، لكنه لا يجزم بوجه المشتري بعد كل هذه المدة. لم تضع هناء اسم الوسيط في الفراغ الذي تركه. وأكد أن نسخة الفاتورة أُرسلت إلى البريد الذي أعطاه المشتري. أما استعمال رقم الهاتف للتواصل، فطلب مهلة لمراجعة ما يحتفظ به المتجر؛ لم يكن جوابه الأول يتناوله.

على ورقة منفصلة كتبت تحت عنوان البريد أربعة أفعال: اختاره، عرف بياناته، استعمله، أصدر الأمر. أمام الأول قول سهام ورسالتها؛ أمام الثاني ما تسمح به الرسالة؛ أمام الثالث حاجة إلى تحقيق أوسع؛ أمام الرابع بياض.

عند الظهر استكملت مع إدريس نقطة طلبها مروان في أقوال الأربعاء. قال يومها إن عمله السابق جعله يعرف كيف تتشابه تقارير مستقلة في ظاهرها حين يكون مصدرها واحدا، وإن ذلك كان مما أوقعه في تصديق ليلى. أرادت أن تحدد ما يقصد، لا أن تسجل حكمة تصلح لأي ملف.

جاء ومعه نسخة من مذكرة قديمة من عمله في التأمين. البيانات التي لا تخص قوله حُجبت في النسخة التي أعدها مع محاميه، وأرفق بيانا بمصدرها وبما حُجب منها. قدمها لشرح دوره، على أن تُطلب الأصول إذا اقتضى الأمر.

«كنا نرتب الملفات التي تحتاج إلى مراجعة»، قال. «في النسخة الأولى، الدرجة تعني أولوية الفحص. في عرض لاحق صارت تسمى درجة الاشتباه.»

«ومن غيّر الاسم؟»

«اقترحه مسؤول القسم.»

«وأنت؟»

وضع إصبعه على حافة الورقة.

«وافقت على العرض.»

أبقت قلمها فوق الورقة حتى تسمع بقية الجواب. هذه المرة كان الفاعل جالسا أمامها.

«تكرار العنوان وتأخر الوثائق كانا يرفعان درجة الملف. بعض الناس يستعملون المكتب نفسه لإعداد الأوراق. نعّد العنوان والتأخر سببين، وربما نشآ من الخدمة نفسها.»

«هل كنت تعرف ذلك؟»

«عرفت أنه احتمال يجب فحصه. كتبته في الملاحظات.»

«وهل ظهر في العرض الذي وافقت عليه؟»

«باختصار.»

طلبت النسخة المعنية. قلب الأوراق، ثم توقف. في الصفحة التي قدمها كان الرسم كبيرًا، والملاحظة تحت الجدول بخط أصغر. لم يحتج إلى أن يقرأها حتى يعرف كيف ستبدو من الطرف الآخر.

«قالوا إن التفاصيل تعطل القرار. قلت إن الشرح موجود في الملحق.»

نظر إلى عينيها هذه المرة.

«كنت أعرف أن أكثرهم لن يقرأ الملحق.»

تذكرت هناء خطها الأزرق تحت ساعة الوفاة، وأعادت نظرها إلى الملاحظة أسفل جدوله.

«والرجلان اللذانُ سجنا؟»

«اسُتعملت نتائج عملنا في ملفيهما. لا أعرف كل ماُ قّدم للمحكمة. عرفت الحكم، ثم اكتشفت تلاعبًا أوسع في الملفات.»

«هل طلبت تصحيح التقرير؟»

«اعترضت. أرسلت مذكرة داخلية.»

«وبعد ذلك؟»

طال صمته.

«احتفظت بنسخ.»

انتظرت.

«واستقلت.»

«هذه الأوراق ستحتاج إلى مراجعة مستقلة»، قالت.

«سأضع ما يخصهما أمام مروان.»

«وعد، أم بدأت؟»

«بدأت تسليم ما عندي.»

أثبتت قوله مع ما قدمه اليوم، دون أن تعتمد الأرشيف الذي لم تره بعد. ثم عادت إلى السؤال الذي جاء من أجله: لماذا اعتبر تحقّقا من قصة ليلى أشياء ترجع إلى القصة نفسها؟

«لأنني كنت أريد أن يكتمل العمل»، قال. «كل تفصيل صحيح جعلني أقل رغبة في السؤال عما بقي.»

«وأنت تعرف هذا من عملك.»

«نعم.»

في نهاية الاستماع جمع النسخ التي أعيدت إليه، وسأل عن بنعيسى. أعطته ما يمكن قوله عن حالته دون تفاصيل طبية ليست لها، وأخبرته أن صاحب المحل أدلى بأقواله. لم تكشف ما سيفعلونه بعدها.

بعد خروجه وصل مروان إلى الهاتف من جديد. قال إن عند موكله صورا إضافية تخص الساعة، التقطت بعد الإفراج عنه، وإنه يريد تقديمها مع بيان عن مصدرها، لا إرسال لقطة مبتورة.

رفعت هناء القلم عن خانة البريد.

«صور للساعة نفسها؟»

«هذا ما يقول.»

«هل الساعة عنده؟»

«سأتكلم معه في حضورك عن ذلك. لكنه وافق الآن على تسليم الصور والبيان.»

«الآن لا يجيب عن السؤال.»

«أعرف.»

حددت موعدًا قريبًا، وطلبت أن يأتي بما يستطيع تسليمه دون أي تنظيف أو تغيير. لم يكن طلبًا تقنيًا وحسب. في كل مرة يفتح إدريس جزءًا من أرشيفه تجد إلى جواره بابًا اختار أن يظل مغلقًا.

عادت إلى الجملة التي حذفت منها اسم سهام في الصباح السابق. حفظت صيغتها الدقيقة وأرسلتها مع المرفقات.

ثم فتحت ورقة جديدة وكتبت في أولها: «صور اُلتقطت بعد الإفراج».

الفصل العشرون

ما لا يقوله الأخضر

الجمعة، 6 فبراير

وضعت هناء صورة الساعة بجوار صورة الصندوق الذي فُتشت شقة إدريس من أجله.

عرفت الموضع: الرف، والغبار الذي انزاح عند حافة الغطاء، والمفك الكبير. هذه الأشياء رأتها بنفسها في التفتيش الثاني. يومها كان الصندوق فارغًا من الساعة. في الصورة التي قدمها إدريس الآن تظهر داخل قطعة قماش مطوية في زاويته.

«متى التقطت هذه؟»

ذكر مساء الاثنين التاسع عشر من يناير، يوم خروجه من الحراسة النظرية، ثم أشار إلى البيان الذي أعده مع مروان. التاريخ مثبت فيه، ومعه ترتيب الصور وما فعله حين وجد الساعة. قال إنه يصحح بذلك ما تركه خارج أقواله السابقة.

«وجدتها قبل أن نعود إلى الشقة.»

«نعم.»

«وكان البلاغ يقول إنها هناك.»

«نعم.»

«وأنت نقلتها.»

نظر إلى مروان، ثم عاد إليها. «نعم.»

قرأت البيان: صّور الساعة ونقلها إلى مكان لم يسمه، وفتح أغطيتها دون تنظيف.

«لماذا؟»

«خفت أن يجدها من جاء يبحث عنها.»

«والآن؟»

«ما زلت أخاف.»

ترك الجملة عارية.

سألت عن مكانها. قال إنه يعرفه، وإنه لا يريد ذكره الآن. طلبت منه أن يقرأ جوابه حين يُثبت، لا أن يكتفي بقوله. قرأه، ثم وضع إصبعه على السطر.

«اكتبيه كما قلت.»

أخبرته أن الصورة لا تعوض الشيء، وأن رفضه تسليمه سُيرفع فوًرا مع إقراره بالنقل، وأنها لا تستطيع أن تعده بما سيترتب عليه. قال مروان إن نصيحته لموكله هي تسليم الساعة كما هي، وإن تقديم الصور ليس اتفاًقا على بقائها عنده.

ثّبت إدريس عينيه على الصورة.

«أريد أن تعرفوا أنها وُضعت عندي.»

«الصورة تقول إنك صورتها هناك. الذي وضعها يحتاج إلى دليل آخر.»

أعاد رواية المالك والوكالة حين سألته عمن دخل الشقة. أحالت جوابه إلى إفادة الوكالة.

«هل كنت تعرف الساعة من الصور فقط قبل هذه الليلة؟»

«من الصور التي أرسلتها المرأة، ومنها صورة قديمة حملتها معي لاحقًا إلى لالة زهور.»

«ولم تحملها من بيت كمال؟»

«لم أحملها من بيته.»

هذه المرة لم يكن في الجملة وحدها ما يكفي. سألت عما حمله ليلة الجريمة، وعن زمن عودته إلى شقته، وعن الأشخاص الذين اتصل بهم بعد ذلك. أجاب عن الوقائع التي اختار تقديمها، وأُثبت ما امتنع عنه.

وصلت إلى اللقطة الداخلية. غطاء صغير، ومفصل، وأثر أخضر يميل إلى السواد عند موضع تجمعه. إلى جانبه جزء من الآلية لا تعرف وظيفته. تذكرت وصف سهام للإصبع الوسطى، ثم تعمدت ألا تنظر إلى إدريس وهي تستعيده.

«لماذا صورت هذا؟»

«لأنني لم أعرف ما هو.»

«وماذا ظننت؟»

«اخضرار معدن. كتبت اخضرارًا داخل الغطاء. خطر لي أنه صدأ.»

«وهل تعرف معدن الغطاء؟»

«لا.»

«هل وضعت عليه شيئًا؟»

«لا.»

طلبت الصور المتتابعة، لا الصورة الأقرب وحدها. في الأولى ظهر موضع الساعة في القماش، وفي أخرى وجهها الخارجي، ثم اللقطة التي تظهر انتقال النظر إلى الخلف. احتاجت إلى وصف مكتوب

لترتيب الفتح، لأن الصورة القريبة تجعل السطح يبدو خارجًيا إنُ عزلت عن بقية اللقطات.

أكد إدريس أن الأثر على الجهة الداخلية قرب مفصل الغطاء الواقي للآلية، لا على الجزء الذي تستقر عليه الأصابع عند حمل الساعة وهي مغلقة. أشارت إلى الموضع في نسخة منفصلة، وطلبت أن يراجع الإشارة بنفسه. صحح انحرافًا صغيرا في رأس السهم، ثم وافق.

«يوسف قال إنه لمسها الخميس»، قالت.

«أخبرت مروان.»

«هل قال إنه فتح هذا الجزء؟»

«سألته عن لمس الساعة ونقلها. لم أسأله عن هذا الغطاء.»

كتبت إلى جوار اسم يوسف: هل فتح الغطاء الداخلي؟

قرأ إدريس ما كتبته، وتوقف عند عبارة تتعلق ببقاء الساعة في حوزته. طلب أن تصبح «يعرف مكانها ويمتنع عن تحديده» لأن العبارة الأولى قد تعني أنها في جيبه. وافقت هناء على الدقة، ثم طلبت منه أن يوقع تحت الجواب الذي لا يتغير بتغيير المسافة بينه وبين الشيء.

وقّع.

خرج ليكمل مع مروان الإجراءات التالية. أرسلت هناء إلى قاسمي الصور والبيان والإقرار بالنقل والامتناع عن تحديد المكان، واتصلت به قبل أن يغلق الملف. قالت إن طلب الأصل لم يعد يستند إلى البلاغ المجهول؛ صاحبه يقّر الآن بأنه يعرف أين وضعه.

جاء قاسمي بنفسه بعد أن قرأ الملخص.

«فتشنا شقته وهو يعرف أين وضعها.»

«هذا ما أقر به.»

«ثم يأتي بصورة صندوق كي نبحث عّمن دخل إليه.»

«سنبحث في الأمرين.»

أخذ الملخص. «أرفع هذا الآن. أريد جوًابا قبل أن يعود إلى نقلها.»

اتصل بالنيابة، ثم عاد إليها بتوجيه المراقبة لتحديد مكان القطعة، وإبلاغها فور ظهور ما يستدعي التدخل. عُهد بالتنفيذ إلى الفريق، وأُلحق التوجيه بالإجراءات المتخذة في ضوء الأقوال الجديدة.

«أين يذهب، ومن يقابل، وما الذي يحمله»، قال. «أريد الوقائع في أوقاتها. وأي تطور يُبلّغ فورا.»

وقف عند لقطة الأثر الأخضر. سألها إن كان دًما تغير لونه. قالت إنها لا تعرف ماهية المادة من صورة، وإنها أحالتها للسؤال عن الفحص المناسب حين تصل الساعة. لم تُسّم الحبر، ولم تُخبره أن إصبع رشيد عاد إلى ذاكرتها. ليس من حق الذاكرة أن تقفز من لون إلى يد.

بعد خروجه اتصلت بالمختصة التي تتولى أسئلة المواد في الملف. شرحت موضع الأثر وما قاله إدريس عن تعامله مع الساعة. أجابتها بأن الصور تساعد في تحديد موضع الفحص، لكنها لا تعطي تركيًبا كيميائًيا. ينبغي الحفاظ على المادة، وفحصها قبل اختيار طريقة قد تستهلك جزءا منها. سألت هناء عن احتمال نواتج تآكل معدن، وعن احتمال مادة انتقلت إليه من الخارج.

«كلاهما سؤال ممكن. لكن لا تنظفي لنا الساعة كي تعرفي أيهما أصح»، قالت المختصة.

«ليست عندي أصًلا.»

«إذن أول ما نحتاجه ليس كاشًفا.»

كان ابنها سيأتي بعد العصر. اتصل أبوه ليؤكد الموعد، وسألها إن كان عليها أن تعمل مساءً. قالت إن هناك شيئًا ستراجعه في البيت، لكنه لن يطول. سكت الرجل لحظة، ثم قال إنه سيضع الكتاب في الحقيبة هذه المرة لأن الصغير يريد أن يريها صفحة منه.

كادت تجيبه بأنها تستطيع شراء نسخة، ثم قالت: «حسنًا. سأكون هناك.»

أغلقت ملفات الأسماء، وكتبت في دفترها سؤالًا عن اللون الأخضر على المعادن.

في طريقها إلى البيت اتصلت بزميلة دراسة قديمة صارت أستاذة كيمياء. كانت قد سألتها صباحًا عن مادة تعليمية بسيطة تراجع بها تغير ألوان مركبات النحاس، بعيدًا عن أدلة القضية. قالت الزميلة إنها ستنجز عرضًا لأمونيا في مختبر المؤسسة قبل أن تغادر، ويمكنها أن ترسله لها مصورًا. لا حاجة إلى نقل عبوات إلى بيت أو اختراع مختبر على طاولة طعام.

وصل الصغير قبل المقطع. وضع حقيبته في المطبخ، وأخرج الكتاب، ثم سأل إن كانت قد أكلت. قالت لا، فأخبرها أنه جائع أيضًا، وجلس كأن السؤال كان اقتراحًا يستطيعان الاتفاق عليه.

حضرت لهما طعامًا بسيطًا. خلال الأكل ذكر اسم زميل انتقل إلى مدرسة أخرى. سألته إن كان سيشتاق إليه. هز كتفيه، وقال إن مكانه في الصف صار فارغًا، ثم تكلم عن شيء حدث في حصة الرسم. تركت له حرية الانتقال بين الموضوعين؛ لا يحتاج كل شعور إلى سؤال يجعله أكبر مما يحتمله صاحبه.

وصل المقطع وهي ترفع الصحون. سألها عما تشاهد، فأخبرته أنه عرض رأته أيام دراستها. وضع كتابه إلى جانبها، وطلب أن يراه.

في الشاشة يد زميلتها بالقفاز، ووعاء صغير، ومحلول معلوم التركيب. ظهرت عكارة زرقاء فاتحة في مرحلة من العرض، ثم لون أزرق أشد مع تغير الظروف. علقت الزميلة بصوتها على ما يحدث: الأمونيا تكّون مع أيونات النحاس الثنائي مرّكبًا له هذا اللون. المادة في الوعاء معروفة؛ ولهذا يصلح العرض لتفسير ما يرونه.

قال الصغير: «كان أفتح. هل أضافت حبرًا؟»

«لا. تغيرت طريقة ارتباط المواد.»

أعادت الجزء الأخير. كان الأزرق في الشاشة جميًلا بالقدر الذي يجعله جوابًا مغريًا. من السهل أن ترى لونًا كهذا ثم تحمل الاختبار إلى كل لطخة خضراء على قطعة قديمة. لكن عينة قليلة، أو مادة لا تذوب بالطريقة نفسها، أو خليًطا من أشياء، قد لا يعطي المشهد المدرسي نفسه. وحتى ظهور تفاعل يدل على نحاس لا يروي من حمل القطعة ولا متى ترك أثره.

سألها ابنها: «إذن الأخضر يصير أزرق؟»

«بعض المواد في ظروف معينة. ليس كل أخضر.»

أخذ قلًما أخضر من مقلمته ومده نحو الشاشة.

«وهذا؟»

«لا نعرف من لونه فقط.»

أعاده إلى المقلمة، ثم سحب قلًما آخر وقال إنهما يبدوان متشابهين على الغطاء لكن أحدهما يكتب أغمق. أرادت أن تقول له إن هذا ما تحاول هي أيًضا تذكره، لكنها اكتفت بطلب ورقة بيضاء. جرب القلمين، وكتب اسمه مرتين. تحت ضوء المطبخ ظهر الفرق الذي وصفه دون أن يحتاج إلى تجربة كيميائية.

شكرت زميلتها وطلبت المراجع، ثم أغلقت العرض.

فتح الصغير كتابه على الصفحة التي أراد أن يريها. جلست إلى جانبه، وبدأ يقرأ. تعثر في كلمة، فنطقها من جديد قبل أن تساعده. عند الفقرة الثانية اهتز هاتفها. أبقت عينيها على السطر حتى انتهى، ثم طلبت دقيقة.

كانت المختصة قد أرسلت جوابًا مكتوبًا عن الفحص الممكن: يبدأ بتوصيف الأثر والسطح، ثم تُختار الوسائل بحسب ما يظهر، مع حفظ ما يكفي لأي مقارنة لاحقة. إذا تبين أنه مادة كتابة، فالتشابه مع حبر آخر قد يدعم المقارنة، ولا يحول قلمًا شائعًا إلى توقيع فريد لصاحبه. لا تاريخ انتقال جاهزا في لون اللطخة.

في الملف صورة ووصف يد في العتمة. الفحص ينتظر الساعة.

رن الهاتف هذه المرة. مروان.

ابتعدت إلى باب المطبخ، حيث تستطيع أن ترى ابنها دون أن يقرأ ما في الشاشة.

«هل سّلم الساعة؟» سألت.

«لم يسّلمها بعد. طلب مني أن أبلغك تصحيحًا في البيان، وأن نرتب تسليمها غدًا.»

انتظرت.

«حين قال إنه لم ينظفها، قصد أنه لم يمسح الأثر ولم يضع عليه مادة. لكنه حملها وفتحها بيديه. يريد أن يُثبت ذلك صراحة، لا أن يُقرأ قوله كأنه حافظ عليها من كل لمس.»

«هذا لازم. يقّدم التصحيح مكتوبًا. ومكان الساعة ما زال مطلوبًا.»

«قلت له إن تسليم هذه القطعة لا يشترط أن يوافقٍ على كل طلب آخر، وإنه لا يستطيع جعل خوفه مما قد ينكشف سببا لتأجيلها. غدا يأتي بالساعة، ونثبت ما يسّلمه.»

ثّبتت الموعد كتابًة وأكدت استمرار إجراءات البحث. أمر المراقبة مع الفريق.

انتهت المكالمة، وكتبت سؤالين للمتابعة: ماذا فتح يوسف ليلة الخميسٍ؟ وماذا لمس إدريس حين وجد الساعة؟ وضعت إلى جانبهما سؤالًا ثالثا عنٍ تاريخ الصور الخارجية عند التاجر، كي يعرفوا أي جزء منها يمكن أنُ يقارن بالصور الجديدة.

من المطبخ سألها ابنها إن كان يكمل وحده.

نظرت إلى الساعة فيٍ هاتفها. الدقيقة التي طلبتها صارت أكثر من خمس. كان الكتابٍ مفتوحا، لكن إصبعه لم يعد تحت السطر؛ وضعه بين الصفحتين استعدادًا لإغلاقه.

عادت، ووضعت الهاتف ووجهه إلى الأسفل.

«أعد الجملة الأخيرة. كنت أسمعك، لكنني لم أنتبه.»

نظر إليها لحظة، ثم أعادها.

هذه المرة تابعت إصبعه حتى نهاية السطر.

الفصل الحادي والعشرون

ما يصل متأخرًا

السبت، 7 فبراير

في الثامنة واثنتين وأربعين دقيقة، اتصل الشرطي ليقول إن إدريس طلب منه الصعود.

كانت هناء قد وصلت إلى المصلحة قبل موعد تسليم الساعة. أمامها طلب الفحص، وخانة المحجوز فارغة. وضعت القلم على عرض الصفحة وسألته عمّا حدث.

«خرج من العمارة، وتقدم نحوي. قال إن عنده موعدًا معك، وإنه يريد أن يثبت المكان الذي سيأخذ منه القطعة.»

«هل أخرجها؟»

«لا. ينتظر عند الباب.»

طلبت منه أن يمنعه من تغيير موضعها إلى أن يصل الفريق. رتبت الحضور، واتصلت بمروان. قال إنه في الطريق إلى موكله، وإن إدريس أبلغه قبل دقائق بأنه سيبّين مكان الإخفاء. سألته إن كان قد نصحه بذلك.

«نصحته بالتسليم. أما استدعاء من يراقبه إلى السطح فاختاره هو.»

حين وصلت، كان إدريس واقفًا داخل مدخل العمارة، ومروان إلى جواره. يداه خاليتان هذه المرة. ألقى التحية، ثم رفع عينيه نحو الدرج. عند الدرجة الأولى من السلم خيط ماء نازل من دلو، وامرأة في الطابق الأعلى تسأل إن كانوا يحتاجون إلى إخلاء الطريق.

قال إدريس: «المكان فوق.»

عرفت هناء السطح من الزيارة السابقة. الغرفة الصغيرة، والخزان، ورقع الترميم التي صُوّرت ولم تُرفع. صعدت خلف المختص، وأبطأت عند المنعطف لتفسح لمروان. كان إدريس قد بلغ الباب، لكنه انتظر حتى أُذن له بالتقدم.

وقف عند بلاطة قرب الجدار، وأشار إليها من دون أن ينحني.

«تحت هذه. الساعة في علبة، والعلبة داخل كيس.»

قبل أن تُرفع البلاطة، صُوّر الموضع وُوصف. تراجع إدريس خطوة حين اقترب المختص، وترك له مكانًا كان يركع فيه وحده.

انكشف الفراغ. ظهرت العلبة الملفوفة، وبجوارها علبة معدنية أصغر. وُثّقتا في صورتين منفصلتين قبل أن تمسهما يد. سألته هناء عن الثانية.

«كنت أضع فيها بطاقة ذاكرة.»

«وأين البطاقة الآن؟»

نظر إلى مروان، ثم أجاب: «أخرجتها في نهاية يناير. منها نسخت صور عملية 2022 التي سلّمتها له.»

كانت تعرف أن مروان سيقدم ذلك الملف اليوم. لم تكن تعرف أن مصدره بدأ تحت الأرضية التي وقفت عليها في التفتيش السابق.

فُتحت العلبة الصغيرة، فإذا هي فارغة. دوّن المختص حالتها. طلبت هناء أن يُثبت إدريس في إفادته تاريخ إخراج البطاقة، وما بقي فيها وما نُسخ منها، وأن يستكمل معه موضوع أصل الملفات. وافق على إثبات ما قاله عن المصدر، دون أن يعرض البطاقة.

التفت إلى الفراغ مرة أخرى. تذكرت هناء وقوفه هنا في يناير، ساكنًا قرب رقع الترميم. الآن صار للموضع رقم في الصور، واسم في

المحضر، وأكثر من شخص يعرف كيف يصل إليه.

فتح المختص الغلاف الخارجي للعلبة الأكبر. ظهر القماش البني، ثم السلسلة، ثم الساعة. ظل الغطاء مغلقًا. قارنت هناء شكلها بما تحفظه من الصور، وأبقت يديها إلى جانبيها.

قال إدريس: «الأثر من الداخل.»

«سُيفتح في الفحص»، أجابته.

«أعرف. فقط... لا أريد أن يضيع.»

رفعت وجهها إليه. على معصمه أثر احمرار عند حافة الكم، كأنه ظل يشده إلى الخلف. في محضر الأمس جوابه عن تأخير التسليم. ستعود إليه بعد أن تصبح القطعة في مأمن.

حُفظت القطعة مع ما أحاط بها، وأُثبتت حالتها ومكان استردادها. راجع إدريس وصف الموضع قبل أن يوقع. عند بند العلبة المعدنية قرأ ببطء، ثم أعاد الورقة من دون تعديل.

قبل النزول، طلب المختص أن يراجع وصف المسافة من الجدار إلى البلاطة. انحنى إدريس إلى الورقة. صحح جهة القياس، ثم أشار إلى الغرفة الصغيرة حتى لا يلتبس الجداران في الوصف. تابعته هناء؛ كان يساعد الآن في كتابة طريق يصلح لأن يسلكه شخص آخر من دونه.

أبلغته بأن الأسئلة عن مصدر الصور وأصلها سُتستكمل، وأن النسخ المقدمة لا تغلق هذا الجانب. قال إنه سيتكلم مع مروان، ثم سأل عمّا سيحدث لعلبة الساعة. أجابته بأنها ستبقى مع بقية ما رُفع للفحص. هز رأسه، ونظر إلى يديه الفارغتين.

في طريق النزول وقف عند النافذة الصغيرة المطلة على الشارع. السيارة التي كان يراقبها من بيته صارت تحتها مباشرة. كان في وسعه أن يصل إلى مروان من طريق آخر، أو يحمل الساعة في جيبه ويقول إنه أحضرها. لكنه جاء بالفريق إلى البلاطة نفسها.

قال لها وهو ينزل الدرجة الأخيرة: «لم أضعها عند أحد.»

أجابت: «سنثبت أين كانت.»

عند الباب سألت المرأة صاحبة الدلو إن كانوا انتهوا. اعتذر إدريس عن الماء الذي حملته أحذيتهم إلى الدرج. انتظرت هناء حتى مرّ، ثم سمعت المرأة تقول إنها ستغسله على أي حال.

في السيارة اتصلت بالمختصة. الأصل في الطريق، والقماش والعلبة محفوظان معه، وتاريخ التعامل الذي أقر به إدريس سُيلحق بطلب الفحص. أعادت تحديد موضع الأثر قرب المفصل الداخلي للغطاء الواقي، وطلبت توثيق الفتح وتسلسله، ومقارنة الحالة بالصور قبل أي أخذ للمادة.

«والسؤال المطلوب؟» قالت المختصة.

نظرت هناء إلى الطلب الذي أحضرته معها.

«ما طبيعة الأثر؟ وما الذي يمكن مقارنته إذا أمكن توصيفه؟ أريد أن نفصل ذلك عن آثار حمل الساعة من الخارج.»

«أرسلي كل صورها السابقة، لا المكّبرة فقط.»

وعدتها بذلك، وطلبت أنْ تُبلغ عند بدء الفحص. أعادت الطلب إلى الملف، وأبقت خانة النتيجة فارغة.

عندما عادت، وجدت مروان عند المكتب ومعه إدريس وملف آخر. انتهت إجراءات تسليم الساعة، فصار على الطاولة ما لا تربطه بها

علبة ولا قماش: صور خزنة، ورواية موقعة، وبيان بالملفات التي نسخها المحامي وتاريخ تسلمها.

كانت الأوراق قد دخلت ذلك الصباح المسار الرسمي المتعلق بالقضية القديمة، بالتنسيق مع من تتولى الدفاع عن سلمى. وصلت إلى هناء نسخة مما يتصل بالبحث في مقتل كمال. على الغلاف اسم امرأة جاءت قبل أسابيع تسأل إن كان كمال قد مات وهي تنتظره.

قبل بدء الاستماع الرسمي، أخذت من مروان بيان التسليم وما أُرفق به. تحدث مع إدريس على انفراد، ثم غادر الغرفة. فتحت هناء الرواية عند أول فعل.

دخلت.

بعده اسم رشيد البقالي، ثم أكتوبر 2022، ثم المبلغ.

أربعمئة ألف درهم.

طلبت من إدريس أن يشرح مصدر الصور وترتيبها. جلس هذه المرة من دون أن يخلع سترته. قال متى التقطها، وما كان في الخزنة قبل أخذه النقود، وما يتذكر أنه تركه. استعمل كلمة السرقة حين وصف ما فعله. حين وصلت إلى المبلغ سألت إن كانت له حصة منه.

«نعم.»

«هل هي مذكورة هنا؟»

«مع ما أعرف من بقية المبالغ. وما يحتاج إلى مراجعة فصلته في آخر الصفحة.»

وجدت ذلك في موضعه. أسماء، ومقادير، ومصدر بعض المعلومات عند بنعيسى. عادت إلى اسم الرجل، وأخبرته بأن إفادته لا يمكن أخذها الآن.

«أعرف.»

«هل قلت له ما ستقدمه؟»

«لا. مروان طلب مني ألا أتصل به لأناقش الرواية معه.»

قلبت إلى الصور. في إحداها صفوف نقود، ودفتر صغير، وعلبة، وجهاز أسود. في التي تليها انكشف جزء من الرف كان تحجبه الرزم. أما الورقة المطوية عند الطرف فظلت حيث كانت.

«هذه لم تأخذها؟»

«لا.»

«هل فتحتها؟»

«لا أتذكر أنني فتحتها. لا أعرف ما بداخلها.»

وضعت ورقة الجرد القديمة بجوار الصورة. الوثائق المذكورة في الشكوى أوسع من أن تتعرف إليها من طرف ورقة مطوية. لكنها لم تعد تستطيع أن تقرأ اختفاء المال والوثائق كفعل واحد ثبت أن سلمى ارتكبته، ثم تنتقل إلى الصفحة التالية.

«هل كنت تعرف أنها اُتهمت؟»

«عرفت في يناير، عند لالة زهور.»

«وبعد العملية، ماذا فعلت لتعرف ما حدث في المكتب؟»

حرك يده فوق ركبته، ثم أوقفها.

«لم أبحث عّمن اُتهم.»

قرأت عليه العبارة حين ُكتبت. أجاب بالإيجاب، وأشار إلى السطر التالي كي تتابع.

في الصفحة الأخيرة توقيع أقدم من توقيع اليوم. ّبين مروان في مذكرة الإحالة عمل الأسبوع السابق: مراجعة ملف الحكم، والتواصل

مع دفاع سلمى، ومضاهاة الوقائع التي يمكن اختبارها قبل تقديم الطلب. طابقت هناء التواريخ: بدأ عرض القضية القديمة قبل تسليم الساعة بأسبوع.

سألها إدريس: «هل وصل هذا إلى سلمى؟»

«دفاعها يعرف ما قُدم.»

«أقصد... هل عرفت أنني أنا؟»

قالت هناء: «وفق ما أُرفق بالطلب، تعرف مصدر الإقرار ووافقت على استعماله في قضيتها.»

خفض إدريس رأسه. سحبت هناء الورقة التالية، وانتظرت حتى رفع عينيه كي تكمل.

كبرت هناء صورة الجهاز الأسود. شريط فاتح فوق جسمه، وحرفان مكتوبان بترتيب الاسم في بعض الأوراق: «ط. ك.» طلبت إدراج صورة كاملة إلى جانب التفصيل المكبر. قالت إنها ستراجع ما يمكن تحديده من الجهاز وما يتصل به من أقوال، ثم عادت إلى رواية السرقة.

انتهى الاستماع قبل الظهر. أرسلت هناء الإقرار ومرفقاته إلى قاسمي لعرض المستجدات على النيابة. انتظر إدريس مع مروان ما سيتقرر بشأنه؛ الساعة صارت محجوزة، لكن إقراره فتح واقعة أخرى تستلزم جوابًا مستقلًا.

وصل العميد بعد دقائق، وقرأ الإقرار واقفًا.

«إذن لم ندخل عالم السرقة من باب افتراضنا عنه.»

«دخلناه من إقراره. هذه الواقعة تُبحث كما وصفها، ومع ما قد يخالفه.»

«والرجل الذي يقول إنه جاء إلى بيت كمال ليأخذ ساعة يستطيع الدخول إلى خزنة موثق وأخذ هذا المبلغ.»

أغلقت هناء الصورة المكبرة، وأعادت الصورة الكاملة إلى الشاشة.

«كان يستطيع قبل أن يقول لنا. الذي تغير اليوم أنه قال.»

جلس قاسمي وترك نسخة الإقرار أمامها.

«أطلب وضعه تحت الحراسة. أقر بسرقة الخزنة، وذكر أشخاصًا وصل إليهم المال. علينا أن نسمعهم قبل أن يصل إليهم.»

أرفقت هناء بالطلب ما تعرفه عن حضوره واستجابته، وعن الصور المسّلمة ومصدرها. جاء الجواب باستكمال التحقق من الإقرار ومضاهاته بالملف القديم، وسماع من ذكرهم، مع إبقائه في حالة سراح في هذه المرحلة: حضر طوعًا، وقّدم صورًا ورواية موقعة، ويمكن إنجاز التحريات المطلوبة دون إبقائه تحت الحراسة الآن. وتستمر التدابير القائمة بشأنه في قضية كمال، ومنها المنع من السفر، وتبقى المراقبة الميدانية جارية.

قرأ قاسمي الرد، ثم قال: «أبلغيه بموعد الاستماع المقبل. وأي محاولة للتأثير في هؤلاء ترفع فورًا.»

غادر إدريس مع مروان بعد إبلاغه بما يخصه من التعليمات. تابعت هناء خروجه من نافذة المكتب، ثم عادت إلى ملف سلمى.

«وهذا يغير سلمى أيضًا.»

رفعت عينيها إليه.

أشار إلى الملف القديم. «إذا كانت قد تحملت فعلًا لم تفعله، فغضبها من الذين ورطوها صار له أصل أقوى. نحتاج إلى ما كانت

تعرفه عن كمال قبل أن تذهب إليه، لا ما عرفته من هذا الرجل بعد موته.»

كانت قد أعدت هذا السؤال منذ استماع رشيد. كتبت في أعلى الصفحة تاريخين، وتركت بينهما مساحة: ما قبل الجمعة، وما بعد العثور على الجثة.

«ستحضر اليوم بعد التشاور مع دفاعها.»

«وعن الجهاز أيضا. اسألي رشيد أوّلا عمّا كان يفعله في خزنته.»

«طلبت حضوره بشأن الصور.»

توقف عند الباب، ثم عاد إلى الورقة القديمة التي تحمل «لن أسامحك».

«هذه لا تختفي لأن إقرار إدريس وصل.»

«ولا يصبح تاريخها يوم الجمعة لأننا وجدناها قرب كمال.»

وضعها فوق الملف برفق. «لهذا نحتاج إلى جوابها.»

جاء رشيد بعد الثانية. أخرج نظارته من جراب جلدي، ووضعها قبل أن يقرأ شيئا. كان قد أحضر معه دفتر مواعيد صغيرا، لكنه أبقاه مغلقا فوق فخذه.

أخبرته هناء بموضوع الصور من غير أن تسمي له كل ما قاله إدريس. عرضت الخزنة كاملة، وسألته إن كان يعرفها.

مال نحو الشاشة. ثبت نظره عند الرف، ثم انتقل إلى علبة الأختام.

«هذه خزنة مكتبي.»

«وهذه الأشياء؟»

سمّى ما تعرف إليه. عند موضع الرزم ضغط إحدى ساقي النظارة بإصبعه كي تستقر. سأل عن مصدر الصورة، فأخبرته بأنها قُدمت مع

إقرار يتعلق بسرقة 2022، وأن تفاصيله سُتبحث في مسارها.

«إقرارَ من؟»

ذكرت إدريس السراج.

أبعد وجهه عن الشاشة، ثم نظر إليها. «وهو يقول إنه أخذ المال فقط؟»

«أسألك الآن عما تتعرف إليه في الصورة.»

صمت قليلًا. في صمته انقباض يمكن أن يصدر عن رجل رأى خزنته بعيني من سرقه. تركت الصورة أمامه حتى أعاد نظره إليها.

حين أشارت إلى الجهاز الأسود قال إنه جهاز لبوابة بيت كمال، كان يتركه عنده أحيانًا بحكم علاقتهما. طلبت تفاصيل وجوده في المكتب، ومن كان يستعمله، وما إذا كان يتذكر هذا الشريط بعينه.

«أعرف الحرفين. كنا نميّز الأشياء حتى لا تختلط.»

«ماذا حدث للجهاز بعد ذلك؟»

عدل النظارة مرة أخرى.

«أعدته إليه. في 2023، على ما أذكر.»

«كيف تتذكر السنة؟»

ذكر شأنًا إداريًا كان يعمل عليه لكمال في تلك الفترة، ووعد بالرجوع إلى أوراقه لتحديده. أثبتت هناء أن التاريخ من ذاكرته، وطلبت ما يؤيده. انتظر حتى انتهت من الكتابة، ثم قال:

«وأظن أنه أعطاه لسلمى.»

رفعت القلم.

«تظن، أم تعرف؟»

«قال لي إنه أعطاها الجهاز لتأتي من أجل أوراقها. هذا ما أتذكره.»

«هل رأيت التسليم؟»

«لا.»

«ومتى قال لك ذلك؟»

«بعد أن أعدته. لا أريد أن أخترع يوماً.»

طلبت أن يراجع ذاكرته وأوراقه، وأن يفصل بين إعادته الجهاز وبين ما ينقله عن كمال. قرأ العبارة كما كُتبت، وأضاف أنه لا يعرف إن كانت سلمى احتفظت به حتى هذه السنة.

خرج رشيد بعد أن راجع أقواله. بقي جراب النظارة في يدها لحظة؛ كان قد نسيه على طرف المكتب. لحق به أحد الزملاء وأعاده إليه. عبر الزجاج رأته يستقبله بكلتا يديه، ويشكره كما لو أعاد إليه شيئًا أكبر من جراب.

جاءت سلمى قبل الرابعة بقليل، ومعها محاميتها. حملت حقيبة العمل نفسها، وفي جيبها الخارجي طرف بطاقة ممغنطة. جلست، وأخرجت البطاقة لتدخلها إلى الداخل حين تعلقت بالسّحاب.

كان آخر لقاء بينهما قد انتهى بطلبها محامًيا. هذه المرة سبقت الاستماع مذكرة من دفاعها، تؤكد الاطلاع على الطلب ومرفقاته، وتطلب ضمها إلى ما يخصها من الملف. التقت محاميتها قبل الدخول، وبقيت الأخيرة قريبة لتعود إليها إذا طلبت التشاور. بدأت هناء بما وصل في القضية القديمة، وبّينت ما قُدم وما سيحتاج إلى فحص.

قالت سلمى: «رأيت صور الخزنة.»

«وهل تريدين إضافة شيء يتعلق بها؟»

«أريد أن تُقرأ مع أقوالي القديمة. كلها. لا الجملة التي قلت فيها إنني أعرف مكان المفتاح فقط.»

دّونت هناء طلبها، وأحالت إلى الملف الموضوع أمامها. سألتها عّما عرفته عن إقرار إدريس، فأجابت بأنها تعرف أنه أخذ المال، وأنه يقول إنه ترك الوثائق.

«هل تواصلت معه بعد أن عرفت؟»

«ليس لأناقش ما سيقوله. ما عنده يقدمه لمحاميه. قلت له ذلك من قبل.»

وضعت هناء صورة الورقة ذات السطر الواحد بينهما، كما فعلت في يناير. هذه المرة قّربتها سلمى بإصبعها.

«خّطي.»

أبعدت هناء القلم عن الورقة، وانتظرت أن تكمل.

«كتبتها لكمال بعد الحكم. في 2022. كنت أريد أن أكتب أكثر، ثم لم أجد شيًئا أريد أن أقوله له غير هذا.»

«كيف وصلت إليه؟»

قالت إنها تركتها في المكتب الذي كانت تعمل فيه، لتصل إلى كمال حين يمّر به. سّمت الموظفة التي تسلمتها، ووصفت المكان الذي وضعتها فيه على الطاولة. سألتها هناء إن كانت رأتها بعد ذلك في يد كمال، فنفت. أثبتت اسم الموظفة لطلب إفادتها. عند الحافة العليا من صورة الورقة توقفت سلمى.

«كانت من دفتر مواعيد صغير أعطونا إياه في المكتب أول السنة. قطعت أعلاها. كان فيه شيء مطبوع، اسم أو تاريخ. لم أرد أن تبدو رسالة من المكتب.»

«هل تستطيعين تذّكر الطباعة؟»

«لا أتذكرها بدقة. الدفتر لم يعد عندي.»

قلبت هناء صورة الورقة حتى أصبحت الحافة أمامها. طرف الحروف المطبوع ما زال ظاهرًا. أضافت إلى طلب إفادة الموظفة البحث عن نسخة من دفاتر المكتب لذلك العام أو نموذج لدى المطبعة التي زّودته بها. دفتر رشيد المغلق فوق فخذه عاد إلى ذاكرتها؛ طلبت نموذج سنة 2022 بالاسم، لا دفترا يشبهه.

«ولماذا كمال؟»

أعادت سلمى الصورة إلى منتصف الطاولة.

«لأنه كان يستطيع أن يقول ما يعرفه.»

«ما الذي كِنت تعرفين أنه يعرفه؟»

طال الصمت حتى سمعت هناء حركة ساعة الحائط. أخرجت سلمى من ملفها نسخة ورقة قديمة، وحددت سطرًا يتعلق بالمال الذي دخل حسابها قبل السرقة. قالت إن كمال كان يعرف السياق الذي ُدفع فيه، وإنها حاولت أن تطلب منه توضيحه حين صار المبلغ جزءا من الاتهام.

«هل أخبرك أحد أنه فعل ذلك عمًدا لاتهامك؟»

«لم أكن أحتاج إلى شخص يخبرني أنني لم أسرق. أما ما اتفقوا عليه، فلا أعرفه. كنت أعرف أنه تركني أشرح وحدي شيًئا يعرفه.»

راجعت هناء السطر مع ما في الملف. لن تجعل كلام سلمى عن المال جوابا نهائًيا عن التحويل، لكنها أثبتت الفرق بين معرفتها بظلم وقع عليها ومعرفتها بمن رتبه. كان قاسمي يريد هذا الفرق أيضا، وإن كان سيقرأه في اتجاه آخر.

انتقلت إلى اتصالات ديسمبر، ثم اتفاق الثلاثاء على موعد الجمعة. كررت سلمى ما قالته من قبل: أوراق، وحديث لا يصلح للهاتف،

واقتراح منها أن يكون اللقاء عند محامٍ. سألت هناء إن كان كمال قد أقر لها بتزوير أو باتفاق مع رشيد.

«لم يسّم الأشياء هكذا. كان يقول إنه سيصلح ما حدث.»

«وهل هددِته إذا تراجع؟»

«قلت إنني لن أعود إلى الانتظار كلما اتصل. لم أقل إنني سأقتله.»

رفعت هناء رأسها، ثم تابعت تدوين عبارتها دون إعادة صياغة.

حين بلغت جهاز البوابة، قدمت صورة كاملة للجهاز قبل التكبير. نظرت سلمى إليه، ثم نفت أن يكون كمال قد أعطاها جهازًا لفتح بيته.

«في 2023؟»

«لا في 2023 ولا بعدها.»

«هل استعمِلت جهازًا يخصه في أي وقت؟»

«لا.»

«هل أعطاك أحد وسيلة أخرى لفتح البوابة؟»

«لا. وقفت أمامها وضغطت الجرس. واتصلت به. قلت لك هذا يوم جئت أول مرة.»

سألتها هناء إن كانت تتذكر عرضًا للجهاز رفضته، أو ظرفاً سلم إليها ولم تعرف محتواه. هزت سلمى رأسها، ثم قالت إنها لا تريد أن تبدأ في تخمين شيء لتجد للسؤال سببًا.

أعادت هناء الصورة إلى الملف. في خانة الجهاز قول رشيد، وفي المحضر نفي سلمى. طلب التحقق من منظومة البوابة ومن الأجهزة التي استُعملت فيها ما زال مفتوحًا.

بدأت مراجعة دقائق الجمعة. الوصول، والجرس، والاتصال في الثامنة وتسع وخمسين، والمغادرة التي تذكرها عند التاسعة وسبع دقائق. سألت عن طريق الرجوع ومن رأته في تلك الليلة، وأفردت لكل واقعة ما يمكن الرجوع إليه. كانت سلمى تجيب وتتابع القلم، إلى أن توقف عند الوقت.

«هل تغير؟» سألت.

«ماذا؟»

«الوقت الذي مات فيه.»

بّينت هناء أن التقدير الطبي لا يسمح باستبعاد فترة زيارتها استبعادًا قاطعًا، وأن البحث في أثر التدفئة ما زال قائمًا.

نظرت سلمى إلى الورقة التي أقرت بخطها، ثم إلى صورة الجهاز.

«هل صار مجيئي هو المشكلة؟»

«نراجع ما جرى تلك الليلة.»

«أنا جئت اليوم لأن الورق الذي ظللت أطلبه بدأ يصل.»

طلبت سلمى إثبات أنها حضرت باختيارها، وقدمت تفاصيل الموعد منذ الاستماع الأول، قبل ظهور إقرار إدريس. أثبتت هناء ذلك. توقفت الجلسة لإحالة المستجدات، وطلبت سلمى التشاور من جديد مع محاميتها. رتبت هناء ذلك، ثم خرجت إلى قاسمي والملف في يدها.

في مكتبه وضعت أقوال رشيد منفصلة عن أقوال سلمى. قالت إن الجهاز لم يُضبط معها، وإن نسبة تسليمه إليها جاءت من رجل تُراجع الآن شكواه القديمة، وإن حضورها عند الباب لا يثبت عبورها.

قرأ العميد الصفحتين، ثم أشار إلى الورقة ذات السطر الواحد.

«أقرت بأنها كتبتها له.»

«وقالت متى. يمكننا اختبار ما تذكرته عن تسليمها.»

«ولها خصومة معه، وموعد، وكانت في المكان خلال فترة لم نعد نستطيع استبعادها.»

«وكان هو من دعاها، بحسب الاتصالات التي نراجعها.»

أعاد الصفحة إلى الطاولة. «أضيفي طلب وضعها تحت الحراسة لاستكمال التحريات التي تستلزم حضورها: مراجعة مسار وصولها ميدانيًا، والمواجهة بشأن جهاز البوابة. وأعيدي عرض وضع إدريس مع المستجدات. أريد القرار بشأن الاثنين.»

قالت هناء: «حضرت كلما استدعيناها. ويمكن أن نطلب حضورها لهذه الإجراءات أيضا.»

«أثبتي ذلك في الإحالة.»

دخلت الإحالة بأقوال سلمى كاملة، وبطلب دفاعها، وباعتراض هناء على ضرورة الحراسة مع استعداد المرأة للحضور. جاء الرد بالإبقاء على التعليمات الخاصة بإدريس في هذه المرحلة، والإذن بوضع سلمى تحت الحراسة النظرية لإنجاز التحريات والمواجهة المحددتين في الطلب، بالنظر إلى ما اجتمع في ملف القتل من حضورها وصلتها بالضحية والقول الجديد عن وسيلة الدخول. قرأت هناء الرد مرتين.

عادت إلى الغرفة.

كانت سلمى قد عادت من لقائها بمحاميتها. أغلقت حقيبتها ووضعتها على كتفها، وأمامها أوراق مرتبة استعدادًا للمغادرة. وقفت حين دخلت هناء، فطلبت منها الجلوس قليلًا.

شرحت لها الإجراء وسببه، وُأثبت وقته، وُأبلغت بحقوقها. استمعت سلمى إلى الجمل كلها دون مقاطعة. حين انتهت، طلبت إبلاغ محاميتها، ثم نزعت الحقيبة عن كتفها.

«أحتاج أن يعرفوا أنني لن أصل إلى العمل.»

سُئلت عمّن تريد إبلاغه. أعطت اسمًا ورقمًا، وصححت رقمًا أخطأت فيه، ثم أخرجت بطاقة العمل ووضعتها فوق الحقيبة. كانت تحمل طرفها بإصبعين كيلا تخدش سطحها بأظافرها.

«وهذه؟»

أخبرتها هناء بأنها ستدخل مع أغراضها في الجرد. بدأت زميلتها تتولى الإجراء، وطلبت من سلمى أن تراجع ما يُكتب. هاتف، ومفاتيح، ومحفظة صغيرة، وبطاقة عمل. عند كيس ورقي مطوي قالت سلمى إنه طعام أحضرته لأنها كانت تنوي الذهاب مباشرة بعد الموعد.

أُغلق الكيس، وُوضع إلى جانب الأشياء.

في الردهة، حين تحركت مع الشرطية، التفتت إلى هناء.

«لا ترجعي صور الخزنة إلى الدرج.»

«ستبقى في الملف.»

«في الملف الذي يخصني أيضا.»

أومأت هناء. مشت سلمى، والشرطية إلى جوارها. في الاستقبال كانت محاميتها تتابع الإشعار وتهيئ طلباتها. مّرت هناء بها قبل أن تعود إلى المكتب.

على الطاولة كان ملف 2022 مفتوحًا عند إقرار إدريس. وضعت هناء إلى جواره محضر ذلك المساء. احتاجت إلى إفساح مكان بينهما، فرفعت كأس الماء الممتلئ من أمام مقعد سلمى.

في أول المحضر القديم اسم المشتكى بها. وفي أول المحضر الجديد الاسم نفسه.

قرأت اسم سلمى كاملًا قبل أن تكتب وقت بدء الحراسة.

سارق الاحتمالات

القسم الرابع



الفصل الثاني والعشرون

الرجل الذي عاد

الأحد، 8 فبراير

وصل إدريس إلى المطعم قبل أنْ تُرفع الكراسي عن الطاولات. من شرفته، عند الطرف الشرقي لطريق مرقالة، كان يرى الساحل يمتد غربا نحو السفح الذي تقوم عنده فيلا كمال. كان عامل يمسح الزجاج من الداخل، وكلما مّرت الممسحة على وجهه المنعكس اختفى جزء منه ثم عاد. أشار إلى الباب الجانبي. هناك وجد عادل يحمل كأسا ورقًيا، وفي يده الأخرى ظرف الصور.

قال الصحفي: «صاحب العشاء وافق أن تراه. صاحب المطعم وافق أن تأتي. وأنا وافقت أن أستيقظ يوم الأحد. بقي أن تعرف ما تبحث عنه.»

«أريد أن أقف حيث وقف المصّور.»

«هذا أعرفه. أقصد ما الذي تريد أن تجده.»

من السيارة المقابلة نزل الشرطي الذي تبعه من البيت. أغلق بابه ونظر إلى المطعم، فرفع إدريس يده تحية قصيرة. في جيبه إيصال تسليم الساعة، مطويا إلى أربعة. كادت الزاوية الصلبة من الورقة تمزق بطانة المعطف كلما أدخل يده، ومع ذلك احتفظ به هناك. للمرة الأولى منذ وجد الساعة يستطيع أن يمد كفه إلى جيبه من غير أن يفكر في شيء عليه إخفاؤه.

قال لعادل: «أريد أن أرى ما إذا كنت أبحث عن شيء موجود، أم عن رجل أكرهه.»

دفع الصحفي الباب بكتفه. «ابدأ بالأول. الثاني ستجده بسهولة.»

كانت القاعة أصغر من الصور. المرايا خلف المقاعد وّسعت ما تراه العدسة، والستائر حجبت باًبا قريبا من المطبخ. على الجدار ساعة تعمل بصمت. نظر إليها إدريس، ثم نظر إلى هاتفه، وترك الاثنين وشأنهما؛ الوقت الذي يحتاجه مضى منذ ثلاثة أسابيع، ولن يعيده تطابق عقربين اليوم.

جاء صاحب العشاء من آخر القاعة. اسمه أمين، رجل عريض الجبهة يلبس سترة صوفية فوق قميص مكوي. حمل حاسوبه بنفسه، وسبق المصافحة بقوله إن الشرطة أخذت النسخ الأصلية من المصّور وإنه أجاب عن أسئلتها مرتين.

«قلت لعادل إنني سأريكما ما أستطيع. لكنني لن أقضي بقية السنة أتذكر أين كان كل ضيف.»

فتح الحاسوب عند الطاولة الوسطى. حين ظهرت الصورة الأولى، أشار إلى رجل واقف في طرفها.

«هذا والدي. كان العشاء له. سبعون سنة، وعملية في القلب خرج منها قبل شهرين. أنظر الآن إلى الصور فأرى تحقيقًا، وهو يراها آخر مرة اجتمع فيها أصدقاؤه.»

في الثامنة وسبع دقائق كان رشيد بين الجالسين، يمد يده إلى طبق بعيد. ثلاثة مقاعد خالية، وكمال غائب عن الصورة كما غاب عن العشاء كله. وراء رشيد نادل يحمل سلة خبز، وفي المرآة ظهر ذراع المصّور.

حّرك أمين الصور بسرعة. الثامنة وثماني عشرة: أبوه والعازف، وخلفهما ثلاثة مقاعد؛ رشيد خارج الإطار. التاسعة واثنتا عشرة. التاسعة وسبع عشرة. العاشرة وست وعشرون. الحادية عشرة وأربعون.

عرض أيضا صورًا ليدين تقطعان قالب الحلوى، وكأس انقلب على منديل. التقط إدريس نفسه وهو ينتظر ظهور وجه واحد في عشرات الوجوه، فعاد إلى أول المجموعة.

«هل نستطيع تشغيل المقاطع أيضا؟»

تغير وجه أمين قليلًا.

«أعطيتها للشرطة.»

«أعرف. سأراها هنا إذا سمحت.»

في المقطع الأول كان رشيد يمسك الورقة التي كتب عليها صاحب العشاء كلمته. الرجل السبعيني فقد موضعه بين السطور، فضحك ورفع نظارته. اقترب رشيد وأشار بإصبعه إلى سطر، ثم أعاد الورقة إليه. في الثاني نهض مع الآخرين لتحية رجل دخل متأخرا. وفي الثالث، بعد العاشرة والنصف، ظهر صوته قبل وجهه؛ كان يصحح اسم مدرسة قديمة ذكرها أحدهم، فتبارى ثلاثة رجال في إثبات أنهم يتذكرونها أفضل منه.

تتابعت المقاطع، يتداخل بعضها مع صور هواتف أخرى. حضور ثقيل، مألوف، موزع بين المائدة والمدخل ووالد أمين. شخص يعيش مساءه أمام أناس يعرفونه منذ سنوات، ويملك في صباح اليوم التالي أشياء صغيرة يختلفون عليها: من دفع ثمن القهوة، ومن أخذ المعطف الخطأ، ومن أطال الحديث.

توقف أمين عند مقطع طويل، ووضع الحاسوب بحيث يراه إدريس وعادل معًا. في بدايته رجل يحمل عودا، وفي آخره أصوات تقاطعه لتطلب أغنية أخرى. رشيد في الخلف، مرة جالسا ومرة واقفا يستند إلى ظهر الكرسي. كلما اختفى وراء جسد أحد الحاضرين عاد إليه صوت أو يد على كتف، ويستمر المشهد بلا قطع ظاهر. سأل إدريس

عن الأصل. كان في هاتف ابنة أمين، ضمن ما سّلمته مع بقية المواد؛ النسخة على الحاسوب نقلتها إلى أبيها صباح اليوم التالي.

«هذه هي التي أراد أبي أن يراها»، قال أمين. «التصوير محترف في الصور، لكن هنا تسمع صوته حين يغني.»

رفع الصوت قليلًا. رجل سبعيني يخطئ في بيت يعرفه أصدقاؤه، فيعيدون له الكلمة، ويصفق قبل أن يكمل لأنهم تذكروها معه. رأى إدريس كيف تلمس أصابع أمين زر الصوت ثم تتركه، وكيف يتحرك فمه مع الكلمات. تراجع بكرسيه ليعطيه مكانًا أوسع أمام الشاشة.

في نهاية المقطع كان رشيد قد انتقل إلى جوار العازف. تُرى قدماه تحت الطاولة من زاوية أخرى في مقطع قصير تال، ثم يظهر وجهه بعد حركة الكاميرا. طلب إدريس أن يرى ترتيب الملفات كما جاء من أصحابها، لا كما جمعها الحاسوب في عرض واحد. ساعده أمين، وكتب أسماء الهواتف فوق مجموعاتها. الوقت الذي يعرضه ملف نُقل من تطبيق يختلف في قيمته عن وقت التصوير في الأصل، وهذا ما سيحتاج الفريق إلى مراجعته. احتفظ إدريس بمصدر كل صورة عندها، وامتنع عن سد المسافات في دفتره لمجرد أن أصبعه يستطيع أن يمر بينها بسرعة.

قال عادل: «من الصعب أن يخرج من هنا كل مرة تتوقف فيها عدسة.»

«أعرف.»

«ومن الأصعب أن يخرج في المسافة نفسها بين عدستين.»

أدار إدريس القلم بين إصبعيه. كانت هذه أقوى حجة سمعها منذ أيام، لأنها جاءت من رجل يريد مثله أن يجد خبرًا. لا أحد يراقب رشيد عمدًا، لكن العشاء كله يراه من جهات متقاطعة. شخص يحييه

من مقعد، وآخر يصوره في خلفية صورة، وصوت يجيبه في مقطع يحمل فيه وجها آخر. لو اختار إدريس رجلًا عشوائيًا من الضيوف ثم حاول أن يمحو وجوده، لوجد المقاومة نفسها.

كتب في أعلى الصفحة: «الفترة المتأخرة». تحتها أسماء المصادر. وفي أسفلها سؤال تركه كما هو: ماذا إذا كان هذا الوقت صحيحًا؟

جرّب أن يقبل الجواب قبل أن يقاتله. رشيد يملك جهازًا في صورة قديمة، ورّكب وصلة، وله معاملات مع كمال. يستطيع أن يكذب في نزاع عقاري، وأن يتاجر بالحقيقة على نحو يضر سلمى، ثم يكون بريئًا من الدم الذي يجمعهم الآن. يوسف زار الفيلا في الليل، ولم يشرح سبب الزيارة كاملًا. والمرأة التي جاءت إلى الباب خسرت سنوات، ورأت الضوء في الداخل، وربما كان في غضبها ما يخفيه صوتها الهادئ. حتى هذه الفكرة الأخيرة يعرف كم يسهل أن يستعملها رجل لم يخسر ما خسرته.

أخذ رشفة من الماء. إذا كان قد اختار رشيد لأنه يكره أن يكون قد خدعه شخص أقل مهارة، فهو يفعل ما فعله حين اختار دفء الجسد جوابًا. أغلق دفتره قليلًا، وشاهد والد أمين يغني إلى نهاية المقطع.

سأل أمين: «هذا هو الوقت الذي قُتل فيه كمال، أليس كذلك؟»

كان إدريس يعرف التقدير الذي نُقل إلى دفاعه، ويعرف التحفظ الذي دخل معه. قال: «كان البحث يركز على آخر المساء.»

«إذن هذا الرجل هنا.»

أوقف الصورة عند وجه رشيد. عيناه نصف مغمضتين من الضحك، وكفه على كتف صاحب العشاء.

«حملت والدتي إلى المستشفى في سيارته مرة»، أضاف أمين. «كل الناس صاروا يقولون الآن: موّثق، معاملات، أموال. أنا أعرف أنه جلس في الممر حتى الثالثة صباحًا. لا أطلب منك أن تنسى ما تبحث عنه. فقط تذكر أن للرجل أيامًا أخرى.»

طوى إدريس طرف الإيصال في جيبه. رأى للحظة يد رشيد على كتفه هو، لو التقاه قبل شهر في بيت بنعيسى، وسمع منه قصة امرأة ضاع حقها. كان سيصدقه على الأرجح. حسن الكلام والمهنة والثياب، ومعها تفاصيل تكفي ليختبرها؛ يعرف هذا الطريق إلى ثقته جيدًا.

طلب العودة إلى صورة التاسعة واثنتي عشرة.

كان رشيد واقفًا قرب الممر، ومعطفه مطويًا على ذراعه. أمامه نادل، وخلفه ستارة مفتوحة قليلًا. موضع جسده يسمح بروايتين: جاء من الباب، أو قام من الطاولة ليخرج. ظل إدريس ينظر إلى المعطف حتى تحّول في عينيه إلى سهم يشير في الاتجاه الذي يريده.

سأل أمين: «هل تتذكر هذه اللحظة؟»

«أذكر أنه جاء يطمئن على أبي. كان يتعب إذا جلس طويلًا.»

«جاء من أين؟»

حّرك أمين رأسه نحو القاعة، ثم توقف. «من هنا، أظن. اسأل من كان بجانبه.»

قال عادل: «المكالمة كانت في التاسعة وعشرين.»

التفت إليه إدريس. كان ذلك مما قاله رشيد في تفسير خروجه، وتناقله الحاضرون حين سألهم الصحفي عن العشاء. عاد إلى الصورة. ثماني دقائق تفصل بين رجل يحمل معطفه واتصال من الخارج. يمكن

أن يقف خلالها عند والد أمين، ويسأل عن صحته، ثم يخرج. رواية مستقيمة، لا تحتاج إلى خيط سري.

أغلق أمين مقطعًا جاءه على شاشة أخرى، وقال إنه سيتركهما مع مدير المطعم. عند الباب عاد ليسأل عادل متى ينشر. أجابه الصحفي بأنه لم يقرر. قال الرجل: «أرسل لي ما ستقوله عن أبي قبل أن يقرأه في هاتف شخص آخر.»

بعد خروجه حرك عادل الظرف بين أصابعه.

«هل ستكتب أن رشيد غادر؟» سأله إدريس.

«إذا عرفت أنه غادر.»

«وماذا ستكتب اليوم؟»

«أن رجلًا اعترف بسرقة اتُهمت بها امرأة، وأن المرأة تحت الحراسة في قضية أخرى.»

«ضع دفاعها في الكلام.»

«تحدثت معها قبل ذلك، وسأتصل بمحاميتها. تعّلمت.»

قال الكلمة وهو ينظر إلى فنجانه الفارغ. على الطاولة كانت صورة الورقة التي أخذها من إدريس قد فتحت الطريق إلى بنعيسى؛ الآن يضع الصحفي أصابعه فوق ظرف آخر ويحسب الطريق قبل أن يمشيه. لم يمنحه إدريس مغفرة يستطيع أن يستريح إليها. سأله عن المستشفى. قال عادل إن الحالة مستقرة بالمعنى الذي لا يطمئن به أحد، وإن ابن أخي بنعيسى يعود إلى البيت ليغير ثيابه ثم يرجع.

دخل عامل يحمل سلة المناديل. توقف عند صورة التاسعة واثنتي عشرة التي بقيت على الشاشة.

«هذا مصطفى»، قال، مشيرًا إلى النادل. «سيأتي بعد الظهر.»

سأله إدريس إن كان يعرف إلى أين يفضي الممر خلفه. أشار العامل إلى الستارة، وقال إن الباب يخرج إلى جانب البناية، وإنهم يستعملونه لإدخال الصناديق. سار معهما إلى العتبة. في الخارج رائحة قشر برتقال وماء تنظيف، ومنحدر قصير ينتهي بالشارع.

وقف إدريس عند الباب، ورأى القاعة من الجهة التي لم تظهر في الصور. من يدخل هنا يصل إلى موضع رشيد من غير أن يمر أمام المدخل الرئيسي. ومن يخرج يستطيع أن يقف في الشارع أو يستقل سيارة. كل ذلك ممكن، وقد يكون الباب ظل مغلقًا طوال العشاء.

قال العامل: «ماذا فعل الرجل؟»

«نحاول معرفة حركة الضيوف تلك الليلة.»

«الشرطة سألت عن المدخل والكاميرا. هذه الجهة ما فيها كاميرا.»

دفع إدريس الباب برفق، ثم تركه مفتوحًا كما وجده. في الشارع المقابل كان الشرطي يتحدث في هاتفه. خطر له أن يبتعد من هذا المخرج، وأن يجعل الرجل يدور حول البناية بحثًا عنه. فكرة قديمة مرت بسرعة، تلتها صورة الساعة تحت البلاطة. عاد من الطريق نفسه.

قبل أن يعود إلى الطاولة مّر إدريس بالمطبخ. أوقفه المدير عند الباب وأشار إلى الأرض الرطبة، فاعتذر وتراجع إلى الممر. على الحائط جدول المناوبات، وعلى رف عال دفتر توصيلات. سأل عن اسم العامل الذي كان يستقبل الصناديق ليلة العشاء، فأجابه المدير أنه يحتاج إلى الرجوع إلى السجل، ثم سأله لماذا يريد الوصول إلى كل من كان هنا.

قال إدريس: «رجل يحتفظ بصور نفسه في آخر المساء. أحاول معرفة أوله.»

«الشرطة تستطيع أن تطلب هذا.»

«سأعطيها ما عندي.»

قال المدير إنه سيسأل مصطفى أوّلا، وإن ما يتعلق بالعاملين سيقدمه للفريق مباشرة. شكره إدريس وعاد إلى القاعة. في جيبه إيصال الساعة، وفي هاتفه رقم عادل، وأمام مدير المطعم اسمه الذي صار اسم لص. اعتاد أن يصنع لنفسه صفة تفتح الأبواب؛ صاحب موعد، مندوبا ينتظر توقيعا، رجلا يعرف شخصا في الداخل. الآن يشرح طلبه، ثم ينتظر أن يوافق صاحبه. كان الانتظار بطيئا إلى درجة تجعله يسمع طرق ملاعق العاملين على الصحون.

اقترب الشرطي من المدخل وسأل المدير إن كان يستطيع شراء قهوة. قال له المدير إنها على حسابه، فأصر على دفع ثمنها. تابع إدريس الحوار من بعيد، ورأى الرجل يضع قطعة نقدية على الصينية ثم يعود إلى الخارج. طوال الأيام الماضية كان يراه وظيفة تلاحقه. الآن يعرف أنه يستيقظ قبل أن يغادر إدريس بيته، ويبرد كوبه كلما تحرك، ويحتاج إلى مرحاض لا يضيع بسببه الرجل الذي يراقبه.

عند الزجاج رفع إدريس هاتفه وأشار إلى أنه سيبقى حتى يأتي النادل. أومأ الشرطي من غير أن يبتسم. عاد كل منهما إلى مكانه.

عند الواحدة جاء رشيد.

عرفه إدريس قبل أن يراه كاملًا: الصوت عند الباب، ثم طريقة إفساحه الطريق لامرأة تحمل طفلة. صافح مديرُ المطعم، ووضع على المنضدة كيسا صغيرا من الورق. قال إنه معطف نسي ليلة العشاء، وإن زوجة أمين وجدته بين أغراض والده. حين رأى عادل توقف لحظة، ثم أقبل.

«أمين قال إنك هنا. ما زلت تجمع الذكريات؟»

رفع الصحفي يده. «أحاول ترتيبها.»

استقرت عينا رشيد على إدريس. عرفه. جاءت المعرفة هادئة إلى وجهه، كأن شخصا أخبره منذ زمن أنه سيجده هنا.

«السيد السراج.»

نهض إدريس. «نعم.»

مد رشيد يده. نظر إدريس إليها لحظة أطول مما ينبغي ثم صافحه. كانت دافئة، وعلى طرف الإصبع الوسطى أثر قديم يكاد يختفي عند الظفر. سحب رشيد كرسيا بعد أن استأذن، وجلس كما يجلس رجل جاءت به مصادفة ثقيلة فاختار أن يتحملها.

«قيل لي إنك سّلمت الساعة.»

«سّلمتها.»

«هذا أفضل. صاحبتها انتظرت كثيرا.»

شعر إدريس بفكه ينقبض. كان يستطيع أن يسأله أين كانت صاحبته حين استقرت ساعتها في خزنة كمال، وأين كان هو حين ضاعت الدار. في المكان عاملان يسمعان، وصحفي، وشرطي عند الزجاج. فتح كفه على الطاولة.

قال: «وقيل لك أيضا إنني سّلمت صور الخزنة.»

أومأ رشيد. «رأيتها.»

«وسلمى؟»

«أرجو أن تعرف الحقيقة كلها. هذا ما قلته أمس.»

كاد عادل يتدخل، فرفع رشيد يده إليه برفق.

«دعه. من حقه أن يسألني. أخذ مالي، وأنا كنت أعتقد أن موظفة ساعدت من أخذه. الآن يقول إنه دخل وحده. علينا أن نعود إلى ما حدث.»

قال إدريس: «كان عليها أن تعيش ثلاث سنوات حتى نعود.»

خفض رشيد عينيه إلى السطح المصقول. «نعم.»

جواب قصير، مستعد لأن يحمل الندم الذي يريد سامعه أن يضعه فيه. ثم رفع رأسه.

«هل كنت تعرف أنها اُتهمت؟»

«عرفت مؤخرًا.»

«وفعلت الآن ما تستطيع.»

«ما كان علّي فعله.»

ابتسم رشيد ابتسامة صغيرة حزينة. «ليت كل تأخرٍ يُصلح حين نسميه.»

سمع إدريس الجملة في صوته هو، كما لو أنه قالها منذ أسبوع لرجل يبرر خوفه. استند إلى ظهر الكرسي كي يمنع نفسه من الاقتراب. رشيد يعرف كيف يجلس في الجهة التي تتيح له موافقته؛ كلما حاول أن يدفعه إلى الطرف الآخر وجد الرجل يترك له مكانًا بجواره.

مر المدير يسأل عن القهوة. طلب رشيد ماءً، ثم نظر إلى صورة والدهما السبعيني على الشاشة.

«أمين أراكما المقاطع؟»

قال عادل: «بعضها.»

«كان أبو أمين يريد أن يلغي العشاء. خاف أن يتعب فيُفسد فرحتهم. قلت له إنهم لا يأتون ليأكلوا.»

استدار قليلًا نحو إدريس. «في الوقت الذي كنت أنت فيه عند كمال، كنت هنا أجادل رجلًا في أن يأخذ دواءه. سيبدو هذا تفصيلًا اخترعته لنفسي، لكنه موجود في أحد المقاطع، على ما قالوا لي.»

كان المقطع موجوًدا. رآه إدريس قبل ساعة. رجل يقّرب كأس الماء، وصديقه يلوح له كي يواصل الآخرون التصوير. صورة كاملة، يصلح أن يعود إليها أي شخص فيجد ما قاله رشيد.

عندما قام أخذ الكيس من المدير، بعد أن اتضح أن المعطف ليس لأحد العاملين. شكرهما على الجلوس، وخرج. تابع إدريس انعكاسه في المرآة حتى اختفى.

قال عادل: «يصعب أن تكرهه وهو هنا.»

«يسهل أن تثق بما تتحقق منه.»

أعاد إدريس المقطع. رشيد عند الطاولة، وكأس الماء في يده. ثم عاد إلى صورة المعطف. وضع الاثنتين جنًبا إلى جنب، وأحس أنه يفسد فرحة رجل مسن ليحافظ على احتمال لا يستطيع إثباته.

وصل مصطفى في الثالثة إلا ربًعا، ومعه ابنه الذي سيتركه عند أخته قبل العمل. كان الصغير يحمل علبة حذاء فيها مشروع مدرسي، ويمنع أباه من إمالتها. استأذن النادل في وضعها على طاولة بعيدة عن الماء، ثم وقف قبالة الحاسوب.

سأله إدريس عن صورته، من غير أن يذكر خروًجا أو عودة.

ضحك مصطفى. «كنت أطلب منه أن يتركني آخذ المعطف.»

«ليخرج؟» سأل عادل.

التفت إليه إدريس، لكن السؤال وصل.

قال النادل: «لا. كان قد دخل. يده كانت باردة من الخارج، وقال إنه سيتدفأ ثم يعلقه.»

«تذكر يده؟»

«لم ألمسها. هذا ما قاله. ناولني المعطف ثم أخذه ثانية لأن في جيبه شيئًا.»

اقترب الابن ليقول إن أحد أعمدة مشروعه مال. مال أبوه معه، وعدّله بظفره، وعاد إلى الصورة.

«وهذا الباب؟» أشار إدريس إلى الستارة.

«دخل منه.»

خرجت الجملة بلا احتياط، كأنها جزء من ترتيب الكراسي. طلب إدريس أن يحكي ما يتذكره من البداية. كان مصطفى قد تلقى توبيخا لأن الباب الجانبي ترك مفتوحا، فدخل منه هواء بارد إلى أقرب طاولة. رشيد طلب منه شيئًا ساخنا، وعاد هو إلى المطبخ. في ذاكرته وقت خدمة الحساء، لا رقم الساعة. أما الصورة فتضعه أمام الرجل في التاسعة واثنتي عشرة، وهو يعرض أن يحمل المعطف.

فتح إدريس دفتره. كتب تحت الصورة: «عاد». ثم وضع خطًا تحت الكلمة، وأغلق الهاتف قبل أن يري النادل بقية التوقيتات.

سأل مصطفى إن كان مستعدا لتكرار ما قاله للشرطة. تبدل وجه الرجل. نظر إلى ابنه، ثم إلى المدير الذي كان يتابعهم من آخر القاعة.

«أنا أقول ما رأيت. لا أريد أن أدخل في شيء آخر.»

«سنقول إنك قلت ما رأيت.»

صّور إدريس بيانات المطعم بموافقته، واتصل بمروان من الخارج. حكى كلام النادل كما قيل، بما فيه سؤال عادل الذي أدخل فكرة الخروج إلى الحديث. طلب منه المحامي أن يتوقف هنا، وأن يرسل اسم الشاهد وما عرضه عليه من صور، ثم قال إنه سيوصل الطلب إلى الجهة التي تتولى البحث.

«لا تعد إلى الرجل لتجعل شهادته أحسن»، أضاف. «هي جيدة لأنها تخصه.»

وقف إدريس تحت المظلة. المطر بدأ خفيفًا، والزجاج يجمع نقاطًا صغيرة على وجهه المنعكس. في الصورة يعود رشيد عند التاسعة واثنتي عشرة؛ وفي روايته يخرج للمكالمة عند التاسعة وعشرين. خرج مرتين، أو قال النادل شيئًا يحتاج إلى تصحيح. هذه المرة وضع الاحتمالين على الصفحة نفسها.

حين عاد إلى الداخل كان مصطفى قد أخذ ابنه. على الطاولة نقطة صمغ صغيرة سقطت من المشروع المدرسي. لمسها عادل بطرف منديل ثم تركها.

«سأنشر خبر سلمى»، قال.

«الآن؟»

«بموافقة دفاعها، ومن دون اسم شاهدك. الناس عرفوا أنها متهمة قبل ثلاث سنوات. من حقها أن يعرفوا أن شخصًا أقّر بالسرقة.»

سأله إدريس إن كان سيذكر اسمه.

«نعم.»

نظر إلى شاشة الحاسوب. رشيد يضحك في الصورة المتأخرة، ومعطفه معلّق في الخلف، وباب القاعة بعيد. ستخرج صورته هو الليلة بعنوان لص، وسيظل رجل العشاء جالسًا بين أصدقائه.

قال: «اكتب المبلغ كاملًا.»

غادر المطعم من بابه الأمامي، وانتظر حتى شغّل الشرطي محركه. على ظهر ظرف الصور كتب: التاسعة واثنتا عشرة، وترك بجانبها فراغًا.

هذه المرة كان عليه أن يعرف من أين عاد الرجل.

الفصل الثالث والعشرون

قبل وصولها

الأحد، 8 فبراير

حين ضغط الفني الزر، تحركت البوابة نحو هناء. تنحت خطوة، وأبقت عينها على الفراغ الذي يتسع بينها وبين العمود. كان الرجل يحمل جهازا صغيرا عليه ملصق جديد، بينما يتابع زميله شاشة داخل علبة التوصيلات. على الرصيف وقفت سلمى إلى جوار الشرطية، حقيبتها عند قدمها، ووجهها متجه إلى الباب الذي جاءت إليه مساء الجمعة.

قال الفني: «هذه تجربة اليوم. سنفصلها في النسخة عن الأحداث السابقة.»

كان استخراج الذاكرة قد بدأ في اليوم السابق. احتاجوا إلى الرجوع إلى شركة الصيانة لمعرفة تركيب المنظومة، وإلى تمييز وحدة إدارة الدخول عن المحرك الذي يفتح الباب. حفظت الوحدة أحداثا مؤرخة، وأرقام الخانات التي استقبلت أوامرها. فتح للبوابة، ثم فتح آخر، عبور الأشخاص والسيارات خارج ما تسجله.

سألته هناء أن يشرح ذلك لسلمى أيضا. أصغت وهي تمسك طرف كمها، وحين انتهى رفعت رأسها.

«هل سيقول لكم إنني وقفت هنا؟»

قال: «الجرس على دائرة أخرى. هذه تخص أوامر الفتح.»

«إذن جرّبوا الجرس.»

ضغطته بنفسها بعد الإذن. جاء صوته من داخل البيت، واضحًا في السكون. أبعدت إصبعها بسرعة، كما لو أنها سمعت جوابًا كانت تنتظره منذ ثلاثة أسابيع.

وقفت هناء في المكان الذي حددته. من هناُ يرى جزء من الواجهة، والنافذة التي تقابل الممر، وقليل من الحديقة. المكتبة أعمق في الداخل. جاءت سلمى عند الثامنة وثمان وخمسين، بحسب ما تتذكره، واتصلت عند الثامنة وتسع وخمسين، وهذا الوقت في سجل اتصالها. ضغطت الجرس مرتين، ثم اتكأت على العمود لتكتب رسالة. أرادت أن تريهم كيف وقفت، فتحركت الشرطية معها.

قالت هناء: «خذي الوقت الذي تحتاجينه.»

أخرجت سلمى يدها من كمها وأشارت إلى أعلى الباب. «هنا كان الضوء. كنت أرى الضوء وأسمع الجرس، فقلت إنه يتعمد أن يتركني.»

أعادت هناء النظر إلى النافذة. في الليلة الأولى كان الضوء سببًا ليقين كل من وقف خارج البيت بأن فيه حياة. إدريس قال شيئًا قريبًا من هذا قبل أن يصل إلى الجسد. رفعت صورة المعاينة أمام الزاوية نفسها؛ ضوء يتيح رؤية الكتب، ولا يجيب عمّن يستطيع فتح الباب.

وصل اتصال من المصلحة. ابتعدت إلى الرصيف المقابل كي تسمع. كان زميلها قد أنهى مراجعة المواد التي سلّمها صاحب العشاء، وأضاف إليها مقاطع من هاتف ضيف آخر وبيانات تسديد الحساب. في الفترة التي ركّز عليها التقدير الطبي الأولي يظهر رشيد مرارًا، وبين الصور مقاطع أطول مما توحي به اللقطات المنشورة. إفادات الجالسين تطابق انتقاله بين مقعدين قريبين. من بعد العاشرة حتى انفضاض العشاء صار خروجه بالسيارة إلى الفيلا وعودته يحتاج إلى فراغ لا يجدونه.

قال الزميل: «صورة العاشرة وست وعشرين ليست وحدها. المقاطع قبلها وبعدها، وفي آخرها الرجل الذي أوصله إلى بيته.»

نظرت هناء إلى بوابة كمال. «أبقوا المقاطع كاملة. وأرسل لي مواضع الانقطاع أيضا.»

أغلقت الهاتف، وكتبت عند اسم رشيد أن وجوده في المطعم متماسك خلال الفترة المتأخرة. منحته هذا المكان في الصفحة من غير أن تستدعي الإصبع الأخضر أو خزنة 2022 لتزيحه منه. لو كان كمال حيًا إلى العاشرة، صار اتجاه البحث عن قاتله أقرب إلى البيت من تلك القاعة. أما سؤال الوفاة الأقدم فله ملف مفتوح عند الطبيب، وموعد معاينة ذلك العصر.

عادت إلى سلمى. كانت المرأة تجثو عند حقيبتها لتخرج منديًلا، والشرطية تمسك لها الملف كي لا تبتل أوراقه. انتظرت هناء حتى قامت، ثم بدأت من آخر مكان يستطيع شخص آخر أن يضعها فيه قبل الفيلا.

مكان العمل، خروج متأخر، زميلة تقاسمت معها الطريق إلى موقف سيارات الأجرة. التفاصيل واردة في جوابها أمس؛ جاءت هناء اليوم لتجرب طريقها، ولتسمع الأشخاص بعيدا عن صوتها.

قالت سلمى: «هاتف زميلتي مغلق صباح الأحد. قلت لكم إنها تزور أمها.»

«وصلنا إليها. ستأتي إلى العمل لتفتح لنا.»

«هل أخبرتموها لماذا؟»

«تحدثنا معها عن مساء الجمعة.»

نظرت سلمى إلى الشرطية، ثم إلى السيارة. «ستعرف الآن.»

ركبت في الخلف. دفعت حقيبتها إلى الجهة الأخرى لتفسح مكانًا، ثم جذبتها إلى حضنها. جلست هناء أمامها، وطلبت من السائق أن يسلك الطريق الذي وصفته، مع إثبات أنهم يسيرون فيه صباح الأحد، في حركة مختلفة عن مساء الجمعة. أعطت سلمى اسم الشارع التالي قبل أن يسألها أحد.

في العمل فتحت زميلتها الباب وهي تحمل مفاتيح كثيرة على حلقة حمراء. اسمها سناء. كانت ترتدي ثياب زيارة، ومعها ابن أختها الذي تركته عند المحل المجاور حين رأت السيارة. تبادلت المرأتان نظرة خاطفة، ثم بدأت سناء تشرح أن التأخر ذلك اليوم كان بسبب اختلاف في الجرد.

«نعّد الشيء مرتين قبل أن نغلق. إذا وقع خطأ يرجعون إلينا.»

قالتها وهي تنظر إلى يدي سلمى، كأنها تتأكد من خلوهما. أدارت المفتاح ورفعت الضوء. انكشف مكتب ضيق خلف قاعة عرض، ودفتر كبير على الطاولة، وآلة عّد قديمة موصولة بالكهرباء.

انتقلت سلمى مع الشرطية إلى الغرفة الأمامية. سألت هناء سناء وحدها، ثم راجعت ما أخرجته من أوراق. مساء السادس عشر من يناير انتهى الجرد بعد الثامنة والنصف؛ اتصلتا بالمسؤول عن الصندوق لتسوية الفرق، وسجل هاتف سناء يضع بداية المكالمة عند الثامنة واثنتين وثلاثين، ومدتها أربع دقائق. وصف المسؤول الاتصال من طرفه، وتذكر أنه طلب الحديث مع سلمى لتقرأ رقمًا من السجل. عند الثامنة وإحدى وأربعين أرسلت سناء صورة الصفحة المصححة إلى مجموعة العمل، بعد أن وّقعتاها. الصورة محفوظة في هواتف أخرى أيضًا.

ناولتها الهاتف. في الصورة طرف كم سلمى الأزرق، وكفها تمسك الورقة من الزاوية. على السطر الأخير رقمان، أحدهما مشطوب، وإلى جواره توقيعان متجاوران.

«بقينا إلى أن أجابنا بالموافقة»، قالت سناء. «ثم خرجنا معًا.»

كان الجواب في المجموعة عند الثامنة وثلاث وأربعين. بعده رسالة قصيرة من سناء: «أغلقنا». سارتا إلى الموقف. تعّرفت سناء إلى السائق لأنه ينقلها أحيانًا إلى حي أمها، وأعطت رقمًا حصلت عليه منه في مناسبة سابقة. غادرت هي في سيارة أخرى، وشاهدت سلمى تصعد وحدها في الخلف.

عادت هناء إلى القاعة الأمامية. جلست سلمى على كرسي الزبائن، وتابعت رجلي سناء وهي تقطع المسافة إليها. وقفت الأخيرة أمامها، وحركت المفاتيح في يدها حتى رّنت الحلقة.

«كان يكفي أن تقولي لي إنهم سيسألون»، قالت.

«قلت اسمك أمس.»

«أقصد قبل أمس. حين بدأت الحكاية.»

أخفضت سلمى عينيها إلى بطاقة عملها التي أعادتها إليها الشرطية لتثبت الموضع الذي تستعملها فيه. مررت إبهامها على الصورة الصغيرة، ثم أعطتها إياها من جديد.

خرجت هناء لتتصل بالسائق. جاء بعد أقل من نصف ساعة، غاضًبا من أن مكالمتين قطعتا عمله، ثم هدأ حين فهم أنه مطلوب ليتذكر راكبة. عرف سلمى بعد أن رآها، وتذكر الطريق لأن الزحام عند تقاطع أجبره على الدوران من جهة أخرى، ولأن الراكبة طلبت منه إبطاء المذياع أثناء اتصال تلقته قبل الوصول. أما الدقيقة التي نزلت فيها فكانت خارج ذاكرته.

أخذ الفريق تفاصيله، وطلب السجلات التي يمكن الرجوع إليها بدل أن يُحّمل الرجل دقة لا يملكها. هناء اكتفت الآن بالطريق الذي ربطه بها: من موقف العمل إلى قرب الفيلا، ومن دون توقف في بيت آخر. حين عاد إلى سيارته، سأل سناء إن كانت ستحتاج إليه مساءً. قالت إنها ستتصل.

في طريق العودة طلبت سلمى من هناء أن تترك نسخة من صفحة الجرد عند الإدارة. فهمت هناء أنها تريد حفظ دليل اليوم الذي غابت فيه عن عملها للتحقيق، قبل أن يتحول الغياب نفسه إلى قصة جديدة. وعدتها بأن طلب الوثائق سيُثبت، وأن دفاعها يستطيع الحصول على ما يلزمه بالطريق المقرر.

قالت سلمى: «أريدهم أن يعرفوا أن الحساب كان صحيحًا.»

من المقعد الأمامي سمعت هناء حركة الورق على ركبتيها. كان حساب النقود قد استقام تلك الليلة بعد أربعة دراهم ناقصة، وفي صباح اليوم التالي بدأ حساب آخر ابتلع ما حوله.

وصل تقرير استخراج البوابة قبل الظهر. قرأته هناء في السيارة المتوقفة، وسلمى داخل المصلحة مع محاميتها. الخانة الثالثة أرسلت أَمري فتح في الثامنة وإحدى وثلاثين والثامنة واثنتين وخمسين مساء الجمعة. مراجعة ساعة الوحدة اليوم أظهرت فرقًا دون الدقيقة، ومعها سجل زيارة صيانة مؤرخ قبل الجريمة بأسبوع تضّمن ضبط الساعة. طلب الفني هامشًا في القراءة التاريخية، وأرفق البيانات التي بنى عليها رأيه. تحت ذلك تنبيه إلى أن رقم الخانة يعّرف الوسيلة المسجلة، وأن نسبتها إلى جهاز بعينه تتطلب مراجعة البرمجة وسجل التغييرات.

مّدت هناء إصبعها بين السطرين، ثم وضعت هاتف سناء المصّور في ذاكرتها بجوارهما. عند الأول كانت سلمى تجيب مديرها من

المكتب. وعند الثاني، إذا استقام ما قاله السائق، كانت في الطريق. حتى تكتمل مراجعة الرحلة، يوجد عندها موضع قوي للدقيقة الأولى، ومسار تؤيده شهادة للدقيقة الثانية.

اتصلت بقاسمي. أعطته الأوقات، وما يقابل كل وقت من مصدر. سألها إن كان في ذلك ما ينفي أن تكون سلمى سلّمت جهازًا إلى غيرها.

قالت: «الجهاز نُسب إليها بقول رشيد. الآن عندنا ما يخرجها من استعماله الأول على الأقل، وما يرجح أنها كانت راكبة عند الثاني. سأواجه رواية التسليم بأصلها، قبل أن نبني عليها شخصا آخر.»

«افعلي. وأضيفي زيارة يوسف.»

كانت زيارة الخميس موجودة في السجل ضمن خانة أخرى. ستقارنها بإقراره، وتطلب الجهاز الذي قال إنه يستعمله عادة. شاب دخل إلى مكتبة عمه في الليل وأخفى سببًا، ورجل ظهر جهاز في خزنته ثم قال إنه أعاده منذ سنوات. فتحت صفحة منفصلة لكل منهما، وأرسلت أرقام الخانات إلى الشركة التي تولت التركيب الأول.

في الثالثة وعشر دقائق دخلت المكتبة مع الطبيب ياسين والفني. كان الضوء الطبيعي شاحبًا، والأثاث في مواضعه الموثقة بعد رفع ما يلزم من آثار. عند الباب توقفت فاطنة، تحمل منديلا قماشيًا تطويه وتفتحه بين يديها.

قالت هناء: «سنحتاج إلى ما تتذكرينه عن استعمال الغرفة. تعالي.»

تقدمت المرأة نحو المدفأة، ثم توقفت قبل أن تبلغها. كانت القطعة الأصلية محجوزة، وما أمامهم جهاز مماثل أحضره الفني للمعاينة التفسيرية. أشار إلى ذلك، فتحركت فاطنة نحو موضعه القديم بدل أن تنظر إليه.

«كانت هنا؟»

أرتها هناء صورة الليلة الأولى. قرب جانب المكتب، والوجه الأمامي متجه إلى المساحة التي وُجد فيها كمال. قرب الحائط أثر أخف من السجادة تحت رجل خزانة صغيرة. تذكرت فاطنة الموضع الذي كانت تضع فيه المدفأة قبل ذلك، بعيدًا عن طريق قدميه.

«كان يشتكي إذا اقتربت. يقول إن ساقيه تحترقان ورأسه بارد. أزيحها، ثم يطلب أن أفتح الباب.»

«ومساء الجمعة؟»

«حين خرجت كانت عند الجنب الآخر. أو هكذا أذكر. كّنا ننقل أشياء، لا أريد أن أقول لك إنني قست مكانها.»

انحنى الفني يطابق ما يراه بصورة سابقة أُخذت للغرفة ضمن صور الساعة. الموضع مختلف، لكن الصور متباعدة الأيام. أدرج المقارنة وترك تاريخ النقل مفتوحا. سألته هناء عن وضع المفاتيح الذي وّثقه الفريق ليلة الجريمة؛ شرح أن الجهاز كان مهيأ ليعمل إذا عاد التيار، وأن الوصلة تستطيع قطعه من غير تغيير مفاتيحه. أما مقدار ما صدر عنه من حرارة ومدة العمل، فلهما فراغ في البيانات.

تحرك الطبيب إلى موضع الجسد. طلب أن تُعرض صورة الباب والنافذة كما وُجدا، وسأل عن ساعة فتح النافذة بعد المعاينة. هناء أعطته المحضر، ورأت رقم مذكرتها الأولى بين الصفحات. كل ما حُفظ في تلك الدقائق ما زال يعود إليهم؛ وكل ما اختفى يحتاج الآن إلى شخص يقف مكانه ويقول: أذكر، أو أظن.

قال ياسين: «أريد أن أصحح ما صار يحدث للتقدير الأول.»

رفع رأسه إليهم، ثم عاد إلى الصورة.

«كُتب باعتباره تقديرًا أوّليا مع تحفظات. الآن أراه في الأسئلة كأنه سور يبدأ عند العاشرة. الحرارة القريبة، وموضع الجسد، وما نجهله من تشغيل المدفأة، تمنع استعمال التّبرد هنا على النحو المعتاد. والتحفظ في التقرير التكميلي يعني أن علينا فتح زمن البحث، لا نقل الوفاة إلى ساعة أختارها بدل الأولى.»

سألته هناء: «والتّيبس الذي وصفه المسعف؟»

«ندخله مع ما وجدناه في الفحص. يدعو إلى الحذر من حكاية وفاة سبقت الإنقاذ بدقائق، لكنه لا يعطينا عقربا. الحرارة نفسها تؤثر في مسار التغيرات بعد الموت.»

قالت فاطنة: «لكنه كان دافئًا؟»

نظر الطبيب إليها. «يمكن أن يكون الجلد دافئًا وأن يكون الرجل قد مات قبل مدة أطول مما نتخيل.»

في العتبة صدر صوت قصير من المرأة، كأنها كانت على وشك أن تعترض ثم نسيت عبارتها. مشت إلى الكرسي الذي اعتاد كمال الجلوس عليه، وسّوت طرف المنديل على مسنده.

قالت هناء: «إذن أحتاج إلى جواب مكتوب: هل تسمح المعطيات بإقصاء وفاة سبقت التاسعة؟»

«سأكتب أنها لا تسمح بإقصائها. وأكتب لماذا. وإذا أردتم ساعة محددة فابحثوا عّمن رآه حيا، أو عّما وقع هنا. جسمه لا يحتفظ لنا بتاريخ صالح لكل ما فعل بالغرفة.»

رن هاتف هناء. رسالة من مروان، وفيها اسم النادل وصورة التاسعة واثنتي عشرة، وموجز عن اللقاء الذي جرى بحضور عادل. قرأت كلمة «عاد»، ثم رفعت وجهها إلى الباب. الرجل الذي وضعته صباحا

عند المائدة خلال فترة الوفاة المتأخرة صار يملك مساًء أقدم خارج الصورة، والطبيب يفتح له الطريق إليه.

أغلقت هناء الرسالة قبل أن تجيب عنها. في صورة المعاينة تواجه المدفأة موضع الجسد، فاطنة تتذكرها في الجانب الآخر. وفي تقرير الحساب صلاحيةُ منحت من جهة كمال، وفي إفادتها القديمة رجل أعّد الجهاز على هاتفه يوم الثلاثاء. كانت هذه الوقائع موزعة على ثلاثة ملفات. وضعتها الآن في ترتيب واحد.

من رّكب الوصلة استطاع أن يفتح باب التحكم، ومن قّرب المدفأة اختار ما ستسّخنه. إذا كان العملان لخطة واحدة، أمكن لصاحبها أن يغادر ويترك الغرفة تواصل العمل عنه. عندها يصبح العشاء مكانًا حقيقيًا لرشيد، والدفء خبرًا كاذبًا عن زمن ما فعله قبله.

كتبت: «من كان يمسك هاتف كمال وقت الإعداد؟ وأين كان كمال؟» وتحتها: «من نقل المدفأة بعد مغادرة فاطنة؟» السؤال الأول تستطيع أن تبدأه الآن. أما الثاني فيحتاج إلى ما يتجاوز ذاكرة موضع.

رفعت وجهها إلى فاطنة. أرادت أن تعرف ما الذي حدث للهاتف يوم الثلاثاء، قبل أن تقول للمرأة ما قد تعنيه حركته.

سألت فاطنة عن آخر مرة رأت فيها كمال يتحرك مساء الجمعة، وأعادت تثبيت ما قالته أولًا من غير أن تقترح عليها وقتًا. ثم عادت إلى الثلاثاء، يوم تركيب الوصلة.

قالت فاطنة: «أخذ هاتفه وأعاده إليه. رشيد، أعني. قال لي إن هذه القطعة على قبل الرطوبة، للكتب والساعات. كان كمال يقول له: افعل ما جئت تفعله، واترك النافذة.»

«أين كان كمال؟»

«عند المكتب. ثم قام إلى الخزانة. يفتش عن شيء.»

«وماذا كان على المكتب؟»

ذكرت النظارة وعلبة الأقراص ودفتر الأيام الكبير. طلبت هناء صورة الدفتر من الجرد، فقلبت فاطنة الصفحات المصورة حتى وصلت إلى الأسبوع الذي سبق الوفاة. يوم الثلاثاء تركيب واسم مختصر، ويوم الجمعة سلمى، التاسعة، وتحت الاسم خط قصير.

«كان يفتحه على الأسبوع كله»، قالت. «يريد أن يرى الأيام مًعا.»

«هل رأيت رشيد يتعامل معه؟»

رفعت فاطنة المنديل إلى ذقنها. «حّركه ليضع الهاتف. قلب ورقة ثم أعادها. وشيء قاله كمال عن الجمعة... لا أذكر العبارة.»

انتظرت هناء. في رأسها العبارة التي يستطيع التحقيق أن يصنعها لها بسهولة: سلمى ستأتي. كانت تكفي لجعل الطريق أقصر. أخذت نفًسا، وطلبت من فاطنة أن تصف أين وقفت هي حين سمعت الكلام. عند الصينية، على مسافة الباب، والماء يغلي في المطبخ. أثبتت المشهد كما عاد إليها، ثم طلبت مقابلة الأصل بصور الجرد وإبقاء الصفحة في ملف المقارنة.

خرجت إلى الحديقة لتتصل بمروان. سألته كيف حصل إدريس على الصورة ومن شهد الحديث، وأبلغته أن الشاهد سيسمع مستقًلا. قال إن موكله ينتظر خبر سلمى.

«أرسلت ما تحّقق من طريقها إلى الجهة المختصة، وسيصل إلى دفاعها. والعمل مستمر على وقت الوفاة.»

«هل وصلتم إلى التاسعة؟»

«وصلنا إلى أن العاشرة لا تغلق ما قبلها.»

سكت مروان لحظة. «إذن دعوا الطريق يتكلم أًيضا.»

في الخامسة وصلت إلى المطعم. كان مصطفى يوزع أدوات المائدة، وابنه غائبًا هذه المرة. أخذت إفادته بعيدا عن إدريس وعادل؛ كلاهما غادر قبل مجيئها. حكى طلب المعطف والعودة من الباب الجانبي، ووصف الأسئلة التي سمعها. حين سألته عن وقت سابق، تذكر أنه خرج هو أيضا إلى ذلك الممر لأن ضيفا أضاع ولاعته، وأن موظف التوريد كان يضع صناديق قرب الباب.

جاء الموظف بعد اتصال المدير. ذاكرته أقل سخاءً من ذاكرة النادل. رأى الرجل الذي يحمل المعطف في الممر مرتين؛ في الأولى كان يتجه إلى الشارع، وفي الثانية جاء من جهته. ربط الأولى بمكالمة أجرى خلالها حسابا مع زميله. عرض سجل الاتصال: الثامنة واثنتان وعشرون. وفي الثانية كان يغادر بعربة الصناديق عند التاسعة وثلاث دقائق، وفق رسالة أرسلها إلى السائق ينتظره عند الزاوية. أعطاهم الهاتف لنسخ ما يلزم، وطلبوا من السائق تأكيد وقائع الرحلة.

بين الوقتين باب جانبي وشارع، وبعدهما صورة تثبت الوجود في القاعة عند التاسعة واثنتي عشرة. لا أحد من الرجلين ركب سيارة رشيد أو تبعه. ومع ذلك صار لخروجه قبل المكالمة المتأخرة شاهدان، أحدهما يضع واقعتين في طرفي مسافة زمنية.

عندما وقفت هناء عند الباب الجانبي، لمحت موضع السيارة التي قال العامل إن الضيوف يوقفونها أحيانا. فارغا الآن، وفيه حفرة صغيرة تجمع ماء المطر. سيارة كمال في الحوش، وسيارة رشيد في مكان لا يرونه، وسيارة أمامية محا زمن التسجيل صورتها. أخرجت هاتفها واتصلت بقاسمي.

قبل عودتها إلى المصلحة طلبت أن يسلكوا طريق مرقالة حتى منعطف الفيلا عند سفح الجبل القديم. بدأ زميلها القياس من موضع

وقوف سيارة قرب باب المطعم، وأنهاه عند البوابة؛ ثماني دقائق وأربعون ثانية، وبينهما دراجة أبطأت السير عند المنعطف. في العودة احتاجوا عشر دقائق وربعا، بعدما حجزت شاحنة صغيرة جزءا من الطريق. كتبت وقت التجربة ويومها: الأحد، قبل السادسة. إلى جوارهما وضعت نافذتي الجمعة: تسع دقائق للذهاب، وإحدى عشرة للعودة. الطريق يتسع للرحلة. أما حركة السيارات قبل ثلاثة أسابيع، فليست في سيارتهم الآن.

أعطته النتيجة بالترتيب: تقرير الطبيب سيرفع الاعتماد على العاشرة كبداية ملزمة، والنادل يصف عودة تسبق الاتصال، وشاهد آخر يحدد وقتين لخروج وحضور، ومسار سلمى يراجع بمصادر تتجاوز قولها. طلب منها أن تعود إلى المصلحة.

وصلت فوجدته عند مكتبها، ومذكرة تحويل الشرطيين إلى جوار ورقة أخرى. كان الخبر الذي نشره عادل مفتوحا على شاشة هاتفه. اسم إدريس، ومبلغ السرقة، ومراجعة الحكم القديم. وفي الأسفل إشارة إلى حراسة سلمى، منسوبة إلى دفاعها.

قال قاسمي: «وصلتني اتصالات عن هذا قبل أن يصلني تقريرك.»

وضعت ملف المطعم على الطاولة. «وهذا وصل الآن.»

قرأ الصفحة الأولى، ثم الثانية. سأل عن الشاهدين وعن الصورة وعن مسار سّلمها. أجابت حتى أنهى، ثم أدار الورقة الأخرى نحوها.

«ستُسند متابعة البحث إلى فريق آخر. سّلمي المواد الليلة.»

في أعلى الورقة أسباب تتعلق بإعادة تقييم المسار، وضياع تسجيل كان يمكن أن يحسم حركة الشارع، والحاجة إلى مراجعة مستقلة بعد المستجدات. رقم مذكرتها مكتوب في الوسط.

قالت: «أنا أرسلت التقرير الذي يعيد تقييمه.»

«ويجب أن يأتي من يستطيع مراجعته من خارج القرارات التي اتخذناها.»

«اتخذناها؟»

نظر إلى المذكرة. «موافقتي موجودة. سُترفق معها.»

كانت هذه العبارة أصعب من أن يقول لها إن الخطأ خطؤها وحدها. جلست وفتحت ملف الفهرسة. تستطيع أن تعترض على وقت الإبعاد، وأن تطلب إثبات تحفظها، لكن النادل الذي استمعوا إليه يحتاج إلى متابعة صباحًا، والطبيب سيرسل ورقته، وسلمى تنتظر قرارًا في جهة أخرى. إذا أخذت معها غضبها في الملفات ضاع منها شيء يخصهم.

كتبت طلب إلحاق إفادتي المطعم بمستجدات ذلك اليوم، وأثبتت أن مراجعة التوقيت طُلبت قبل ظهور الخبر المنشور. عند ملف سلمى أضافت طلبًا عاجلًا بإبلاغ دفاعها بنتيجة مراجعة مسارها وما يستكمل منها. نقلت أصول المواد إلى الموظف المكلف، وراجعت أرقامها معه واحدة واحدة.

قال قاسمي عند الباب: «العمل الذي أنجزته سيبقى في الملف.»

رفعت وجهها. «احرص على أن يقرأه من سيتسلمه.»

خرجت في الثامنة والنصف. كان لديها وقت لأول مرة منذ أيام لتصل إلى البيت قبل أن ينام ابنها. اتصلت بأبيه، وشكرته مرتين على أمر واحد، ثم سألت عن الكتاب الذي يقرأه الصغير.

قال الرجل: «انتهى منه أمس. سيبيت عند صديقه الليلة، اتفقا منذ الأربعاء. ظننت أنك تعرفين.»

«نعم. نسيت.»

«يمكنني أن أطلب منه أن يعود.»

نظرت إلى المقعد الفارغ بجانبها. «دعه يكمل سهرته.»

في البيت وجدت الصحنين اللذين أكلا فيهما ليلة العرض مغسولين في الرف. رفعت أحدهما لتصل إلى وعاء صغير خلفه، فاصطدمت حافته بالآخر. على الطاولة الكتاب الذي طلب منها أن تعيد جملته الأخيرة. فتحت الصفحة التي وضعت فيها العلامة، فوجدت علامة أخرى بعد صفحات كثيرة، بخط الصغير نفسه.

جلست وقرأت إلى أن بلغت موضعه الجديد.

عند الحادية عشرة وصلها إشعار من المصلحة بأن تقرير الطبيب أُلحق بالملف، وأن إفادات الطريق أُرسلت مع طلب مراجعة وضع سلمى. قرأت الرسالة، ثم أغلقت الهاتف. في مكان ما كانت هناء أخرى ستبدأ من فهرسها، وتقرر أي صفحة تُفتح أولًا.

أعادت العلامة إلى الموضع الذي تركه ابنها.

هو أيضا تقّدم من دونها.

الفصل الرابع والعشرون

الساعة الثانية

الاثنين، 9 فبراير

كان يوسف يجّرب أن يُدخل الساعة في العلبة حين وصل إدريس. حوافها أوسع قليلًا من الفراغ المبطن، فمال بها وضغط بأحد إبهاميه. أوقفه إدريس من الباب.

«ستكسر المفصل.»

رفع يوسف رأسه، ثم ترك الغطاء يقع بينهما. في الطابق الأرضي من العمارة محل مغلق منذ أشهر، وفوقه ورشة صغيرة يشغلها تاجر المقتنيات. أصوات الشارع تصل من نافذة عالية، وتختلط بدقات ساعات لا تتفق على دقيقة واحدة.

قال يوسف: «كنت ستقول ذلك حتى لو كانت فارغة.»

«اتصلت بي لأنك تريد أن تريني شيئًا.»

«أردت أن أريها لك قبل أن أعطيها.»

في الزاوية وقف التاجر، رجل نظيف الأظافر يحمل عدسة في سلسلة حول عنقه. كان يعرف إدريس بالاسم منذ أن ظهر خبر الاعتراف. وضع أمامه كرسيًا، ثم بقي واقفًا، كأنه يقدم مقعدًا إلى رجل ينتظر أن تنتهي حاجته بسرعة.

الساعة على القماش قريبة من ساعة لالة زهور إلى درجة تؤلم. غطاء، وحلقة سلسلة، ووجه اعتاد إدريس أن يراه في الصور وعلى سطحه. مال قليلًا، فرأى اختلافًا عند الزجاج، وخطًا في الزخرفة يبلغ الحافة في موضع آخر. والأهم أن الشرخ القديم الذي عرفته المرآة

غائب. كل ما جعلها تتذكر زوجها أعيد هنا في معدن يمكن لرجل أن يفاوض على ثمنه.

«هذه التي جئت من أجلها ليلة الخميس»، قال.

أومأ يوسف. «أردت أن أضعهما جنًبا إلى جنب.»

صوت التاجر جاء سريًعا: «صنعتها على أنها نسخة. هذا في طلبي وفي كلامي معه.»

استدار يوسف إليه. «أعرف.»

«قلت للمشتري أيًضا؟» سأله إدريس.

سحب يوسف الكرسي وجلس. نظر إلى الساعة، ثم إلى النافذة. «كنت سأقول.»

التاجر وضع العدسة على صدره، وضبط السلسلة حتى استقرت. طلب إدريس أن يسمع من يوسف من البداية، ثم أضاف أنه سيتصل بمروان، وأن أي ورقة يريد عرضها يجب أن تبقى على حالها. وافق التاجر أسرع من صاحبه.

جاء يوسف ليلة الخميس الخامس عشر إلى الفيلا ومعه هذه القطعة. رأى كمال في المكتبة، وحدث الشجار الذي أقّر به. طلب مًالا، فرفض عمه أن يسدد دًينا آخر من غير أن يرى لمن سيذهب. بعد ذلك تركه ينتظر وخرج إلى المطبخ. كان يوسف يعرف موضع الساعة، ووضع القطعتين على سطح المكتب ليرى الفروق في الضوء الذي صورت فيه الأصلية. حمل الأصلية، وفتح الغطاء الخلفي ليستظهر العلامات التي يستطيع أن يسأله عنها مشتري خبير. ثم سمع عمه يعود، فأعادها وأخفى النسخة في جيبه.

قال إدريس: «قلت إنك أخذت شيئًا يخصك.»

«هذه.»

نظر إليها يوسف كأنه يريد أن يجد في وجودها على الطاولة بقية الجملة التي أخفاها.

«كان ينظر إلى يدي. سألني ماذا وضعت في جيبي. قلت هاتفي. طلب أن أخرجه. أخرجته، وأبقيت الساعة في الجهة الأخرى.»

«ثم؟»

«قال لي أن أمشي. هذه المرة قالها أمام فاطنة.»

حك يوسف مفصل إصبعه. خارج النافذة مر بائع ينادي بصوت ممدود، وانتظروا حتى ابتعد.

«في اليوم التالي مات. آخر شيء فعلته في بيته كان أن أريه هاتفي لأخفي عنه ما أسرقه من اسمه.»

سأل إدريس عن المشتري الذي ينتظر النسخة. أخرج يوسف هاتفه. رجل يعرفه التاجر، شاهد الصورة قبل أسبوعين وطلب أن يفحصها بنفسه. يوسف كان يؤجل، ينتظر أن تهدأ قصة الساعة المفقودة. الآن يحتاج إلى المال في موعد أقرب من هدوء القصة، والرجل سيأتي هذا المساء.

قال التاجر: «أنا لن أقول له إنها الأصلية.»

«وأنا لن أطلب منك.»

«طلبت قبل ذلك أن أترك الكلام لك.»

كانت الجملة كافية ليغّير يوسف جلسته. أسند مرفقيه إلى ركبتيه، وأمال رأسه حتى صار وجهه في مستوى الساعة. اتصل إدريس بمروان وأعطاه الهاتف بعدما أخبره بمنٍ في الغرفة. بدأ يوسف كلامه بجملة «هناك شيء آخر»، ثم سكت طويلا يستمع.

عندما استعاد إدريس الهاتف قال المحامي إنه سيرتب وصول هذه الإفادة إلى الفريق، وإن يوسف يحتاج إلى دفاع يخصه قبل أن يسترسل في أعمال البيع. ثم سأله إن كان أحد قد لمس الساعة الأصلية اليوم. أجابه بأن المعروضة نسخة، والأصليةُ سُلّمت السبت.

«جيّد. اجعلهم يكتبون ذلك على الورقة قبل أن تتحول عندنا إلى ساعتين أصليتين.»

ضحك إدريس مرة، ضحكة قصيرة أدهشته. كان مروان غاضًبا، وصوته يعرف أين يضع الغضب كي يجعل الأشياء أوضح.

أخرج التاجر طلب العمل. اسم يوسف، وصور خارجية، ووصف صريح لنسخة للعرض. تاريخ الطلب يسبق الجريمة، وفي أسفل الورقة مبلغ دفعه يوسف على دفعتين. رآها إدريس فقال إن التاجر ينبغي أن يقدم الأصل ويحتفظ بإيصال، وأن تُصوّر النسخة قبل أن يغادر بها أحد.

بقيت مشكلة الرجل الذي اشترى صور الساعة. الرقم محفوظ في هاتف يوسف، مطابقًا لرقم سهام وحجز الوكالة. آخر محاولات الاتصال به ذهبت إلى هاتف مغلق. سأل إدريس التاجر إن كان الرجل زاره، فأجاب أنه جاء مرة مع يوسف، قبل أن تُلتقط الصور التي بيعت. دخل على أنه مهتم بالساعة، ووقف عند النافذة، وتحدث أكثر عن صاحبها مما تحدث عن آليتها.

نظر يوسف إلى التاجر. «لم تقل لي إن الشرطة سألتك عن زيارته.»

«وصلني طلب بالوثائق. اتصلت بك لتأتي. ماذا أردتني أن أقول في الهاتف؟»

أخرج التاجر دفترًا صغيرًا من تحت المنضدة. بين أوراقه بطاقة حملت رقًما آخر، كتبه ذلك الرجل ليتصل به إذا انقطع رقم العمل.

الاسم الذي قاله يومها مختصر، بلا ما يتيح الاعتماد عليه. التاجر أعطى الشرطة صورة البطاقة في اليوم السابق، وأبقى الأصل مع الوثائق التي سيحملها اليوم.

«هل اتصلت به؟» سأل إدريس.

«مرة. أجاب، وقال إن الاتفاق مع يوسف. وبعدها كنت أحّول من يسأل إليه.»

أحس إدريس بتغير الهواء في الغرفة. رقم ثان، وقطعة تشبه ما اختفى، ورجل يعرف عنوانه وعنوان بنعيسى. أمامه طريق قصير إلى لقاء يستطيع أن يختار كلماته فيه، وأن يحمل شيئًا يدفع الآخر إلى الخطأ. أخذ هاتفه، ثم وضعه على الطاولة واتصل بمروان مرة أخرى.

قال: «عند التاجر رقم آخر. أظن أن الرجل قد يجيب عليه إذا جاءه الكلام من هنا.»

«أعطه للفريق.»

«سأعطيه. عندي فكرة.»

«قلها.»

نظر إلى يوسف. «يقول إن عنده قطعة ثانية يريد بيعها، وإنه يريد استرجاع ما باعه من صور. قد يأتي الرجل ليرى ما الذي يعرفه.»

جاء رد مروان من غير انتظار: «لن تعملوا ذلك قبل أن تتولى الجهة المكلفة البحث الأمر. ولا تجعلوا الساعة نسخة مرة وأصلية مرة بحسب من يسمعكم.»

قال إدريس: «لا أريد أن أبيع له كذبة.»

«إذن قّدم ما عندك كما هو. القرار لهم.»

عند الثانية وصل ضابط مع زميل له. قرأ طلب النسخة، وصّور القطعة والعلبة، وراجع الرقم المكتوب. سمع من التاجر ويوسف كلًا على حدة، ثم طلب من إدريس أن يترك الغرفة بعض الوقت. نزل إلى الدرج وجلس عند النافذة الضيقة. من هناك رأى المراقب في السيارة يرفع كوب قهوة إلى فمه.

أرسل رسالة إلى هناء يسأل إن كانت وصلت إلى المطعم. جاء جوابها بعد دقائق: «المواد سُلّمت. متابعة الملف عند الفريق الجديد. مرّر أي جديد عبر محاميك أو إليهم مباشرة.»

قرأ العبارة الأخيرة، وفهم ما قبلها. اتصل، فأجابت بصوت بيت، قريب من صوت صنبور يُغلق.

«أبعدوك؟»

«أُسندت المتابعة إلى غيري.»

«بسببنا؟»

«لا تجعل كل شيء يدور حولك، يا إدريس.»

فاجأته خشونة الجملة، ثم سمع زفيرًا قصيرًا من طرفها.

قالت: «أنت الآن مع فريق يعرف ما سُلّم. إذا سألك عن شيء، ابدأ بالجواب.»

«يوسف صنع نسخة.»

«قل لهم ما تعرفه عن النسخة.»

«أردت أن تعرفي.»

سكتت لحظة، ثم قالت: «عرفت.»

أنهى المكالمة، وأحس أن بابًا كان مفتوحًا في القضية أُغلق من جهته. هناء تستطيع أن تسمعه، لكنها لم تعد تملك أن تنقل ما يسمعه

إلى العمل كما كانت تفعل. حين ناداه الضابط من أعلى الدرج صعد بسرعة.

كان العمل قد اتخذ شكلًا أكثر بطئًا مما تخيله. الفريق سيراجع الرقم الآخر وما يمكن الوصول إليه منه. إذا جرى اتصال، فسيكون معلومًا لديهم، وتُحفظ رسائله كما وردت. مكان اللقاء سُيختار بحيث يمكن التدخل، ومن سيذهب إليه لن يحمل الساعة الأصلية ولا ورقة من ملف محجوز. أعطى الضابط يوسف فرصة للتحدث إلى محاميه، وطلب من إدريس أن يبقى بعيدًا عن التفاوض.

قال يوسف: «هو اشترى الصور مني. أستطيع أن أسأله إن كان يريد النسخة.»

«اكتب ما تريد قوله، ودعنا نراجعه قبل أن ترسله.»

جاءت الرسالة قصيرة: صاحب الصور طلب تسوية العمل، والنسخة التي صنعتها معروضة للبيع، وهناك من يريد فحصها اليوم. سؤال عن الاتصال قبل السادسة. أحصى إدريس في النص ما يعرفه الرجل أصلًا وما سيتعلمه الآن. صورة، ونسخة، وموعد. كان يستطيع أن يضيف ذكر الساعة عند الشرطة، أو الغطاء، أو الحبر، فيدفعه إلى الاستجابة أسرع. ضغط كفه على ركبته حتى انبسطت الأصابع.

الرسالةُ أُرسلت من هاتف التاجر بحضوره. انتظروا.

في الثالثة اتصل مروان. خرج إدريس إلى الدرج ليسمع. قرار الحراسةُ عرض مع المستجدات، ودفاع سلمى قُدّمت له المواد اللازمة، وهي ستغادر اليوم بعد استكمال ما تقرر. البحث في مقتل كمال مستمر، وإجراءات القضية القديمة تسير في طريق آخر.

سأل إدريس: «هل أستطيع أن أراها؟»

«محاميتها ستخرج معها. سأقول لها إنك طلبت.»

«قل لها...»

توقف. في رأسه جمل كثيرة تبدأ بما فعل، وما سّلم، وما تأخر عنه. نظر إلى الباب المفتوح أعلى الدرج، حيث يوسف يجلس أمام ساعة لا يملك أصلها.

«قل لها إنني موجود إذا احتاجت شيًئا.»

قال مروان: «ستعرف.»

عاد إلى الورشة فوجد يوسف واقًفا، يمسك الهاتف بكلتا يديه. الرد جاء من الرقم الآخر: سؤال عن المكان الذي سُتعرض فيه القطعة، وهل عنده صور لها. سّلم الهاتف إلى الضابط قبل أن يكتب. تواصلت الرسائل، واختير لقاء في محل التاجر السفلي الذي يفتح على الشارع، عند السادسة. قال الرجل إنه سيرى ما عندهم، واشترط أن يحضر يوسف بنفسه لأنه صاحب الاتفاق الأول.

كان إدريس يعرف أن الاختيار قد يكون فًخا في الاتجاهين. قال ذلك للضابط. أجابه الرجل بأنه لهذا السبب لن يقرر أحد التغيير وحده إذا جاءت رسالة جديدة. استمع يوسف ثم طلب كأس ماء.

بعد أن خرج الضابط لإجراء اتصال، انحنى يوسف نحو إدريس.

«إذا رآك سيذهب.»

«سأكون حيث يقولون.»

«أقصد... لا أريد أن أقف وحدي.»

هذه المرة رفع إدريس رأسه إليه من غير أن يعده بالحماية. الرجل الذي طلب الصور يعرف كيف يختار من يحتاج إلى مال، والرجل الذي أعطاها يعرف الآن كيف يصبح الاتفاق العادي بًابا إلى جثة عمه.

قال: «سأنتظر حتى تنتهي.»

اتفقوا أن يحمل يوسف علبة النسخة، وأن تبقى في حوزته إلى أن تتضح غاية اللقاء. صّور الضابط ما تحويه، وأثبت وصفها. حاول التاجر أن يخرج ساعة أخرى من خزانته ليملأ بها واجهة المحل، ثم أعادها؛ يده ترتجف، والأشياء الصغيرة أغلى من أن تتحمل ارتجافه.

كان على إدريس أن يستكمل إفادته عن زيارة الصباح بعد أن يفرغ الضابط من ترتيب اللقاء. طلب منه أن ينتظر في المقهى، بعيدًا عن واجهة المحل، وأجلس معه الشرطي المكلف بمراقبته. قال له عند الباب: «انتظارك هنا لا يجعلك من الفريق. تبقى مع زميلي، مهما رأيت.» نظر إدريس إلى يوسف، وأومأ.

قرب الخامسة والنصف فتح الباب السفلي. دخل ضوء الشارع إلى محل طويل، فيه مكتب قديم ورفوف فارغة وبعض صناديق النقل. وضع التاجر كرسيين، وطلب من يوسف أن يترك الممر إلى البابِ خاليًا. في المقهى المقابل جلس إدريس إلى طاولة جانبية، يحمل كوبًا برد قبل أن يشرب منه. السيارة التي اعتاد رؤيتها عند بيته فارغة؛ صاحبها يجلس الآن أمامه. ومن انعكاس زجاج المقهى كان يرى طرف باب المحل.

اتصلت سلمى.

عرف صوتها قبل أن تنطق اسمه، من النفس الذي سبق الجملة.

«أخذت حقيبتي.»

قال: «قال لي مروان إنك خرجت.»

«بطاقة العمل أيضا. كل شيء.»

في الخلف صوت محرك وامرأة تسأل سائقًا عن الطريق. أراد أن يقول إنه آسف، فسمعها تكمل:

«سنواصل في ملف 2022. قالت المحامية إن هناك طلبات أخرى. حين ينادونك، اذهب.»

«سأذهب.»

«جيد.»

نظر عبر الزجاج. يوسف في الكرسي القريب من المكتب، والعلبة تحت يده. قال إدريس: «هل ستعودين إلى العمل غدًا؟»

«سأتصل بهم. الآن أريد أن أنام في بيتي.»

انتهت المكالمة عند هذا الحد. وضع الهاتف إلى جوار الكأس. فُرِّح ضيق، يتسع لامرأة تعود إلى فراشها، ويضيق عن أن يجعل منه بطلًا. رفع عينيه إلى المحل، فوجد الكرسي فارغًا.

قام قبل أن يعرف ما حدث. الشرطي بجواره لمس ذراعه وأشار إلى يوسف عند الباب؛ كان يتحدث في هاتفه. يده الحرة تمسك العلبة، وعيناه تتحركان في الشارع.

رسالة جديدة وصلت إلى هاتف التاجر: الرجل يقف عند زاوية الطريق، ويريد أن يكّلم يوسف قبل الدخول. نقلها التاجر فورًا إلى الفريق. جاءه توجيه بأن يبقى داخل المحل. رأى إدريس حركة رأس يوسف حين سمع ذلك، ثم عودته خطوتين إلى الداخل.

دقيقة مرت. ثم ثانية.

في الجهة المقابلة خرج رجل من بين سيارتين، يحمل حقيبة قماشية عادية. وقف عند واجهة محل مجاور يقرأ ورقة معلقة، ومال

برأسه نحو باب التاجر. لا عجلة في حركته، شخص جاء ليشتري شيًئا ويخشى أن يكون بائعوه قد أحضروا له شاهًدا على دين قديم.

قال الشرطي بصوت خافت في هاتفه: «ظهر شخص عند الواجهة.»

تحرك الرجل إلى الباب. صافح يوسف من العتبة، وأبقى حقيبته إلى جانبه. كانت المسافة تسمح لإدريس برؤية كفه وشيء من خده، وتمنعه من سماع ما يقول. تمنى لو أن صورة الرجل أوضح في ذاكرته. عرفه آخرون من لقاءات صحيحة؛ هو قضى أسابيع يطارده في وصف وصوت ورقم.

مد يوسف العلبة. الرجل تركها في يده وسأل شيًئا. أشار يوسف إلى داخل المحل. دخلا.

جلس الرجل وفتح الغطاء الأمامي للنسخة. خّف توتر كتفيه، كأنه وجد سلعة بدل الخطر الذي توقعه. قلب الساعة، ثم سأل عن شيء، فهز يوسف رأسه. مرة أخرى السؤال، أطول هذه المرة. وضع يوسف كفه على الطاولة وبدأ يتكلم.

كان الضابط قد طلب منه أن يجيب عن النسخة وعن بيع الصور، وأن يترك للرجل اختيار ما سيقوله بعدهما. لكن يوسف رفع صوته فجأة، حتى بلغ طرفه الشارع. رأى إدريس شفته تقول «عمي»، ورأى الرجل يغلق العلبة بقوة.

نهض الاثنان معًا.

قال الشرطي قرب إدريس: «ابق هنا.»

عند المكتب تحرك التاجر بين الرجل والباب، وفي يده هاتفه. دفع الرجل ذراعه جانًبا، فانقلب الكرسي على الرف. خرج يوسف خلفه، يحمل علبة الساعة من طرفها. رأى إدريس الغطاء يتأرجح، ورأى قدم التاجر تنزلق فوق قطعة من الكرتون.

الرجل وصل إلى الرصيف.

جاءه صوت يطلب التوقف. التفت، ثم أسرع نحو الفجوة بين سيارتين. من الجهة الأخرى ظهر ضابط ثان، فتغير اتجاهه بعنف، واصطدم برجل مسن كان يجر عربة مشترياتٍ. تدحرجت برتقالات إلى الطريق، وخرجت امرأة من متجرها تصرخ.

تحرك إدريس مع الصوت. عبر نصف الشارع قبل أن يستوعب أنه ترك الموضع المتفق عليه. أمامه الرجل يجري، وعلى يمينه يوسف ينحني إلى التاجر عند العتبة، والدم في طرف ذقنه. يستطيع أن يلحق بالهارب إذا قطع عليه الطريق من الزقاق؛ يعرف مدخل ذلك الزقاق، ويعرف كيف تلتف شاحنات التوريد عنده. رأى الحركة كاملة في رأسه، نظيفة، بلا رجل مسن ولا برتقال تحت العجلات.

ثم سمع يوسف يناديه باسمه.

عاد إلى العتبةِ وجثا. كان التاجر واعًيا، يحاول أن ينهض بسرعة، ويده تضغط منديلًا إلى فكه. طلب إدريس منه أن يجلس إلى الجدار، وأفسحِ الطريق لمن جاء يساعد. يوسف يلهث كأنه هو الذي ركض.

«دفعته»، قال.

«من؟»

«الرجل. قلت له... قلت له إنني أعرف أنه جاء إلى بيتك. أخذ الساعة وقال اهدأ، فأمسكت معصمه.»

سأل إدريس عن العلبة. أشار يوسف إلى أسفل المكتب، حيث سقطت وهي مغلقة. تركاها في موضعها. عند الرصيف توقفت سيارة، وجاء أحد أفراد الفريق يطلب من الموجودين الابتعاد عن المدخل.

وصل خبر ضبط الرجل بعد دقائق، في الشارع التالي. أحد الضباط أعاده إلى السيارة، ويده ممسوكة خلفه. بين الناس الذين تجّمعوا حاول أن يرى يوسف، ثم توقف نظره على إدريس. كانت أول مرة تتواجه فيها العينان من هذه المسافة.

قال الرجل: «هذا الذي أرسل لك الناس.»

صوته عادي. ذلك أكثر ما فاجأ إدريس. صوت يصلح لشرح موعد معاينة شقة، أو مساومة على صورة، أو سؤال صاحب محل إصلاح عن رجل يسكن في عمارة قديمة.

تقدم الضابط بينهما وأبعده. فتح له باب السيارة، وانتهت الجملة خارج سمع الآخرين. رفع إدريس يده إلى زجاج المحل كي يثبت نفسه، فرأى دمه القديم من جرح صغير في إصبعه يترك نقطة على الحافة. أبعدها وأخبر الشرطي الذي عاد يفحص المكان بموضع ما لمسه.

في الداخل جلس يوسف أمام الكرسي المقلوب. طلب منه الضابط أن يصف ما حدث من لحظة دخول الرجل. بدأ بقوله إنه هاجمه، ثم صحح العبارة بنفسه. أمسك هو المعصم أولًا. دفع الرجل التاجر وهو يحاول الخروج. اندفع يوسف خلفه. كلماته متقطعة، لكنها تحمل كل يد إلى صاحبها.

حين سأله عن الحوار قبل ذلك، قال إن الرجل أراد معرفة من رأى النسخة ومن يعرف أمر الصور، وإنه سأله إن كان تواصل مع الشرطة. يوسف أجاب بأن إدريس عرف الرقم: هو نفسه الذي اتصل بالشخص الذي أعطاه صور الساعة. هكذا قالها له يوم التقيا، وهكذا أعادها يوسف الآن. وأضاف أن الساعة الأصلية عند الشرطة. عند هذه الجملة

أغلق الرجل العلبة وقال إن عليه أن يكف عن ترديد ما يسمعه من إدريس.

«ثم قلت له إن عمي مات. قلتها بصوت عالٍ. سألته من طلب منه شراء الصور.»

أغمض إدريس عينيه. السؤال الذي أراد أن يأتي من الرجل صار مطلًبا يصرخ به يوسف في وجهه.

تابع يوسف: «قال: أنا أتعامل معك أنت. قلت له من طلبها منك. قال إنني سأفسد على نفسي كل شيء، وإن علّي أن أتذكر من دفع المال.»

طلب الضابط العبارة كما قيلت، ثم أخذ الهاتف والموادِ التي حفظت مجرى الاتصال وفق الترتيب الذي وضعه الفريق. ما سيُسمع ويُراجع سيأخذ طريقه معهم؛ وما يرويه يوسف الآن دخل في إفادة مستقلة. ادعى الرجل في أول كلامه أنه جاء لشراء نسخة، وأن البائع اعتدى عليه. ذلك الجزء يستطيع التاجر أن يراه، والجزء الآخر يحتاج إلى ما سبق الضربة.

قبل أن يغادروا وقف إدريس عند العلبة. غطاؤها مغلق، وفي الداخل نسخة عادت إلى اسمها الصحيح بعد أن حملت لأقل من ساعة وزن الأصل. أراد أن يفتحها ليتأكد أن المفصل سليم. مد يده، ثم نادى الضابط وأشار إليها.

في الخارج بدأ أصحاب المحلات يعيدون الشارع إلى حاله. جمع الرجل المسن برتقالاته في كيس جديد، والتاجر يرفض سيارة الإسعاف قبل أن يفحصه المسعف الذي وصل. يوسف ينظر إلى باب المحل كما لو أنه يحاول أن يتذكر من خرج منه أولًا.

قال لإدريس: «سأقول لهم عن المشتري الآخر أيضا.»

«قل ما اتفقت معه عليه.»

«سأخسر المال.»

«نعم.»

نظر يوسف إليه منتظرًا بقية الجملة. تركها إدريس عند هذا الحد.

حين عاد إلى السيارة وجد اتصالين فائتين من رقم لا يعرفه. اتصل بمروان أولًا، وحكى ما جرى ومخالفته موضع الانتظار، ثم أرسل إليه الرقم. قال المحامي إن عليه أن يعود إلى البيت، وأن يتوقع استدعاء لتثبيت ما رآه، لا أن يواصل البحث تلك الليلة.

رن الرقم مرة ثالثة.

أجاب.

«السيد السراج؟»

عرف الصوت من المطعم. رشيد يتحدث بهدوء، وفي الخلف رنين ملعقة على كأس.

«سمعت أن يوسف تورط في مشاجرة.»

«تحدث معه، أو مع محاميه.»

«سأفعل. أردت أن أتأكد أنه بخير. هو يغضب بسرعة حين يظن أن أحدًا استخدمه.»

على الرصيف كان يوسف يدخل سيارة الشرطة لاستكمال ما يلزم من إفادته. وضع الضابط كفه فوق إطار الباب كي لا يصطدم رأسه به. رأى إدريس تلك الحركة الصغيرة، ثم رفع عينه إلى المقعد الفارغ بجواره.

قال رشيد: «نحن الاثنان نعرف أن المشاجرة لن تعيد كمال.»

«ماذا تريد؟»

«أن نتحدث بهدوء، قبل أن يدفع شخص آخر ثمن ما بدأناه.»

عاد ضجيج المطعم إلى أذن إدريس: صوت الماء، وحكاية الدواء، ورجلٍ يصحح اسم مدرسة. الآن يستعمل رشيد صيغة الجمع، ويضع له كرسيا بجواره مرة أخرى.

قال إدريس: «ما الذي بدأناه؟»

سكت رشيد. استقرت الملعقة في الصحن.

«تعال، وسأريك ما لم تأخذه من خزنتي.»

الفصل الخامس والعشرون

ما تركته في الخزنة

الاثنين 9 فبراير

قال إدريس: «سيحضر معي مروان.»

في الطرف الآخر احتكت الملعقة بالصحن مرة واحدة. انتظر جوابًا عن المحامي، فجاءه سؤال عن الورقة.

«هل تذكر مكانها؟»

نظر إلى السيارة التي أُجلس فيها الرجل المقبوض عليه. زجاج خلفي معتم، ويد ضابط على السقف. قبل ساعة كان يتمنى أن يسمع منه اسمًا؛ الآن اتصل الاسم بنفسه، وأراد أن يبدأ الحكاية من خزنة أخرى.

«عندي صورة لما تركت.»

«الصورة من الخارج. أعرف.»

أمسك إدريس الهاتف بقوة. كان رشيد قد رأى الصور التي قدمها في قضية سلمى. يستطيع أن يعرف هذا، وأن يقول الجملة بهذه الطمأنينة. سأل نفسه، وهو يسمعه يتنفس، كم مرة سيحتاج إلى تذكير نفسه بأن معرفة الرجل شيئًا لا تعني معرفته كل شيء.

قال: «أين تريد اللقاء؟»

«في مكتبي. غدًا، العاشرة. وتعال بمحاميك إن كان هذا يجعلك تسمع أفضل.»

«سأبلغه بما قلت. وأبلغ الفريق الذي يتولى البحث.»

تغير صوت رشيد قليًلا، كأن الكرسي تحرك تحته.

«من حقك. أنا أعرض أن نراجع واقعة تخص مكتبي. كل ما أريده أن تكتمل الصورة قبل أن نؤذي شخصا آخر.»

أنهى الاتصال. على الزجاج المقابِل خط من الضوء يرتجف مع مرور السيارات. رأى فيه وجهه وعيني الرجل الجالس في المقعد الخلفي، صورتين تلتقيان ثم تفترقان. أخرج دفتره، وكتب كلمات رشيد كما استطاع استعادتها. عند العبارة الأخيرة توقف، ووضع قبلها: «بالمعنى». أعاد قراءة ما كتب. كان يستطيع، من غير أن يشعر، أن يمنح التهديد صياغة أجمل مما جاء بها.

اتصل بمروان قبل أن تتحرك السيارة.

«دعاني إلى مكتبه.»

«هل وافقت؟»

«قلت إنك ستحضر، وإن الفريق سيعرف.»

سمع تقليب ورق، ثم صوت المحامي يبتعد عن أشخاص في الغرفة.

«أرسل ما دّونته الآن. واذهب إلى بيتك. هذه الليلة تنتهي هنا.»

أراد إدريس أن يسأله عن الرجل المقبوض عليه، وعن هاتفه، وعن الاسم الذي سيخرج من جيبه. نظر إلى يده التي جف عند إصبعها دم التاجر. قال إنه سيذهب، وأدار المفتاح.

في البيت وجد رغيف الصباح في الكيس نفسه. قطعه، ثم أعاد النصف إلى مكانه. كانت جملة رشيد أقدر على ملء المطبخ من رائحة الطعام: ما لم تأخذه من خزنتي. فتح صورة أكتوبر القديمة على الحاسوب. المال في جهة، والجهاز الصغير في جهة، والطية قرب ملف داكن. تذكر نفسه وهو يرفع الرزمة ويترك الورق لأن المهمة التي

قبلها كانت تخص المال. يومها بدا ترك الورقة انضباطًا. بعد ذلك صار الدليل على أنه لا يمد يده إلا إلى ما يعرف. وحين جاءت سلمى حملته على النظر إلى المساحة نفسها من جهة أخرى.

كّبر الصورة حتى تفككت الحروف على حافة الملف. ظل الخط الأسود المائل على أعلى الورقة واضحًا، وأحد أركانها مطويًا إلى الداخل. أخرج صورة حديثة ليديه من بين الملفات بالخطأ، فأغلقها بسرعة. كان قد صور خدشًا بعد إحدى العمليات كي يراقب التئامه. حتى جسده له أرشيف. الأشخاص الذين خرجوا من تلك الليالي كانوا وحدهم خارج التصنيف.

أرسل مروان رسالة بعد العاشرة: «أُبلغ الفريق. لا تتصل به ثانية الليلة.» ثم أتبعها بأخرى: «أحضر نسخة الصورة كاملة، لا الجزء الذي فيه الورقة.»

قرأ إدريس الجملة مرتين. نقل الصورة كما هي إلى مجلد جديد، ووضع الهاتف بعيدًا عن سريره.

في التاسعة من صباح الثلاثاء كانت هناء تقف أمام مكتبها السابق. على الطاولة كوب تعرفه وملف مفتوح لا تعرف ترتيبه. الضابط الذي تسلم البحث نهض، وأشار إلى كرسي الزائر. أخذت المكان الذي كانت تضع فيه الشهود، وأدركت، وهي تسحب طرف معطفها من تحته، مقدار ما يصنعه جانب الطاولة في طريقة جلوس الإنسان.

قال إن إدريس أبلغ عن دعوة من رشيد، وإن مروان طلب أن يُثبت الإبلاغ قبل أي لقاء. أراد منها أن تشير إلى المواضع التي تناولت فيها استماعات رشيد محتويات الخزنة والوثائق القديمة. أمامها طلب مكتوب يحدد ما جاءت من أجله. أخذت نسخة، وفتحت المحاضر على صفحاتها.

«سأل عن المال حين عرضنا الصورة»، قالت. «هذا جوابه هنا، وسؤالنا قبله.»

قرأ الضابط السطر. «وهو يقول إنه أخذ المال فقط؟»

«أريد العبارة التي سبقت هذا أيضا.»

دفعت الصفحة إليه. منحها طلبه ارتياحا صغيرا. كان يقرأ العمل، لا يستعملها طريقا مختصرا إلى رأيها.

دخل قاسمي في أثناء مراجعة الاستماع الثاني. أومأ إليها، وجلس عند طرف الطاولة. سأل عما يريده رشيد من الدعوة، فأجاب الضابط بما أبلغ به المحامي. قال قاسمي: «إذن نثبت ما يعرضه، ونحفظ ما يقدمه. لا أحد يعده بشيء.»

هناء وضعت إصبعها عند تاريخ الثالث عشر من يناير. «هذا موضع حديثه عن زيارة الثلاثاء. وفي الاستماع اللاحق قال إنه عرف موعد سلمى بعدما سألناه عنه. فاطنة تصف الآن دفترا فتحه في تلك الزيارة. إفادتها في الملحق الذي سلمته.»

«هل رأته يقرأ الموعد؟»

«رأته يقلب الورقة. تتذكر كلاما عن الجمعة، وتعجز عن استعادة عبارته. ذلك هو المكتوب.»

قلب قاسمي الملحق حتى وصل إلى سطرها. أعاده من غير تعليق. سأله الضابط عن حضورها في لقاء المكتب، فقال: «تكمل معنا مراجعة أقوالها وإجراءاتها حين نحتاج. اللقاء يتولاه الفريق.»

خرجت هناء بعد أن وقعت على مذكرة التوضيح. في الممر أفسحت الطريق لرجل يحمل صندوقا من الأوراق. كان يعرفها، فبدأ بتحية طويلة، ثم تردد وهو يرى نسخة الطلب في يدها. اختصرت عليه الحرج

بسؤاله أن ينتبه إلى الدرجة عند الباب. نزلت وحدها، واتصلت بابنها لتتأكد من وقت خروجه من المدرسة.

عند العاشرة إلا عشر دقائق وقف إدريس ومروان أمام لوحة مكتب رشيد. الحروف المعدنية مصقولة، وتحتها رقم هاتف صغير. قرأ إدريس الرقم من أوله إلى آخره مع أنه لا يحتاج إليه. كان في الطابق الذي يعرفه من ليلة دخل فيها بلا موعد، والباب الآن مفتوح، وامرأة وراء مكتب الاستقبال تسأل عن اسمه.

قاله كاملًا.

رفعت المرأة وجهها. نظرت إلى مروان، ثم مدت يدها إلى الهاتف الداخلي. انتظرا على مقعدين متجاورين. على الطاولة مجلة قديمة، وفي زاويتها أثر دائرة تركها كأس. باب الخزنة خلف جدار لا يراه، والممر إلى اليمين أقصر مما حفظ في ذاكرته. كان المكان الذي استغرق منه أيامًا من المراقبة يحتاج الآن إلى دقيقتين واسم.

فتح رشيد بنفسه. ارتدى سترة داكنة، وأزرار كميه مستوية. صافح مروان، وأشار إلى غرفة اجتماع صغيرة بدل مكتبه. قال إن محاميه سيحضر إذا تحولت مراجعة الوثيقة إلى إجراء آخر. أجابه مروان بأنهما جاءا ليسمعا ما يريد عرضه، وأن الجهات المعنية تعرف باللقاء. الضابط المسؤول في الجوار، وأي تسليم سيثبت في حينه.

«جيد»، قال رشيد. «الأوراق تعبت من الانتقال بلا إيصال.»

على الطاولة ظرف بني، وزجاجة ماء مغلقة، وثلاثة أكواب. جلس إدريس بحيث يرى الباب. اكتشف رشيد اختياره وترك المقعد المقابل له شاغرًا، ثم جلس عند الجانب. حركة صغيرة تجعل اللقاء بين جارين ينظران إلى الشيء نفسه.

أخرج الورقة ووضعها داخل حافظة شفافة. كانت مطوية إلى ثلاثة، وفي أعلى وجهها خط أسود مائل وأثر زاوية ثُنيت طويلًا. مد إدريس الصورة القديمة بجوارها من غير أن يمد أصابعه إلى الحافظة.

قال رشيد: «هذه التي تركتها.»

تذكر إدريس وزن المال في حقيبته. هنا، تحت ضوء الصباح، كان الورق أقل اصفرارًا مما توقع. تاريخ من سبتمبر 2022، وأسماء، وإشارات إلى ملفات عقارية. عنوان صغير: «تسوية حساب داخلي». في آخر الصفحة توقيع كمال، وفوقه فقرة تتعلق بمبالغ تسلمها لحساب المعاملات الواردة في ملحق.

قلب رشيد الحافظة. ظهرت صفحة ثانية، أكثر ازدحامًا، فيها أرقام وملاحظات بخط اليد. أشار إلى سطر يتضمن اسم سلمى، ومبلغ عشرين ألف درهم، ومرجع التحويل الذي رآه إدريس في ملف اتهامها.

«دفعة مستحقة عن عمل أنجزته. كمال طلب صرفها قبل أن تقفل بعض الملفات. حين جرى البحث صارت مكافأة على مساعدتك أنت.»

قرأ مروان السطر بنفسه. سأل عن الأصل وعن كيفية إعداد الملحق. أجاب رشيد بأن كمال كان يحمل نسخة، وأن الموجود أمامهما نسخته هو، احتفظ بها كما يحتفظ أصحاب المهن بأوراق تسوياتهم.

رفع إدريس وجهه. «وأنت تعرف غرض التحويل منذ ذلك الوقت.»

«كنت أعرف ما كُتب. بعد السرقة ظهرت أمور أخرى.»

«منك.»

وضع رشيد كفه على الطاولة، بعيدًا عن الورقة. «قدمت شكوى عن مال اختفى. كنَت أنت من أخذه، وقد قلت ذلك أخيرًا. أما ما استنتجه الناس من التحويل...»

قاطعه مروان: «سنرجع إلى أقوالك نفسها، وإلى الوثائق التي قدمتها. دعنا الآن نثبت ما تعرضه.»

أمال رشيد رأسه موافقًا. شرب ماء، ثم أعاد الزجاجة إلى الموضع الذي تركت فيه دائرة على الخشب. الأصابع حولها هادئة. تذكر إدريس وصف سهام لرجل في المقعد الخلفي يصحح طريقة نطق اسم، وتذكر نفسه في المقهى يصغي إلى الوقفة الصغيرة عند اسم زهور. كان كل واحد منهما يجلس يومها في غرفة مختلفة ويعمل على الجملة نفسها.

«لماذا الآن؟» سأل.

«لأنك صرت تستطيع قراءة الورقة كاملة. أول مرة دخلت أخذت منها ما تستطيع حمله. الآن تريد أن تصلح ما وقع بعدها.»

«أسألك لماذا احتفظت بها وأنت تسمع اسم سلمى.»

للمرة الأولى استقر نظر رشيد على وجهه من غير ابتسامة. «لأنها تفتح ملفات أخرى. ولأن كمال كان يستطيع أن يقول إن هذا حساب بيننا لا شأن لها به. لقد فعل ذلك في أشياء أكبر.»

«وأنت اخترت أن تتحمل هي الفرق.»

تحرك مروان في كرسيه. أدرك إدريس أنه يقترب من خطاب يعرف كيف يلقيه، ويجد فيه مكانًا مرتفعًا يقف عليه. خفض عينيه إلى صورة الخزنة. ماله المسروق، جهاز التحكم، طرف الورقة. قال بصوت أخفض: «وأنا أخذت المال وذهبت. ثم تركتها تتحمله أيضا.»

رشيد أصغى إليه كما لو أن هذه هي الجملة التي انتظرها. دفع الحافظة بضعة سنتيمترات نحوه.

«إذن لنتوقف عن ذلك.»

قبل أن يمد رشيد يده إلى الحافظة، وضع مروان راحته على نسخته من الصورة.

«من أعد هذه التسوية؟»

«كاتب الحسابات. راجعناها معًا.»

«ما اسمه؟»

ذكره. طلب منه المحامي أن يبين ما إذا كانت الصفحة الثانية جزءًا من الورقة عند التوقيع، وأين يمكن العثور على المراسلات التي سبقتها. أجاب رشيد إجابات عملية، بأسماء وتواريخ تقريبية، ثم أحضر ملفًا من خزانة جانبية. أخرج منه غلاف مراسلة قديمًا، وورقة عليها قائمة مستندات. الأشياء التي يقدمها تصلح لأن تُطلب من جهات أخرى. هذا ما جعل إدريس أكثر توترًا؛ العرض لا يحتاج إلى كذبة حتى يكون خطرًا.

قال رشيد: «هذا الموظف يعرف. تستطيعون أن تسألوه. قضى معنا أحد عشر عامًا، وغادر بعد مرض زوجته. أنا من أوصى به في الشركة التي يعمل فيها الآن.»

نظر إدريس إلى اسم الموظف. تخيل الرجل يدخل إلى هذا المكتب، ثم يجلس أمام الأسئلة ويحاول أن يميز ما فعله من المعروف الذي يشعر أنه مدين به. هل سيكون من العدل أن تُمحى تلك السنوات لمجرد أن اسم رشيد صار في قضية قتل؟ وهل يكون من العدل أن تحمل زوجته المريضة عبء كل ورقة خرجت من يده؟ بدأ رأسه يرتب طريقة لتجنيبه ذلك، قبل أن يكون قد سمع منه كلمة.

قال مروان: «سنطلب ما يعرفه عن الوثيقة.»

جملة بسيطة أعادت الموظف من المشهد الذي صنعه إدريس إلى اسم يمكن الاتصال بصاحبه.

أخرج رشيد ورقة ثانية، ثم توقف عند صورتها. فيها توقيع كمال وحده وتاريخ أقدم. قال إن شريكه اعتاد أن يحتفظ بالأصول عنده، وأنه كان يرجع إليه كلما تعطل عمل يحتاج إلى تلك الأصول. حدّثهما عن ملف بقي شهرين لأن كمال سافر، وعن امرأة جاءت كل صباح تسأل عن ملكها. تذكر اسمها واسم ابنها، ثم أخطأ في اسم الشارع وصححه.

كان إدريس قد رأى ذلك التوقيع من قبل. في الأرشيف صورة ورقة من ملف آخر، مختلفة العنوان، تتصل بالمعاملة نفسها. يومها ظن أن التطابق يقربه من الرجل الذي يريد الوصول إليه، فحفظ الصورة في مجلد الهدف. الآن اسم امرأة لم يقابلها يظهر عند طرف الحكاية، ويجعل المجلد أصغر مما يحتويه.

سأله رشيد إن كان يعرف ذلك الملف. قال إنه سيطابق ما عنده بما يرد إلى التحقيق.

«حتى ما لا يتعلق بكمال؟»

«إذا كان متصلًا بما فعلت.»

أعاد رشيد الورقة إلى جوار الملحق. «أنت تعرف ما سيحدث. سيطلبون أسماء الذين جاؤوك. ستصير المرأة التي طلبت منك شيكها شخصًا يشرح كيف عرف لصًا. ويصير الذي أخذ مالًا لعلاج أمه مطالبًا بأن يثبت أنه جهل مصدره. ستفتح عليهم أبوابًا أغلقتها بيدك.»

شعر إدريس بحرارة تصعد إلى وجهه. كانت المرأة الخياطة قد سألته منذ البداية عن صورة الشيك، وعن قدرة عبد الجليل على العودة

إليها. هو الذي أراد أن يعتبر الورقة المعادة نهاية. في صوت رشيد صارت النهاية نفسها حجة على أن يبقي البداية مخفية.

قال: «بعض تلك الأبواب ظل مفتوحا.»

«إذن أغلق ما تستطيع. هناك طريقة أقل أذى من أن تضع كل شيء في الشارع.»

تدخل مروان: «تقديم الأدلة إلى الجهة المختصة ليس نشرًا لأسماء الناس. وسنطلب ما يلزم لحفظ حقوقهم. أما أن نجعل خوفهم سببًا لحجب الوقائع، فهذا قرار آخر.»

التفت إليه رشيد. «تستطيع أن تطلب. لا تستطيع أن تضمن.»

«صحيح.»

أدهش إدريس أن يترك المحامي الكلمة كاملة. كان ينتظر وعدًا يوازن به الوعيد، وحجة تجعله يختار من غير أن يخسر أحدًا. نظر إلى صورة الخزنة، وإلى اسم سلمى في الملحق. منذ سنوات وهو ينتظر نسخة من هذا الوعد في كل عملية: أن يختار بحذر كافٍ، فيخرج الجميع من المكان الذي يريده لهم.

مد يده إلى كأس الماء وشرب. في فمه طعم بلاستيكي خفيف من غطاء الزجاجة. سأل مروان عن الورقة التي سيوقعها عند التسليم، وكيف سيظهر فيها أن ما ينقله عن أشخاص آخرين جزء من روايته هو، لا إقرار صادر عنهم. شرح له المحامي ما سيطلب وما يستطيع إثباته، وما ينبغي أن يسمعوه من أصحابه. هذه المرة أصغى إلى التفاصيل من غير أن يستعملها طريقًا إلى تأجيل القرار.

قرأ إدريس أسماء الملفات. أحدها من أملاك الحسوني، وآخر يحمل اسم شركة تعامل معها في عمله القديم. إلى جانبه رقم عقد يعرف شكل ترقيمه، واسم ممثل كان يظهر في مراسلات مطالبات

التأمين. عاد إلى السطر، ثم تجاوزه كي لا يرى رشيد مقدار ما استوقفه. اكتشف نفسه يفعلها، وعاد بإصبعه إليه أمامه.

«أريد هذه الصفحة كاملة.»

«ستأخذها.»

«مع ما تحيل إليه.»

«هذا يتطلب وقتًا. وفي المقابل أحتاج أن أعرف ما عندك. كل ما عندك من الصور. نستطيع أن نطابقها، ونحدد أصحاب الحقوق، ونسوي ما يمكن تسويته قبل أن يتحول كل اسم إلى فضيحة.»

مروان سحب دفتره إليه. «أي مقابل تقصد؟»

فتح رشيد يديه. «المعلومات مقابل المعلومات. الرجل دخل أكثر من مكان. بعض ما أخذه وصل إلى أشخاصٍ لا يعرفون مصدره. إذا خرج الأرشيف كله كما هو فسيتحملون شيئًا لم يختاروه. أنا أقول لنرتب الأمر.»

هنا عرف إدريس العرض. الورقة على الطاولة حقيقية، والمبلغ حقيقي، والظلم الذي يمكنها أن تساعد في كشفه حقيقي. حتى الأشخاص الذين قد تصل إليهم الأسئلة موجودون. كان رشيد يعرض عليه العمل الذي أتقنه طوال سنوات: يختار اسمًا، ويترك اسمًا، ويقرر أي حقيقة تحتمل الخروج وأيها ينبغي أن تنتظر.

«ومن يرتب؟» سأل.

«أنت ومحاميك، وأنا ومحامّي. وأصحاب الحقوق، بالطبع.»

قال مروان: «حقوق الغائبين لا نتفاوض عليها هنا. والمواد المتعلقة بالبحث تقدم إليه.»

«لم أقل غير ذلك.»

نظر إدريس إلى أصابع رشيد. لم يجد فيها أثرًا أخضر واضحًا. ظفر مصقول، وجلد جاف عند المفصل. كم من مرة سيحاول أن يجعل اليد تقول ما يريد، بعد أن أخطأ في دفء يد أخرى؟ رفع نظره إلى وجه الرجل.

«أخرجت هذه الورقة لأنني صورت خزنتك. لو أخذت المال بلا صورة، ماذا كنت ستعطيني اليوم؟»

أجابه رشيد بعد لحظة: «ربما ما كان ينبغي أن أعطيه منذ زمن.»

كان التعب في صوته مقنعًا. للحظة رأى إدريس رجلًا يحاول النجاة مما تورط فيه على مهل، رجلًا تأخر عن اللحظة التي كان يستطيع فيها أن يخرج بخسارة محتملة، فصار كل خروج يقتضي هدم حياته. شعر بقرب مخيف منه، أقرب مما شعر في أي مواجهة سابقة. لو حذف تاريخ القتل من الملف، لوجد جملًا كثيرة يستطيع أن يقولها بلسانه.

قال: «سأسلم ما عندي.»

مال رشيد إليه. «جيد. نبدأ بما يخص...»

«كله.»

بدا أن الكلمة مرت من دون أن يفهمها. نظر إلى مروان، فوجد المحامي ينظر إلى إدريس. في تلك اللحظة اتسعت الغرفة، وصار لكل رجل جانب مستقل من الطاولة.

قال رشيد: «فكر في الذين وصل إليهم المال.»

«سأكتب ما أعرف عنهم. وما لا يعرفونه أيضا.»

«لن تكون أنت من يقرر كيف تُقرأ الورقة بعد ذلك.»

حرّك إدريس الصورة القديمة نحو الحافظة، حتى تلامست حافتاهما. قال: «أعرف.»

رفع مروان هاتفه واتصل بالضابط. أخبره أن رشيد يعرض تسليم أصل وثيقة تتصل بالقضية القديمة، وطلب حضوره لإثبات ذلك. قال رشيد إنه يريد الاتصال بمحاميه قبل التسليم. أمهلوه. وقف عند النافذة، وأدار لهم ظهره، وصار صوته أخفض من أن يفهموا عباراته.

قال إدريس لمروان: «الملحق يحيل إلى ملف عندي.»

«أي ملف؟»

«من عملي القديم. وأشياء أخرى.»

أغلق المحامي دفتره. «سنراجع طريقة تقديمها. كلها كما قلت، مع وصف مصدر كل شيء. لكن اسمعني: هذه الجملة ليست وعدًا بالنجاة.»

على النافذة قطرة مطر تركت خطًا معوَّجا. تابعها إدريس حتى التقت بقطرة أخرى. كان يستطيع أن يرجع الآن إلى معنى أضيق لكلمة «كله»، وأن يترك للمحامي تخمينه. قال: «لهذا أريد أن أكتبها قبل أن أرجع إلى البيت.»

حضر الضابط بعد دقائق. أعاد رشيد عرضه بصياغة أكثر جفافًا، وبحضور محاميه الذي وصل لاحقًا. جرى وصف الوثيقة، وعد صفحاتها، وإثبات طريقة تقديمها. النسخة التي أُعطيت لمروان تحمل ما يثبت مصدرها، والأصل خرج في حافظة أخرى. طلب الضابط من رشيد الحضور لاستكمال أقواله بشأن الملحق. حدد له الموعد، فأومأ الرجل وهو يقرأ الورقة.

في الممر، مرت موظفة الاستقبال تحمل بريدًا. رأى إدريس كيف تجنبت النظر إليه، وكيف التفتت إلى الباب بعد خروج صاحب المكتب. فكر في سلمى وهي تقف هنا قبل سنوات، وفي امرأة أخرى حملت عنها رسالة وظنت أنها أوصلتها.

قال لمروان عند الدرج: «أريد أن أبدأ بأسماء الناس، قبل أسماء العمليات.»

«سنحتاج الاثنين.»

«أعرف. لكنني كنت أكتبها دائًما بالعكس.»

في السيارة اتصل مروان بالمكتب، وألغى موعًدا بعد الظهر. ثم وضع هاتفه على ركبته وانتظر. أخرج إدريس الدفتر وفتح صفحة جديدة. كتب عنوانا، ومزقه. كانت عبارته الأولى: «الأشياء التي أستطيع إثباتها». كتب بدًلا منها: «ما فعلته».

تحركت السيارة، والصفحة مفتوحة على ركبتيه.

الفصل السادس والعشرون

الأسماء أوّلا

الأربعاء 11 فبراير

فتح إدريس الباب للشرطي، ثم تراجع كي يدخل مروان.

كان قد رتب الشقة في الفجر. غسل الكأس، وأعاد الكرسي تحت الطاولة، ووضع الرغيف في الخزانة بدل أن يتركه في كيسه. حين انتهى رأى السرير كما يراه رجل سيعود إليه مساءً، فأفسد الغطاء بيده. حركة طفولية جعلته يقف طويلا عند العتبة، قبل أن يدرك أن الغطاء لا يبرم اتفاقا مع أحد.

الضابط الذي حضر لتلقي ما عرضه عليه يحمل حقيبة أوراق. معه تقني، وشرطي ينتظر عند المدخل. شرح له مروان أن التسليم سيشمل بطاقة الذاكرة والدفتر والأصول الأخرى التي حددها في قائمته أمس، وأن كل شيء سيوصف على حدة. أومأ إدريس، وأخرج البطاقة من موضعها الذي أعادها إليه بعد مراجعة صور أكتوبر. حملها بين إصبعين، ثم طلب كيسا توضع فيه.

قال التقني: «دعها هنا. سأثبتها أوّلا.»

وضعها على سطح خال من الطاولة. إلى جوارها قارئ صغير، ودفتر أسود استهلكت أطرافه، وحافظة فيها إيصالات. كان هذا كل ما استطاع أن يجمعه من حياته السرية في مساحة يتسع لها مفرش.

«هذه هي التي كانت في العلبة على السطح؟»

«نعم. أخذتها عندما راجعت الصور قبل أن أسلم ملف 2022. والساعة نقلتها كما قلت في المحضر السابق.»

أشار إلى القائمة. اسم كل ملف وتاريخه الذي وضعه له، وطريقة حصوله عليه، وأي شيء يتذكر أنه غيّره. كتب عند بعض الصور أنه زاد سطوعها على نسخة، وحدد أين يظن أن الأصل موجود. وعند تواريخ أخرى وضع علامة استفهام. كان يستطيع أن يجعل القائمة أجمل لو حذف تلك العلامات، لكنها كانت أكثر ما يثق فيه الآن.

سأله الضابط عن كلمة المرور. كتبها على ورقة منفصلة. رفع التقني وجهه ليتأكد من بعض الحروف، فأعادها ببطء، وسمع نفسه يتهجى كلمة اختارها يوماً لأنه ظن أن أحداً لن يعرف لماذا تعنيه.

«ستنسخونها كلها؟» سأل.

«سنحفظ ما سلمته ونفحصه وفق الإجراءات. الوصف الأول هنا، والباقي في المختبر.»

كان السؤال غير ضروري؛ هو من جاء بهم لهذا السبب. أمسك مروان قائمة التسليم، وتركه يسمع الإجابة كاملة.

بين الصور ملفات تعود إلى زمن شركة التأمين. تقارير ونماذج ومراسلات احتفظ بها حين استقال، وبعضها يتضمن بيانات أشخاص صار اسما اثنين منهم يعودان إليه كلما كتب كلمة «خلاف». أعد لها حافظة منفصلة، ووصف سبب الاحتفاظ بها والجهات التي أرسل إليها أجزاء منها قديماً. حين وصل إلى النسخة التي وافق فيها على عرض نتائج النموذج، وجد تعليقه أسفل الصفحة: «الصيغة مناسبة للاعتماد».

لم تكن الكلمة التي تذكرها. كان يقول لنفسه إنه وافق على تجربة، أو على عرض، أو على طريقة لتقليل ملفات ينبغي مراجعتها. أمامه جملة أقصر من كل ما استعمله لتفسيرها.

قال لمروان: «أضف هذه إلى ما سأوقعه.»

«أضفتها أمس.»

تذكر أنه فعل، وأنه عاد إليها الآن كأن أول إضافة احتاجت إذًنا ثانيا. ابتعد عن الطاولة، وفتح النافذة مقدار كف. ضجيج بائع في الشارع، ومحرك دراجة يصعد بصعوبة، وامرأة تنادي من شرفة. أصوات كانت تزعجه حين يريد حساب طريق دخوله إلى بيت، وصارت الآن دليلًا بسيطا على أن الصباح مستمر خارج شقته.

قال الضابط إن الدفتر يحتاج إلى بيان علامات الاختصار. جلس إدريس، وبدأ من الصفحة الأولى.

اسم مكان، ثم حروف لشخص، ثم سهم إلى مبلغ. في الصفحات القديمة كان الحساب أسرع والخط أقرب إلى الأرقام منه إلى الكتابة. شرح اختصارا، ثم آخر. عند الثالث وجد اسم امرأة كتب بجواره «أُعيد». رفع رأسه.

«أعطيتها مبلغا. لا أعرف إن كان يساوي ما خسرته.»

رفع مروان عينيه عن الورقة، فتابع إدريس: «كنت أكتب أُعيد لأنني اعتبرت العملية انتهت. اكتب أنني سلّمتها المبلغ الذي أذكره، فقط.»

استمر الشرح. صار للدفتر صوت غير الذي يعرفه. في رأسه كانت الصفحات عمليات نجحت أو توقفت، ومخارج حفظها، وأسماء يستحق أصحابها ما أخذ منهم. بصوته صار كل سطر عنوانا يمكن أن يذهب إليه أحد ليسأل شخصا آخر: ماذا حدث لك بعد هذه الليلة؟

عند التاسعة حضر اتصال من مروان إلى زميل في مكتبه. طلب منه تجهيز نسخة لمراجعة ملفات التأمين، والتواصل مع من يمثل أصحابها حيث أمكن. أبعد الهاتف عن فمه وسأل إدريس إن كان يذكر عنوان أحد الرجلين.

ذكر الحي، ثم توقف عند رقم الباب.

«عندي عنوان قديم. لا أعرف أين يسكن الآن.»

كتب مروان ذلك. من النافذة وصل صوت ارتطام صندوق بالأرض. قال إدريس: «كنت أعرف عنوان الشركة التي تأخذ منه المال، أكثر مما أعرف عنوانه.»

واصل الضابط وصف محتويات الحافظة. سأله عن إيصال صغير، أجابه بأنه يخص علاًجا دفع ثمنه لشخص لا يعرف مصدر النقود. أوضح ما أخبره به يومها، واسم الطبيب، وطريقة الدفع. رفع الشرطي رأسه عند المبلغ، فاستبق إدريس السؤال: «لم يعرف أنها مسروقة. هذا ما أستطيع قوله عن قصدي وكلامي معه.»

منع نفسه من إضافة أنه كان سينجو من الألم بذلك المال. الألم حقيقي، وكذلك حق من يملك النقود. كان يحتاج إلى جملة تحمل الاثنين، لكنه وجد أن عليه أن يتركهما في سطرين.

بعد أنُ ختمت الحافظة بقي على الطاولة الدفتر الذي يكتب فيه هذه الأيام. طلب الضابط أن يبين ما إذا كان فيه شيء يتعلق بالوقائع. فتحه عند الصفحات الأخيرة: أوقات المطعم، اسم مصطفى، رسم المدفأة، عبارة «أنا سمحت له» فوق اسم عادل. دفعه إليه.

«هذا أًيضا.»

قال مروان: «ستحتاج نسخة لتراجعها معي.»

«نطلبها.»

حين حمل التقني الحقيبة كان الشيء الذي خرج من البيت أخف بكثير من وزنه في رأس إدريس. تلقى ما يثبت التسليم، ووقع على وصف الأشياء. وقف عند الباب حتى نزل آخرهم. في الأسفل ينتظره المراقب نفسه. هذه المرة سيذهبان إلى المكان ذاته، من الطريق ذاته، بسبب قرار اختاره قبل أن يأتي الرجل.

عاد إلى الداخل ليأخذ معطفه. رأى مكان البطاقة فارغًا، ومد يده إليه غريزيا. أصابعه لامست الخشب. أغلق الدرج.

في مكتب مروان كانت نسخة روايته المطولة تنتظره. كتبها في الليل وأرسلها قبل الفجر. قرأها المحامي، ووضع علامات في الهامش، وحذف من الفقرة الأولى عنوان «توضيح».

«هو إقرار بأفعال محددة، وشهادة بما رأيت، وأمور تنقلها عن غيرك. سنميز بينها داخل النص. كلمة توضيح لا تحمل كل هذا.»

جلس إدريس أمامه. النافذة نصف مفتوحة، وصوت آلة نسخ من الغرفة المجاورة. على الرف صورة قديمة للمحامي مع رجل أكبر منه. كانا يضحكان في مكان مفتوح. تساءل إدريس إن كان الأب، ثم أعاد عينيه إلى الورق؛ يحتاج إلى أن يعرف كل شيء حوله حين يعجز عن التحكم في الشيء الذي أمامه.

بدأ بالليلة التي دخل فيها بيت كمال. قرأ أنه قرر الانسحاب، وأنه رأى الساق في شق الباب، وأنه دخل حين ظن أن الرجل يحتاج إلى مساعدة. وصل إلى وصف الدفء، فوجد مروان قد وضع تحته خطا.

«كتبت هنا: أدركت أنه مات حديثًا.»

أخذ إدريس القلم. «ظننت.»

«ومتى عرفت أنه مات؟»

أعاد قراءة الفقرة كلها. الشك الذي شعر به فوق الجسد صار في اللغة خبرًا منتهيًا. شطب الجملة، وكتب ما فعله: ناداه، بحث عن استجابة، اتصل، واتبع ما استطاع من تعليمات. حين وضع القلم كان تنفسه أسرع.

«كنت أريد أن يكون قابلًا للإنقاذ.»

قال مروان: «اكتب هذا إن كان ما تذكره. بعد الأفعال.»

كتبها. ثم قرأ ما بعدها: فتحه الباب، وقوفه في العتمة، الصورة التي التقطها، خروجه، والرسالة. أدرج تغيير صوته في أول الاتصال، واللحظة التي سمع فيها صوته الطبيعي بعد أن خرج. أدرج خوفه من أن يُعرف، ورغبته في بقاء المجيب معه. صورتان لنفس الرجل، في الدقيقة نفسها، من غير أن تتقاتلا على مكان في النص.

عند الساعة وضع سطرًا مستقلًا: وجدها في شقته، نقلها إلى السطح، أخفى مكانها بعد أن سُئل. وصف كيف حملها وفتحها، ومن عرف بأمرها، ومن قد يكون لمسها. أضاف ما أخبره به يوسف يوم الاثنين عن فتح الغطاء ليلة الخميس. حاول أن يتذكر إن كان يوسف قد حدد طريقة الإمساك، ثم كتب أن هذا التفصيل لم يُذكر له.

قرأ مروان الصفحة التالية.

«هنا تقول إنك فعلت كل شيء لحماية آخرين.»

رفع إدريس وجهه ببطء. كان قد كتبها بعد الثالثة صباحًا، في فقرة بدت له يومها أصدق ما قال.

«بعضه لحمايتي.»

«أي بعض؟»

ابتسم إدريس، ثم زالت الابتسامة قبل أن تكتمل. هذا هو السؤال الذي كان يسأله هو كل من يأتيه بقصة مرتبة. أخذ ورقة جديدة، وبدأ يحدد المرات التي اختار فيها الصمت لأنه يخاف، والمرات التي استعمل فيها خوفه على غيره ليؤجل القرار. ازداد النص نصف صفحة، وصار أقصر في المعنى.

قبل الظهر طلب مروان أن يقرأا صفحة من ملف التأمين إلى نهايتها. على الشاشة جدول قديم، وصفوف مرتبة بلونين، وعمود يسمي بعض المطالبات «عالية المخاطر». اسم أحد الرجلين في منتصف القائمة. بجواره سبب مختصر يتصل بعنوان ورشة وبمطالبات أخرى في المنطقة نفسها.

قال المحامي: «اشرح لي كيف انتقل هذا إلى اتهام هذا الشخص.»

بدأ إدريس بشرح المتغيرات، ثم توقف. أشار إلى الورقة التالية. في العرض الذي أرسله للإدارة جمعت النتائج تحت عنوان أكثر حسمًا من العنوان الذي خرج به التحليل. سئل يومها إن كان يمكن تقديم القائمة إلى مصلحة المنازعات كما هي، فكتب الموافقة التي يقرآنها الآن.

«كانت تحتاج مراجعة كل ملف.»

«أين كتبت ذلك؟»

أظهر هامشًا صغيرًا في نهاية المرفق. نظر مروان إلى الصفحة، ثم إلى البريد الذي أرسل معها.

«وهل نقلت هذا التحفظ إلى الموافقة؟»

قال إدريس: «لا.»

تذكر غرفة الاجتماع، وشاشة أكبر من هذه الشاشة، ورجلًا يطلب اختصار العرض لأن لديه موعدًا. تذكر الرضا الذي شعر به حين صار عمله قرارًا يستعمله غيره. كانت الأرقام تمنحه مكانًا في الغرفة. بعد ذلك احتاج إلى سنوات ليعترف بأن اختصار التحفظ لم يقع خارج إرادته.

سأله مروان كيف كان يشرح النتائج لمن لا يعرف الحساب. أخذ ورقة، ورسم عشرين مربعًا، ثم محاها قبل أن يكمل.

«المشكلة تبدأ حين نسمي التشابه معرفة. عنوان يتكرر في ملفات سيئة يجعلنا نتوقف عند عنوانه. ثم نتعامل مع التوقف كأنه نتيجة بحث أُنجز. وبعد ذلك يجمعون التوقفات: العنوان، ونوع المطالبة، والورشة. بعض هذه الأشياء يأتي من السبب نفسه. نعده مرات عدة لأنه ظهر في أعمدة مختلفة.»

«وأنت عرفت هذا يومها؟»

«نعم.»

مد مروان إليه المسودة. عند الفقرة التي يقول فيها إن عمله «استُعمل على نحو يخالف قصده»، أضاف إدريس أنه عرف خطر هذا الاستعمال، وإنه وافق على عرض يسمح به. قرأ الجملة الجديدة، وشعر أنها تضعه في الغرفة القديمة من غير الطريق الجانبي الذي اعتاد الخروج منه.

في اتصال بعد ذلك أخبره مروان بوصول مطالبة من إحدى النساء اللواتي أعاد إليهن شيكات. كانت قد حصلت على مساعدة قانونية، وأرسلت ما احتفظت به من إيصالات. اسمها في القائمة التي قدمها صباحًا، والشيك نفسه في الصور. طلبت أن يثبت أن إعادة الورقة لم تُنه مطالبة صاحب المكتب لها، وأن تهديده استمر مدة بعد خروجه منها.

قال إدريس: «هل تريد أن تشهد ضدي؟»

نظر إليه المحامي طويلًا. أدرك إدريس معنى السؤال الذي نطق به، فعدل جلسته.

«أقصد... ماذا تحتاج؟»

«أنْ تقرأ أوراقها. كما احتاجت أول مرة.»

طلب إدريس أنْ تُلحق بما يخص الواقعة. كان في استطاعته أن يتذكر تعبها حين حملت الشيك، وأن يطلب من نفسه الامتنان الذي لم تمنحه إياه. بدل ذلك قرأ المبالغ والمواعيد. الرسالة الأخيرة من صاحب المكتب جاءت بعد أسبوع من الليلة التي شطب فيها العملية من قائمته. وكان هو قد جعل العملية سطرًا منتهيًا في دفتره.

استأذن مروان وخرج لدقيقة. بقي إدريس أمام الرسالة، ثم فتح قائمة ما سّلمه. وجد علامة كان يستعملها للعملية الناجحة، دائرة مغلقة حول رقمها. وضع القلم على الدائرة، وأراد أن يشطبها بعنف. انتظر، ثم تركها واضحة. سيحتاج من يقرأ الدفتر إلى أن يعرف أنه اعتبرها ناجحة.

عاد المحامي وسأله عما توقف عنده. أراه التاريخ، ثم قال: «اكتب أنني لم أتابع ما جرى بعده. كنت قد انتقلت إلى شيء آخر.»

كانت هذه أقرب إلى الجملة التي يريد أن يكرهها، وأقرب إلى ما حدث.

دق هاتفه. ابن أخ بنعيسى.

عرف مروان الاسم من وجهه، فأشار إليه أن يجيب.

«فتح عينيه»، قال الشاب. «تكلم قليلًا. يسأل عن أغراضه. الطبيب يقول لا تكثروا عليه.»

وقف إدريس. احتك الكرسي بالأرض بصوت حاد. سأل إن كان يستطيع الذهاب، فأجابه الرجل أن الزيارة قصيرة، وأن الطبيب سيقرر عند وصوله. أغلق، وبحث بعينيه عن معطفه.

قال مروان: «سأبلغ الفريق. لا تسأله عن الرجل ولا عن السقوط.»

«أريد أن أراه.»

«اذهب لهذا السبب.»

في المستشفى انتظر حتى خرجت الممرضة. ابن الأخ يحمل كيس النعال الذي رآه أول مرة، لكنه طواه الآن تحت ذراعه بدل أن يتركه إلى جوار الباب. قال إن عمه طلب شاحن الهاتف، ثم نام قبل أن يسمع الجواب. كان في صوته ضحك مرتبك، كأنه يخشى أن يفرح فيخطئ.

دخل إدريس وحده بعد الإذن. بنعيسى أصغر داخل السرير، والضماد يمنح وجهه شكلًا لا يعرفه. تحركت عيناه نحو الباب، ثم عادتا إليه. قرب الوسادة يد انتفخت عند المفاصل. أمسك إدريس طرف الكرسي وجلس.

قال بنعيسى بصوت خشن: «أنت؟»

«أنا.»

أغلق الرجل عينيه لحظة، ثم حاول أن يرفع يده. قدم إدريس كفه، فوضع أصابعه عليها كما يختبر شيئًا يعرفه في العتمة.

«الهاتف...»

«يسألون عنه. سيعطونك ما تحتاج.»

عبس بنعيسى، وحاول أن يقول كلمة أخرى. انحنى إدريس، ثم تذكر تحذير الطبيب. قال إنه يستطيع أن يرتاح. في الغرفة جهاز يصدر صوتًا منتظمًا، وعلى الحائط بقعة طلاء أفتح من بقية الجدار.

«أعطيت عادل صورة الورقة»، قال إدريس. «وسأل عنك. أخبرت الشرطة بما فعلت.»

فتح الرجل عينيه. نظر إليه طويلًا، وبدا أنه يجمع الجملة من أطرافها. أراد إدريس أن يشرح ما عرفه بعد ذلك، وأن يقول إنه لم يقصد، وأن الشاب الذي زاره كان يعرف عنوانه قبل سؤال الصحفي. الكلمات اصطفت في حلقه. جلس حتى انفرطت.

قال بنعيسى: «الشاحن... في الكيس.»

كان يريد شاحنه فعلًا.

أومأ إدريس. خرج إلى ابن الأخ، وأخبره. وجداه في جيب صغير، والسلك مربوط بالعقدة التي يعرفها. حمله الشاب إلى الممرضة لتسأل إن كان يمكن استعماله. وقف إدريس عند الباب، يراقب سلكًا أبيض يعود إلى رجل كاد يفقده، وفهم مقدار ما كان قد أعده من اعتذار لرجل يحتاج الآن إلى ماء وراحة.

اتصل بمروان من الممر. قال إن بنعيسى حي، وإنه لم يسأله عن الوقائع. جاءه صوت المحامي: «حسنا. عندنا موعد بعد ساعة.»

«سآتي.»

عند باب المستشفى استوقفه عادل. يحمل دفترًا ومعطفًا مبتل الكتفين. قال إن ابن الأخ أخبره بتحسن الحالة. نظر كل منهما إلى الآخر، ثم إلى الممر الذي خرج منه.

«قالوا لك شيئًا عن الزائر؟» سأل الصحفي.

«جئت لأراه.»

أطبق عادل الدفتر. «أنا أيضا.»

مد إدريس يده إليه، ثم تركها إلى جانبه؛ المصافحة قد تجعل اللقاء تسوية لم يقصدها. قال: «قدمت اسمي مع اسمك. وما أذنت لك به.»

«وقدمت ما سألت عنه. بالأسماء.»

توقف المطر لحظة، وسمعا ماء الميزاب يسقط في بركة عند المدخل. قال عادل إنه سيكتب عن خروج سلمى من غير أن يجعلها نهاية القصة. ثم سأل إدريس إن كان يرغب في الرد على ما ينشر عنه.

نظر إلى الدفتر المغلق. «بعد أن أقول ما يجب أن أقوله لهم.»

في المصلحة استقبلهم الضابط الجديد. أمامه ملف التسليم الصباحي، ونسخة من وثيقة رشيد، وقائمة القضايا التي يتطلبها الأرشيف. قال إن النيابة أحيطت بمضمون الإقرار والمواد، وإن الإجراءات التالية ستتعلق بما ظهر منها وبما يلزم التحقق منه. جلس إدريس ومروان. في الجهة الأخرى كرسي فارغ كان يستطيع أن يتخيل هناء فيه، لكنه رأى الرجل الجالس فعلا، وبدأ يتكلم معه.

استغرقت القراءة ساعات. خرج الضوء من النافذة على مهل، ثم صار انعكاس المصباح أوضح من الشارع. سئل عن مبالغ، وعن مواعيد، وعن أشخاص أغفل أسماءهم لأنه يعرفهم بألقاب. صحح تاريخا، وأقر بأنه استعمل وصفا كاذبا في عملية أخرى، وحدد الموضع الذي التقط منه صورة. حين سألوه إن كان قد اقتسم مالا مع بنعيسى، نظر إلى مروان، ثم أعطى الجواب وما يتذكره من مرات.

كان أكثر ما يؤلمه في الكلام أن بعضه يبدو صغيرا. لا مشهد يبرره، ولا ظلم واضح يسبقه، بل مبلغ أعطاه لرجل مقابل اتصال، أو كذبة قالها لحارس كي يدخل. تفاصيل كانت تختفي في الحكاية الكبيرة، وتجلس الآن على الطاولة وتطلب أسماءها.

في الاستراحة قال لمروان: «لو أخذوا مني كل شيء، كيف أعيد الأموال؟»

«نثبت ما تملكه وما تستطيع رده. والباقي حقوق ستبقى. لا أستطيع أن أعدك بأن الحساب سيغلق قريبا.»

«الشقة...»

«سنبحث وضعها وما يجوز التصرف فيه. اكتب رغبتك في الرد، ولا توقع تصرفًا لا تعرف أثره.»

عادا إلى الغرفة. سمع إدريس اسم الرجلين اللذين سجنا في قضية التأمين يُقرأ في قائمة المرفقات. كان يتوقع ارتياحًا حين يخرجان من رأسه إلى ورقة رسمية. جاءه بدلًا منه خوف جديد: سيصل إليهما ما كتب، وقد يقرآن اسمه في الموضع الذي ظل يحاول إبعاده عنه.

قرب نهاية الاستماع أُبلغ بما تقرر بشأن إبقائه رهن الإجراء الجاري وعرضه على الجهة القضائية المختصة. شرح له مروان ما يعنيه ذلك في حالته، وطلب أن يثبت تعاونه الطوعي والتسليم الكامل، وأن تُناقش ضرورة أي تدبير يمس حريته بأسبابه. كان صوته ثابتًا. إدريس يلتقط منه كلمات منفصلة، ثم يعيدها إلى جمل.

قال: «سأحتاج أن أخبر مالك الشقة أنني قد أتأخر.»

«سأتولى الاتصال الذي يلزم. ومن تريد إبلاغه أيضًا؟»

فكر في أشخاص كان يذهب إليهم من غير أن يعرفوا بيته. فكر في لالة زهور، وفي سلمى التي قالت له إن عليه أن يذهب حين ينادونه. قال اسم شخص من عائلته ورقمه، وطلب من مروان أن يبلغ ابن أخ بنعيسى بأنه سأل عن صحته.

في الصفحة الأخيرة كانت روايته تنتهي عند كلمة «أخرجت». أضاف: «وغادرت البيت بعدما وصل المسعفون. كنت أخاف أن أُعرف.» تحتها السطر المتعلق بالأرشيف، ثم بيان بأنه يقدم ما بقي في حوزته من المواد المبينة في الجرد. قرأ الصفحتين اللتين تحملان أسماء العمليات مرة أخرى.

قبل أن يوقع سأل الضابط إن كان يمكن تصحيح عبارة في أول المحضر.

«أي عبارة؟»

«قيل إنني كنت أعيد المال إلى أصحابه. بعضهم أصحاب حق، وبعضهم اخترتهم أنا لأنني رأيت حاجتهم. أريد أن يظهر الفرق.»

أُثبت التصحيح، وُقرئ عليه. أمسك القلم. هذه المرة كتب اسمه كما كتبه في إيصالات عادية طوال حياته، من غير أن يضغط أكثر، أو يبطئ عند الحرف الأخير.

في الممر طلبوا منه ما ينبغي تسليمه من متعلقاته. أخرج المفاتيح، ثم الإيصال المطوي من جيب المعطف. كان طرفه قد شق البطانة أخيرا. سأل إن كان سيبقى مع أوراقه، فأشير إلى الموضع الذي سيوضع فيه.

بقي مروان قريبًا حتى انتهى ما يستطيع حضوره. قال له إنه سيأتي في الموعد التالي، وإن تسليم الأرشيف لا يعفي الفريق من البحث في كل واقعة، ولا يعفيه هو من الدفاع عنه. رفع إدريس وجهه.

«أريدك أن تدافع عني.»

«هذا عملي.»

«أقصد... لا أريد أن يصبح ما فعلته طلبًا للعقاب عن كل شيء.»

أمسك المحامي كتفه لحظة. «إذن تذكر هذه الجملة حين تتعب. سنطلب أن تُحاسب عما فعلت، وأن تُدفع عنك تهمة ما لم تفعل.»

تحرك الشرطي عند الباب، فرفع مروان يده مودعًا. وقف إدريس في مكانه حتى جاء دوره في السير. اعتاد في نهاية كل عملية أن يبحث عن مخرج يترك فيه الآخرين خلفه. هذه المرة كان يعرف الممر كله: المكتب، والدرج، والسيارة التي ستقله. عرفه، ومشى فيه.

الفصل السابع والعشرون

الغرفة التي كانت دافئة

الجمعة 20 فبراير

عند الباب أخرجت هناء بطاقتها، ثم الورقة التي تحدد سبب حضورها.

راجع الشرطي الاسم، وأفسح الطريق. في الحديقة رائحة تراب انكشف بعد المطر، وأغصان مقصوصة جمعت قرب الحائط. لم يتغير البيت كثيرًا. ذلك ما أزعجها: الباب نفسه، والنافذة نفسها، والدرجة التي تتجمع عندها المياه. أربعة أسابيع تكفي لتبديل معنى كل شيء، ويبقى الحجر في موضعه.

استُدعيت لتوضيح معاينتها في إجراء ميداني مأذون به، بحضور القائمين على التحقيق والدفاع والخبراء المعنيين. اسمها في قائمة الحاضرين يأتي بعد أسماء أخرى. قرأته، وأعادت الورقة إلى حقيبتها. في الداخل ينتظرها ما كتبته يوم كانت تعتقد أن تسجيل كل شيء ممكن إذا سألت السؤال الصحيح في الوقت الصحيح.

من غرفة جانبية سمعت صوت إدريس. التفتت فرأته جالسًا مع مروان، وشرطيًا عند الباب. وجهه أنحف قليلًا، وذقنه نمت على نحو غير منتظم. رفع رأسه حين لمحها. تبادلا إيماءة قصيرة. كانت آخر مرة رأته فيها يحمل إيصال تسليم الساعة ويخاف من البطاقة التي أبقاها لنفسه. الآن البطاقة في الملف، وهو في المكان الذي تجنب التفكير فيه.

على الطاولة أمام الفريق صورتان كبيرتان للغرفة، ومحضر المعاينة الأولى، وتقرير الطبيب التكميلي. إلى جوارها ملف أصغر يحمل نتائج استكمال البحث في الوثائق القديمة. وضع المسؤول يده عليه، وسأل هناء عن الموضع الذي عثرت فيه على ورقة «لن أسامحك».

أشارت إليه في الصورة.

خلال الأسبوع السابق جاءت موظفة مكتب رشيد التي تسلمت الرسالة سنة 2022. امرأة تقاعدت وغادرت الحي، أحضرت نظارتها في كيس قماش لأنها فقدت جرابها. كان اسمها في إفادة سلمى، فوصلوا إليها من ذلك الاسم. عرفت الرسالة، ثم قالت إنهم كانوا يحتفظون بصور مما يسلم باليد إذا تعلق بخلاف مفتوح. أعطت موضع الحفظ القديم، واسم الزميلة التي تابعت الأرشفة بعدها.

ظهرت نسخة الرسالة ضمن مواد المكتب المؤرخة في ذلك العام. الجملة نفسها، والحافة غير المستقيمة، والطرف الباقي من الحروف المطبوعة. خضعت النسخة وطريقة حفظها للفحص، وقورنت بالأصل الذي رُفع من قرب الجثة. لم تعد الحكاية تعتمد على أن سلمى تتذكر سنة كتابتها. صار لورقتها وجود سابق يمكن أن يراه غيرها.

قالت الموظفة في الاستماع إن رشيد أخذ الأصل منها في اليوم نفسه. سألته إن كانت ستضعه في ظرف لكمال، فقال إنه سيتولى الأمر. تذكرت ذلك لأنها كتبت اسمه في خانة التسليم، ثم اضطرت إلى شطب اسم كمال الذي بدأت به.

حين رأت هناء صورة خانة التسليم، لم تفكر في عبقرية من احتفظ بالورقة ثلاث سنوات. فكرت في الموظفة التي أكملت الخانة قبل أن تعود إلى عملها، وفي السطر الصغير الذي كاد يضيع بين أسماء كثيرة.

سألها المسؤول الآن: «هل كان في موضع العثور عليها ما يدل على زمن وضعها؟»

أعطته وصفها كما سجلته. موضع، وحالة، وصور. ثم قرأ عليها عبارة من إفادتها، فأكدتها. الرجل الذي دّون الجواب كتب بهدوء. لم يكن يحتاج أن تُعيد عليه نظرية الانتقام؛ الورقة القديمة أمامه، وخانة اسم رشيد إلى جوارها.

في ملحق الاستكمال أُغلقت ملاحظتان صغيرتان: الحقيبة في السيارة كانت لفني حمل جهازا من البيت لإصلاحه، وأثر الخاتم في يد سهام جاء من خاتم ارتدته أيام التصوير؛ أُرفق بالأولى طلب الإصلاح، وبالثانية صور العمل.

الأهم كان ما يمكن تثبيته من دورها: من اتصل بها، ومن دفع، ومن صحح الحكاية في السيارة، ومتى أعادت الهاتف. قارنت الجهة المختصة تسجيل التدريب بما أُخذ من عينات، وأثبتت حدود المقارنة، ثم أضافت أقوال نبيل وما تحقق من لقاءاتهما برشيد. هناء قرأت إفادة سهام التي اعترفت فيها بأنها فهمت أن الرجل المطلوب خداعه سيأخذ شيئا من بيت لا يملكه، وإن أقنعت نفسها بأنه سيعيده إلى صاحبته. هذا الجزء أبقته المرأة في كلامها بعدما عرفت ما قد يكلفها.

قالت عند سؤالها عن الهرب: «كنت أريد أن أصل إلى مكان لا يعرفني فيه أحد.»

كان خط الرحلة متصلًا برسالة إدريس التي وصلتها عبر امرأة الإنتاج. اتصلت بعد الرسالة بنبيل تطلب تفسيرا، فأمرها أن تغادر وألا تجيب. الرسالة وسجل الاتصال وموعد خروجها جعلت الرحيل نتيجة لها مقدمات، لا اختفاء غامضا يصلح لكل رواية.

أغلقت هناء الملف حين دخل المسعف الذي جاء لتوضيح موضع الجسد عند وصوله. تعرف إلى الممر، ثم طلب أن يمر من الباب إلى المكتبة مرة واحدة. تبعته بالنظر. وقف في الموضع الذي يراه إدريس من العتمة، وأشار إلى مكان المعدات التي فتحها زميله. عن تصلب الفك عاد إلى سجل التدخل وإفادته الأولى، وأعاد وصف ما واجهه في العمل وما قاله لزميله.

سأله محامي إدريس إن كان الرجل الذي اتصل يبدو جادًا في الإنقاذ.

قال: «كان يضغط حتى وصلنا. احتاج أن نناديه مرتين كي يفسح المكان. هذا ما رأيت.»

سأله محام آخر إن كان يستطيع الجزم بما فعله ذلك الرجل قبل الاتصال.

«وصلت بعده.»

خرجت الإجابتان بالنبرة نفسها. رأت هناء مروان يخفض القلم عند الثانية، ثم يعيد كتابة العبارة. احتفظت للحظة بصورة الرجال الثلاثة في الغرفة: واحد يعمل على جسد، وآخر يصل ليتسلم العمل، وثالث سيقرأ لاحقًا ما حدث. كل واحد يحمل جزءًا يراه من موضعه، وكل جزء يصير خطرًا حين يُطلب منه أن يملأ الغرفة كلها.

أُحضرت الصورة التي التقطها إدريس لعرض زاوية التصوير، ثم أعيدت إلى الملف. خلف الورق كانت النوافذ مفتوحة على نهار بارد. أحد العاملين مد يده إلى معطفه، ثم لبسه. حركة عادية أعادت هناء إلى ليلة وقف فيها رجال كثيرون في غرفة ضيقة، وظنوا أن ما شعروا به يروي ما جرى قبل وصولهم.

دخل رشيد بعد ذلك مع محاميه. فقدت سترته شيئًا من انتظامها، وفي عنقه أثر حلاقة حديث. نظر أولًا إلى المكتب، ثم إلى الموضع الذي كانت فيه الخزنة. توقف عنده ثانية أطول، قبل أن يلتفت إلى الحاضرين. عندما رأى هناء قال: «ظننت أنك خرجت من هذه القضية.»

قالت: «جئت لأجيب عن عملي فيها.»

أومأ، كأنه وجد الجواب مناسبًا. نظر إلى إدريس في الغرفة الجانبية، ثم إلى صورة الجسد على الطاولة. سحب كرسيًا، وأعاده حين أُشير إلى مكان آخر للجلوس.

في الأيام التي سبقت هذا الصباح كان الرجل المقبوض عليه عند محل الساعات قد صار اسمًا كاملًا في المحاضر: نبيل الراوي. انتقل من رواية شراء نسخة إلى الإقرار ببيع خدمة مختلفة لكل شخص. للوكالة زيارة تقييم، وليوسف صور، ولسهام دور وتمرين وهاتف. بعد إحالته واستكمال الإجراءات بشأنه، جرى فحص ما ضُبط معه وما دل عليه بنفسه، ومقابلته بإفادات الأشخاص الذين تعاملوا معه. كان يترك في كل مكان سببًا عاديًا لوجوده، ثم يستعمل الأسباب العادية جسورًا بين الأماكن.

قال إنه لم يعرف أن رشيد سيقتل كمال. قالها في أول جوابه وآخره، وبينهما أقر بما حاول أولًا أن يجعله معاملات منفصلة. الهاتف الذي أعادته سهام إليه ظهر الجمعة هو الذي أرسل منه الرسالة عند الثالثة والعشرين وست وأربعين. النسخة المحفوظة في هاتف إدريس قَابلها ما استُخرج من جهاز العمل الذي دل على موضعه. وفي حديثه عن الليلة وصف مكان وقوفه قرب الزقاق، ورؤية وصول النجدة، والوقت الذي انتظر فيه خروج رجل من جهة البيت.

كانت العبارة القصيرة مقصودة لتبدو اتفاقًا بين إدريس والمرأة التي استدرجته. أما معرفة الموعد فبدأت بمراقبة، وانتهت برسالة. هناء قرأت ذلك في المواد التي أُتيحت لها لتوضيح إجراءاتها، وتذكرت كم مرة قلبت السطر نفسه في المكتب، ومنحته كل احتمال يستطيع حمله.

لكن نبيل أعطى الفريق أيضا شيئًا لم يكن مجرد رواية عن شاشة: وصف تسلمه علبة الساعة من رشيد بعد الجريمة، ثم حملها إلى شقة إدريس في زيارة الوكالة. صار على البحث أن يتتبع العلبة وموعد التسليم والأشخاص الذين رأوهما، وأن يقابل قوله بما احُتفظ به من اتصالات ومواعيد. إحدى الرسائل من هاتف رشيد بشأن «العلبة الصغيرة» كانت تبدو، وحدها، تكليفا بمشوار. بجوار موعد الوكالة، وأقوال موظفتها، وصورة الساعة قبل تسليمها، صار المشوار أقصر بكثير من الحكاية التي رواها نبيل أول مرة. وفي إفادته قال: «اشترطت أن يرسل صورة مفتوحة قبل أن أحمل العلبة. أردت أن أعرف ما أتسلّمه، وأن يبقى عندي ما يثبت من أعطاني إياه».

أنكر رشيد أن تكون العلبة المقصودة هي الساعة. أنكر علمه بوضع أي شيء في الشقة. وحين سئل عن صور الساعة في هاتف نبيل قال إن التقييم أمر طبيعي بين أشخاص يتعاملون في المقتنيات. ظل لكل دليل تفسير يستطيع أن ينطقه. المشكلة أن التفسيرات صارت تحتاج إلى أشخاص آخرين يقولون إنهم فعلوا أشياء لم يفعلوها.

أُدخل إدريس أولًا لبيان مسار دخوله وما غيّره أثناء الإنقاذ. وقف عند طرف الممر، بعيدًا عن مواضع الأدلة المحفوظة، واستمع إلى التعليمات. قال إنه رأى الساق من هنا، ثم تقدم. أشار إلى الموضع الذي نزل فيه على ركبته، وإلى الهاتف، وإلى الباب الذي فتحه

للمسعفين. طلب منه المسؤول أن يعيد تحديد مكانه حين التقط الصورة الثانية.

عاد خطوة إلى الظلام عند الممر.

قال: «من هنا. كنت أرى طرف الخزنة والباب. أحد المسعفين مر أمامها.»

رفع المصور صورة الاسترجاع إلى جوار الصورة الأصلية. اختلف الضوء والأجساد، لكن الإطار الذي وصفه احتمل ذراع المسعف عند الحافة. قُرئت عليه العبارة التي ذكرها في روايته المكتوبة عن خوفه من التعرف عليه، فأكدها. ثم سئل عما رآه في جهاز التسجيل عند دخوله.

«لم أفحصه. رأيت ما وصفته في الصور، وخرجت بيدّي فارغتين.»

هناك كانت قرينة قديمة تنتظر مكانها: المتسلق في فيديو الجار يخرج بلا شيء ظاهر في يديه، وقرص التسجيل مفقود. الحقيبة والجيب يظلان احتمالًا، لكن رواية نقل الجهاز بدأت تجد طريقًا آخر. نبيل أقر بأنه تسلم من رشيد قطعة تخزين في كيس مستقل، مع طلب التخلص منها. دل على مكان احتفظ فيه بها بدل تنفيذ الطلب، لأنه خاف أن يصبح هو الشخص الوحيد الذي لا يملك ورقة يحمي بها نفسه.

كان فحص القطعة ما يزال جاريًا. الخبير أثبت صلتها بالتجهيز الذي استُعمل في البيت من بيانات الجهاز ومواصفاته، أما ما يمكن استعادته منها فله تقرير آخر. نقل المسؤول هذه الحدود كما هي، ثم سأل رشيد عن تسليمها.

قال: «هذا الرجل يضع عندي كل ما يثبت عليه.»

أُثبت جوابه.

في الجزء التالي من المعاينة وقف الفني عند البوابة. خرج الحاضرون إلى الحديقة، وسمعت هناء احتكاك أقدام كثيرة بالحصى. هنا يعود الهواء عاديًا، والسماء واسعة، ويصعب أن تتخيل أن زرًا صغيرًا يمكن أن يحتفظ بمعنى يدخل بعد أسابيع في حياة امرأة.

الفني الذي شارك في التركيب الأول أحضر سجل العمل، وما بقي من تعريف الأجهزة التي سُلّمت يومها. الجهاز الموسوم «ط.ك» ارتبط بالخانة الثالثة، ثم خُصص لاستعمال رشيد في الزيارات التي يجريها إلى كمال. كانت هناك أعمال صيانة لاحقة؛ راجعها مع زملائه، وربط القراءة الحالية بما حفظوه من برمجة وسجلات. وجهاز يوسف، الذي سُلّم للفحص، يطابق الخانة الأخرى التي ظهرت في زيارة الخميس.

عرضوا كذلك مفكرة كمال. في مواضع متباعدة من السنوات التالية لعام 2023 ملاحظات عن الجهاز الذي عند رشيد، إحداها تتعلق بطلب إعادته عند تبديل تجهيزات الباب. في زيارة الصيانة السابقة للجريمة بأسبوع جرى اختبار جهاز حضر به رشيد، وأثبته الفني في سجل الزيارة. الرقم والمواصفات يربطان ما اختُبر بما ظهر في الصور القديمة، وتتبع الصيانة يمنع القفز من خانة اليوم إلى اسم الأمس بلا طريق بينهما.

قُرئت على رشيد روايته عن إعادة الجهاز سنة 2023، ثم الخبر الذي نسبه إلى كمال عن إعطائه لسلمى.

نظر إلى المفكرة. «أعدته مرة، ثم أخذته في زيارة أخرى.»

سأل المسؤول: «متى؟»

«لا أذكر الآن.»

«ومتى عرفت أنه عند سلمى؟»

وضع رشيد يده على ذقنه. قال إن كمال تحدث عنها، وإنه ربما جمع بين حديثين. كان محاميه يكتب. تحركت هناء خطوة إلى الجانب لتترك للمصور مجالًا أوسع. من موضعها رأت الجرس منفصلا عن جهاز الفتح، ورأت الموضع الذي وقفت فيه سلمى وضغطته بيد واحدة بينما تحمل حقيبتها بالأخرى.

استمعوا إلى بيان الفني عن عمليتي الفتح في الثامنة وإحدى وثلاثين والثامنة واثنتين وخمسين، مع الهامش الذي حدده. أُرفق مسار سلمى من مكان عملها، وما تحقق من الاتصال والصورة ورحلة سيارة الأجرة. أصبحت دعوى أنها استعملت الجهاز في هذين الوقتين تتطلب هدم وقائع تحفظها هواتف وأوراق وأشخاص مستقلون، فيما يتطلب وضع رشيد قرب البيت رحلة تقع داخل الفراغ الذي تركه في المطعم.

قال محاميه إن إمكان الرحلة لا يثبت حصولها.

وافق المسؤول، ثم أعاد السؤال إلى موكله: «أين كنت بين رؤيتي موظف التوريد لك؟»

«خرجت لأستريح من الضجيج.»

«والاتصال الذي قدمته؟»

«كان بعد ذلك.»

أخذت العبارة مكانها في المحضر. صار عليه أن يخرج مرتين في مساء اعتاد أن يقدمه كخروج واحد. مرة يراها الباب الجانبي وشاهدان وصورة المعطف، ومرة يسجلها الهاتف عند التاسعة وعشرين دقيقة. حين دخلوا إلى المكتبة من جديد، تأخر رشيد عند العتبة حتى أشار إليه محاميه.

في الداخل كانت المدفأة المماثلة موضوعة وفق الصورة التي التقطت ليلة المعاينة. الأصل محفوظ للفحص، والبديل لهذا العرض وحده. تولى الفني بيان وظيفة الوصلة، وتأكد أمام الجميع من حالة الجهاز الذي سيستخدمه. لا حساب لوقت وفاة في التجربة، ولا جسد يحاكي جسدا. مجرد جهاز تراه العين مطفأ بعد أن كان يعمل، ومفاتيح على وضع يسمح بعودة التشغيل، وطريق للتحكم لا يقتضي بقاء صاحبه في الغرفة.

أُشير إلى موضع هناء عند دخولها أول مرة. وقفت فيه، وأعادت وصف الهواء والفنجانين والنافذة المغلقة والمدفأة المطفأة ذات الجسم الفاتر. قرأوا عليها ما طلبت تسجيله قبل فتح النافذة، ووقت الفتح. كانت تشاهد قراراتها القديمة تتحول إلى أشياء يستطيع آخرون امتحانها، بما فيها القرار الذي آخر الوصول إلى كاميرا الشارع.

سألها محامي رشيد عن التسجيل الضائع.

أجابت عن المذكرة، والشرطيين، وطلب الحفظ الذي لم يعّوض الوصول الفعلي. قرئ رقمها، ثم اسم من وافق عليها. قاسمي، الذي حضر هذا الجزء لتوضيح توزيع العمل، أكد موافقته. استقر صمت ثقيل بعد الجملة.

قال المحامي: «إذن فقدتم ما قد يثبت أن موكلي لم يمر من هنا.»

قالت هناء: «فقدنا تسجيلًا كان يمكن أن يظهر من مر في مجال الكاميرا. هذا ما أستطيع قوله عن محتواه.»

«وقد يبرئه.»

«نعم.»

كتبت الكلمة كما نطقتها في إفادتها التكميلية. شعرت بثقلها في يدها، ثم تركت القلم. كان يمكن أن تفيد خصمًا تعرف الآن كم

يضيق الطريق حوله. لهذا، بالضبط، وجب أن تبقى.

انتقل السؤال إلى الطبيب. شرح ما انتهى إليه بشأن إصابة الرأس وما توافق معها من آثار على مسند الكتب، والنتائج التي تدعم أن الإصابة سببت الوفاة. فصل ذلك عن إصابات تتفق مع محاولة الإنعاش. عند سؤال الوقت عاد إلى التقرير الأول والتكميلي، وإلى المعطيات التي حالت دون اعتماد التبريد المعتاد في هذه الغرفة.

قال: «إذا سُّخن المكان والجسد، تتغير نقطة البداية التي يحاول الحساب الرجوع منها. لا أستطيع أن آخذ درجة قِيست بعد ذلك وأتعامل معها كأن الغرفة ظلت على حال واحدة.»

سأله المسؤول إن كانت وفاة قبل التاسعة تتعارض مع نتائج الفحص.

«لا. ويمكن فحص هذا الزمن مع الأدلة الأخرى. أما الدقيقة فليست عندي.»

نظر رشيد إلى صورة الجسد. للمرة الأولى انحنى حتى اقترب منها، ثم اعتدل. الساعة التي حمت صوره في العشاء سقطت من الغرفة. صوره ظلت صحيحة: كان يأخذ دواءه، ويساعد أبا أمين في قراءة الجريدة، ويضحك مع رجل غنى للمرة الأخيرة أمام أصدقائه. كل ذلك وقع. الذي تبدل هو السؤال الذي كانوا يطلبون من الصور أن تجيب عنه.

طُلب من إدريس أن يحدد ما جعله يعتقد أن ما جرى قريب. قال: «الدفء. ورغبتي في أن أكون وصلت في الوقت المناسب.»

توقف قليلًا، ثم أضاف: «حسبت أنني أقرأ الجسد. كنت أقرأ الغرفة التي وجدته فيها.»

رأت هناء رشيد يلتفت إليه. كان في النظرة شيء يشبه التعرف إلى عبارة انتظر سماعها، ثم أخفاه بالعودة إلى الورق.

قُدم تقرير فحص الأثر داخل الساعة. المادة تتضمن حبرًا، وخصائص العينات التي أمكن مقارنتها تتوافق مع الحبر المأخوذ من أدوات رشيد المحجوزة، ضمن حدود الفحص. لم يمنح الخبير لقلم بعينه ملكية اللطخة، ولم يؤرخها بليلة القتل. ذُكر أن يوسف فتح الغطاء، وأن إدريس فتحه أيضًا، وأن التداول السابق يدخل في تقييم النتيجة. كان ذلك كله مكتوبا قبل سؤال رشيد عن الساعة.

قال رشيد: «أتعامل بهذه الأشياء منذ سنوات. وربما أمسكتها في بيت كمال.»

«قلت في إفادتك الأولى إنك لا تذكر أنك فتحتها.»

«لا أذكر.»

فُتحت صورة العلبة التي أرسلها إلى نبيل. النسخة الأصلية من الرسالة ومصدرها في الهاتفين خضعت للتحقق، وتاريخها يقع بعد الجريمة وقبل زيارة الشقة. يظهر الغطاء في الصورة مفتوحا، والساعة فوق سطح يعرفه رشيد من مكتبه. إلى جوارها زاوية من جراب نظارته، ذلك الذي نسيه مرة في المصلحة وعاد يسأل عنه.

أمسك محاميه الصورة، وطلب مراجعة تقرير استخراجها. أعطي الوقت لذلك. كانت هناء تنظر إلى حافة الساعة، وتفكر في يد ابنها وهو يرفع قلمين أخضرين. الفحص عاد إلى حجمه الصحيح: جزء من مشهد أكبر، لا لون يكشف رجلا بمفرده.

حين استؤنف السؤال قال رشيد إنه أخذ الساعة ليحفظها من الضياع.

سأله المسؤول: «متى أخذتها؟»

رفع رأسه إلى محاميه. تبادلا كلمات بصوت منخفض، وُطلب وقت للتشاور. خرجت هناء إلى الحديقة حين توقفت المعاينة. في الخارج وجَدت قاسمي عند الحائط، ينظر إلى الطريق الذي جاءت منه السيارات.

قال: «كان يملك وقتًا قبل الصور.»

«نعم.»

«وأنت طلبت فتح البحث فيه.»

نظرت إليه. لم تكن الجملة اعتذارًا، ولم يطلب أن تتلقاها على ذلك النحو. قالت: «والتسجيل ضاع في الوقت الذي اخترته لشيء آخر.»

أومأ. مر شرطي يحمل حقيبة، فتنحيا له معًا. حين عاد الهدوء سألها عن ابنها. أجابت أنه ينتظرها بعد المدرسة. نظرت إلى الساعة، ثم وضعت الهاتف في جيبها من غير أن تبدأ وعدًا جديدًا قبل أن تعرف متى ستخرج.

طُلب من هناء أن تبقى لتوضيح ما قد يعود إلى معاينتها واستماعاتها السابقة. بعد التشاور مع دفاعه، عاد رشيد إلى الكرسي الذي خُصص له. وضع محاميه أوراقه أمامه، وحددت ساعة استئناف الاستماع. من مكانها رأت هناء الكأس بين يديه.

قال رشيد: «ذهبت إليه في المساء. كان حيًا حين دخلت.»

«لأي غرض؟»

«أوراق تخصنا. أردت أن أسترجعها.»

«وبقيت تقول إنك كنت في المطعم.»

مرر إبهامه على حافة الكأس. «كنت في المطعم فعلًا.»

وضع المسؤول أمامه صورة التاسعة واثنتي عشرة دقيقة، وإفادة موظف التوريد، ثم محضر البوابة. نظر رشيد إلى الأوراق التي تملأ غيابه عن الصور.

«خرجت. وعدت. هذا ما تريدون قوله.»

«نريد ما حدث بينهما.»

شرب، وأعاد الكأس إلى موضع أبعد قليًلا.

«قال إنه سيعطيني نسًخا. نسًخا من أوراقي، في بيته هو. ثم قام وفتح الرف كأنه ينهي زيارة.»

رفع يده نحو الرف، فتوقف المصور حتى أكمل الإشارة. عادت هناء في ذهنها إلى الرجل الذي حمل الدواء إلى أبي أمين. الأصابع التي وصفت موضع الدواء كانت الآن تحدد موضع مسند الكتب.

«ماذا فعلت؟»

«أمسكته. كان أقرب شيء إلى يدي. ضربته، فوقع.»

«تقول إنك أخذته أثناء الخلاف.»

«هذا ما حدث.»

انتظر المسؤول حتى ُأثبت الجواب، ثم دفع إليه صورة ورقة «لن أسامحك».

«وهذه؟»

نظر رشيد إلى محاميه. انحنى المحامي إلى الصورة، وطلب أن توضع بجوارها نسخة سجل المكتب. ُفعل ذلك. استقر اسم رشيد في خانة التسليم تحت عينيه.

«وجدتموها قربه»، قال.

«تسلمتها أنت سنة 2022. متى أخرجتها من مكتبك؟»

جاء صوت بابٍ يُغلق في الممر. تتبعه رشيد بعينيه حتى سكن.

«كانت معي.»

«حين ذهبت إليه؟»

«نعم.»

«لماذا تحمل إلى خلاف على الأوراق رسالة امرأة قالت إنها لن تسامحه؟»

حرك رشيد الصورة قليًلا. استقام طرفها مع حافة محضر البوابة. قالت هناء في نفسها إنه ما زال يرتب المكتب، ثم صرفت نظرها إلى الكأس.

قال: «كنت أريد الأوراق منذ ديسمبر. كان يقول إنه سيخبرهم بكل شيء، ثم يؤجل. كلما تحدث عن ضميره صار يريد أن يدفع غيره الحساب.»

«أي حساب كنت ستدفعه أنت؟»

«مكتبي. كل ما بنيته فيه. إذا سّلم الأصول وشرح كيف خرج بيت الحسوني من أصحابه، فلن تسألوني عن خطأ في تاريخ. ستسألونني عن عقود صدقت عليها وأنا أعرف ما فيها.»

«وتخشى السجن؟»

«أتعجبك الكلمة؟ نعم. كان سيذهب إليهم بأوراقه، ويقول إنه جاء ليصحح. وأبقى أنا صاحب الختم.»

فتح المسؤول شكوى 2022. «قلت إن وثائقٍ سُرقت مع المال. إدريس يقول إنه أخذ النقود، وصوره تُظهر أوراقًا تركها. ما الذي أدرجته أنت في الشكوى؟»

انحنى رشيد إلى الصفحة. «المال اختفى فعًلا.»

«والوثائق؟»

«أضفتها. كان هناك من يطالب بالأصول. بعد السرقة صار عندي جواب رسمي عن غيابها.»

«مع أنك احتفظت ببعضها، وكمال ببعضها؟»

«كان يحتفظ بما يخصه ويخصني. هذه كانت المشكلة حين قرر الكلام.»

أُثبتت إجابته بجوار قائمة الوثائق، ثم عاد المسؤول إلى الورقة التي حملها إلى البيت.

«وسلمى؟»

«كان سيقابلها.»

«عرفت ذلك يوم الثلاثاء؟»

«نعم.»

«من دفتر المواعيد؟»

«قرأته.»

«وقلت إنك عرفت موعدها بعدما سُئلت عنه هنا.»

رفع الكأس، ثم وضعها من غير أن يشرب. «نعم.»

قلب الكاتب صفحة. سمعت هناء احتكاك الورق، ورأت اليوم الذي وضعت تحته نقطة يعود إلى فم الرجل الذي قرأه قبلهم.

سأله المسؤول: «ماذا غير الموعد؟»

«عرفت أنه بدأ. هذه المرة كان سيعطي شيئًا لشخص يستطيع استعماله.»

«فحملت رسالتها.»

«ستأتي في التاسعة. وتغضب إذا تُركت عند الباب.»

«أردتها أن تقف هناك بعد أن تقتله؟»

شد رشيد أصابعه حول الكأس. تكلم محاميه، فوقف السؤال حتى انتهى من ملاحظته وأُثبتت. حين أُعيد، نظر رشيد إلى صورة الغرفة.

«أردت أن يبحثوا عمن جاء غاضبًا.»

«وإدريس؟»

«كان سيأتي بعد ذلك.»

«هل عرف أنك ستكون هناك قبله؟»

«كان يعرف قصة الساعة.»

أُعيد عليه السؤال فأجاب بالنفي. تحركت هناء في كرسيها. خلف الباب رجل كان قد حسب أقصر استراحة لحارس، وفحص ختمًا، واتصل بمن يصحح له كذبة. هنا يختصره رشيد في القصة التي اختارها له.

«اخترتموه لسرقة الأوراق؟»

«لأصل إليها. الساعة جعلته يقبل.»

«ومتى صار دخوله غطاءً للقتل؟»

ضغط رشيد على ركبته براحة يده. «بعد الثلاثاء.»

سكت المسؤول لحظة، ثم عاد إلى الفاتورة.

«المقبس اشُتري قبل زيارة الثلاثاء. لماذا؟»

«اشتريته لأدخل. ثم استعملته لأغّير الوقت الذي ستبحثون فيه.»

«اشرح.»

«الرطوبة. الكتب والساعات. قلت إنني سأضبط له الجهاز على هاتفه. كان ذلك يسمح لي أن أكون في المكتبة، وأن أرى أين يضع الأوراق.»

«وبعد أن قرأت الموعد؟»

نظر إلى صورة المدفأة. «صار عندي استعمال آخر.»

«لذلك نقلتها من موضعها؟»

«قّربتها.»

«واستعملت التحكم الذي أعددته؟»

«نعم.»

أعادوا عليه تسلسل ما ذكره، وقابلوه بأقوال فاطنة والصور وبيانات الحساب. أعطى أوقاتا للتشغيل والإيقاف؛ أُثبتت بوصفها أقواله، وأُحيل التحقق مما يمكن تأييده إلى الفحص. في الورقة التي أمام المسؤول ظل موضع الساعة الدقيقة فارغا. أما الفراغ بين خروجه من المطعم وعودته، فكانت فيه البوابة والطريق والجهاز قبل أن يتكلم.

«ماذا أخذت من الخزنة؟»

«الأوراق التي وجدتها.»

«والساعة؟»

«فتحتها. ظننت أنه قد يضع شيًئا فيها.»

«ثم؟»

«أخذتها.»

سأله عن العلبة التي سلمها إلى نبيل. هذه المرة ذكر الساعة باسمها. وعن المال قال إنه تركه في موضعه.

«حتى تبدو سرقة ساعة؟»

أومأ، فُطلب منه الجواب بصوت مسموع.

«نعم.»

وقف الكاتب عند آخر السطر، ينتظر بقية الجملة. رشيد أزاح الكأس إلى اليمين؛ انكشفت تحتها حلقة ماء، فبحث بعينيه عن منديل.

سألوه عن نبيل وبنعيسى. أقر بأنه طلب الوصول إلى الورقة ومعرفة ما قاله الرجل للصحفي. أنكر أنه أمر بإيذائه. تلك الواقعة أخذت ملفها وأدلتها، ولم يجعلها المحققون خاتمة سهلة لكلٍ ما فعله. بنعيسى، في إفادته القصيرة بعد أن سمح الطبيب، وصف يدا جذبته عند الدرج حين حاول الاحتفاظ بهاتفه. نبيل أقر بالمشادة والجذب، واختلف معه في لحظة السقوط. شهادة صاحب محل الإصلاح، والاتصالات، وزمن الزيارة صارت أجزاءُ تراجع، بدل أن تصبح عبارة «سقط» اسمًا مريحا لما حدث.

قبل أن ينتهي الاستماع سأل رشيد عن الوثيقة التي قدمها يوم الثلاثاء. قال إنها تساعد سلمى، وإنه هو من أخرجها.

أجابه المسؤول بأنها أُدرجت في الملف، وأن أثرها سُيبحث مع بقية المواد. انتظر الرجل شيئًا آخر. ثناء، ربما، أو فرقا في طريقة نطق اسمه. جاءه بدلًا منه سؤال عن الملحق الذي يحمل توقيعه إلى جوار توقيع كمال.

كان الأرشيف الذي سّلمه إدريس قد أعاد وصل هذا الملحق بمراسلات وأصول يمكن طلبها من جهاتها. أوراق رشيد نفسها أضافت مراجع تساعد على مطابقتها. ما عرضه ليدين شريكه لم يبق في الجزء الذي اختاره منه.

في نهاية اليوم سمحوا لهناء بالانصراف بعد استكمال إفادتها. مّرت بإدريس وهو ينتظر إجراء نقله. قام نصف قيام، ثم جلس حين أشار الشرطي إلى أن يبقى مكانه. سألها: «هل قال متى؟»

«قال أوقًاتا. سُيفحص ما يؤيدها.»

أطرق قليًلا. «كنت أريد دقيقة أعرف عندها أنني تأخرت.»

رأت يديه على ركبتيه. اليدان اللتان ضغطتا على صدر كمال، وحملتا الساعة، ووقعتا على أسماء سرقات أخرى. قالت: «ما فعلته حين وجدته مكتوب. لا يحتاج أن يمنحك هو معناه.»

أومأ. خلفه فتح الشرطي الباب. في الممر الآخر كان رشيد يخرج مع مرافقيه، يحمل معطفه على ذراعه. رأت هناء المعطف، وتذكرت الصورة التي قرأوها أول مرة كأنها استعداد للخروج. تحرك الرجل، فاستدار نحو الباب الصحيح حين أُشير إليه.

في الخارج اتصلت بابنها. أجاب بعد رّنتين، وصوت زملائه حوله.

«انتهيت»، قالت. «أستطيع أن آتي الآن.»

«أنا عند الباب الخلفي.»

سألته أي باب، فشرح لها الطريق بصبر قصير. استمعت حتى أنهى. ثم مشت إلى سيارتها.

الفصل الثامن والعشرون

مكان لمن يعود

يونيو 2027

عرف إدريس الحارس من طريقة حمله للخبز.

كان الكيس هذه المرة شفافًا، وفيه رغيف صغير وزجاجة ماء. وضعه الرجل عند قدميه قبل أن يجلس في مقاعد المنتظرين، ثم تحسسه بطرف حذائه ليتأكد أنه لم يدخل تحت المقعد الأمامي. شاب أصغر منه انحنى وقال شيئًا في أذنه. أومأ الحارس، ورفع وجهه إلى القاعة.

تلاقت عيناهما لحظة. لم يرفع يده.

كانت الجلسة قد تأخرت. أصوات تختلط عند الباب، ومحام ينقل ملفًا من ذراع إلى أخرى، وامرأة تصلح ياقة طفل جاء معها لأن أحدًا لم يستطع البقاء معه في البيت. في الجهة الأخرى جلس رشيد إلى جوار مرافقيه. شعره أقصر، وفي وجهه امتلاء مختلف. يتابع الداخلين كما كان يتابع ضيوف المطعم، بعين تستقر على كل شخص وقتًا يكفي لمعرفة ما جاء به.

مر أكثر من عام منذ الغرفة الدافئة. خلاله صارت الأقوال تقابل بأصولها، والرسائل بتقارير استخراجها، والأموال بمساراتها، والاعتراضات بأجوبة قد تستغرق شهرًا. أُعيد سماع بعض الشهود، وتراجع آخرون عن تفاصيل كانوا قد جزموا بها، وأكدوا ما استطاعوا. ظهرت وقائع تتطلب ملفات مستقلة، وانفصلت حقوق مدنية عن اتهامات جنائية، وبقيت معاملات عقارية أبطأ من القضية التي فتحتها.

إدريس تعلم أسماء هذه المراحل من مروان، ثم تعلم الوقت الذي يفصل بينها من الباب الذي يغلق كل مساء. بعد عرضٍ إقراراته صدرت القرارات المتعلقة بوضعه، وطعن دفاعه فيما رأى موجبا للطعن فيه. نوقشت أسباب استمرار اعتقاله، وتابعت المحكمة ما أحيل عليها من وقائع مترابطة، فيما أخذت سرقات أخرى طريقها في ملفات مستقلة. كان يطلب من المحامي أن يشرح له الفرق كلما اختلطت عليه الأوراق. لم يعد يعتبر اختلاف الأبواب خطأ في بناء المكان.

في أول شهر حسب الأيام على ظهر ظرف. بعد ذلك بدأ يكتب مواعيد الزيارات وما يريد قوله فيها. مرةً جاء مروان، فوجد عنده عشرين سؤالا عن تقرير فني وسؤالا واحدا عن حال بنعيسى. قرأ إدريس القائمة بصوت مسموع، ثم عاد إلى السؤال الأخير قبل أن يبدأ المحامي بالأول.

الآن بنعيسى في القاعة أيضا، إلى جانب ابن أخيه. مشيته أبطأ، ويده اليسرى تحتاج أحيانا إلى أن تسندها الأخرى. رآه إدريس يبدل موضعها على ركبته، فعاد إلى لقائهما في الممر قبل أشهر، حين جاء الرجل لاستكمال أقواله وطلب أن يشرح. سمح لهما بالحديث دقائق، ومروان قريب والشرطي عند الباب.

قال له إدريس يومها: «قل ما فعلت. أسمع الباقي بعده.»

كان بنعيسى يمسك طرف كمّه بيده السليمة. «عرفت نبيل قبل هذه القضية. تعاملت معه قبلها. دلّني مرة على صاحب معاملة.»

«وعرفت اسمه؟»

«عرفت الاسم الذي استعمله معي. وبعض عمله.»

«قلت إن صاحب حق جاءك.»

«ذلك ما قاله.»

«أسألك عما قلته أنت.»

ترك بنعيسى الكم. انزلقت اليد المصابة قليًلا، فأعادها إلى فخذه. قال إنه تسلم الملف جاهزا: الصور، وأسماء يمكن السؤال عنها، والوثائق التي سيطلبها إدريس حين يبدأ التحقق.

«والورقة؟»

«وصلت معها.»

«لا يتحرك قبل أن يتحقق. أعطوه ما يتحقق منه.» قالها إدريس من حفظه، ببطء جعل بنعيسى ينظر إلى الباب.

«كنت أظن أن كثرة التحقق ستحميك.»

رفع إدريس وجهه. لمح انعكاسه في زجاج الباب المقابل؛ فمه مفتوح قليًلا، والفك مشدود كما لو أنه ينتظر كلمة أخرى تكمل ما سمعه. أغلقه، وأدار الورقة التي يحملها إلى ظهرها. كان قد جاء وفيها أسئلة عن نبيل. الآن وجد أن السؤال يقع قبل الاسم.

«من أخبره بما أفعله حين أطمئن؟»

مسح بنعيسى بيده السليمة على فخذه. «أنا. تحدثت عن طريقتك.»

«وهو أعادها إليك تعليمات.»

«نعم.»

«فلماذا احتفظت بها؟»

قال إنه أراد ما يرجع إليه إذا اختلفا؛ شيًئا يثبت أن ترتيب الملف جاءه من الوسيط. ضغط إدريس ظفره في حافة الورقة. احتفظ بنعيسى بما يحميه إذا اختلفا، وتركه هو يدخل بالملف الذي أعّده الرجل الآخر.

سأله عما أخذه مقابل تمرير المهمة. ذكر بنعيسى المبلغ الذي أثبته في إفادته. وبعده أسرع إلى القول إنه ما كان ليقبل لو عرف أن كمال سيُقتل.

قال إدريس: «كنت تعرف أنني سأسرق.»

أطرق بنعيسى. «نعم.»

مر عون يحمل رزمة ملفات، فتراجعا قليلًا ليوسعا له الطريق. حين عادا إلى موضعيهما كان مروان واقفًا، الدقائق انتهت.

قال بنعيسى: «كنت أظن أنني أعرف ما يكفي لأحميك.»

أجابه إدريس: «وأنا كنت أظن أنك تعرف لأنني أثق بك.»

مد بنعيسى يده السليمة نحو الكم العالق تحت الأخرى. راقبه إدريس حتى حرره، ثم تحرك مع الشرطي. كانت الورقة في يده قد انثنت عند الاسم الذي جاء يسأل عنه.

في القاعة عاد بنعيسى يسند يده إلى الأخرى. كانت الورقة المطبوعة قد قورنت بما ضبط، وأُثبت في إفادته ما تسّلمه وما أخفاه عن إدريس. رفع عينيه حين تحرك العون بين المقاعد.

نادى العون الحارس. نهض، وانحنى إلى الكيس، ثم تركه حين أشار إليه الشاب. تقدم إلى الموضع المحدد له. سئل عن اسمه وعمله وما يعرفه من الوقائع. تكلم ببطء، وصوته أعلى قليلًا مما يحتاج إليه المكان.

قال إنه رأى إدريس في المكتب، وإن الخزنة كانت مفتوحة، وإنه حمل ظرفًا. وصف الخبز والدواء، وعودته المبكرة، وما دار بينهما. وحين سئل عما أخذه إدريس أجاب بما رآه، وفصل ما عرفه لاحقًا من صاحب المكتب.

«ترك النقود. رأيتها في مكانها بعد خروجه.»

رفع أحد المحامين رأسه. «هل كان يستطيع أن يأخذها؟»

«كانت الخزنة مفتوحة.»

«وهل معنى ذلك أنك كنت موافقًا على ما فعله؟»

شد الرجل ياقة قميصه. «كنت أريد أن يخرج من غير أن تقع المصيبة علّي.»

في القاعة حركة خفيفة. انتظر حتى هدأت، ثم أضاف أنه تلقى منه ورقة يقر فيها بمسؤوليته وينفي علاقة الحارس. أخرج الأصل من حافظة نايلون قديمة. كان قد قدمه قبل الجلسة وصّور وألحق بالملف، لكنه حمله اليوم كما يحمل شخص شيئًا يخشى أن يقال له إنه تركه في البيت.

عادت إليه جملة الحارس على السلم: «أنت تمضي، وأنا أبقى». في القاعة هذه المرة كان الرجل يستطيع أن ينهي شهادته ويعود إلى عمله، وإدريس ينتظر ما سُيقرأ في حقه.

تعرف إدريس إلى خطه. جملة كتبها سريعًا لتمنح رجلًا طريقًا إلى مساء أقل سوءا. يومها عرف، من وجه الحارس، أن الورقة أضعف مما يريد. الآن عبرت القاعة ببطء، من يد إلى يد، وصارت على طاولة أعلى منه.

سئل الحارس إن كان إدريس قد هدده بسلاح.

«رأيت يديه. كان يحرص أن أراهما.»

«هل هددك بكلام؟»

أعاد ما يتذكره. توقف عند موضع، وقال إن العبارة الدقيقة اختلطت عليه. طلب منه القاضي أن يقتصر على ما يذكر، فتنفس

براحة ظاهرة.

في آخر شهادته سألوه لماذا حضر بعدما مرت مدة طويلة.

قال: «حين قرأت اسمه عرفت الرجل. عندي ورقته. فقلت آتي بها.»

أُعيد إليه ما يلزم بعد إثباته، وعاد إلى مقعده. انحنى إلى كيس الخبز، ثم رفعه إلى ركبتيه. إدريس نظر إليه حتى جلس. كان يريد أن يعرف إن كان ما زال يعمل عند عبد الجليل. عرف من مروان أنه انتقل بعد أشهر إلى مستودع بأجر أقل، وأن الخلاف الذي تلا السرقة دخل في أوراق منفصلة. شهادة الرجل لا تمحو ذلك، ولا تجعل الورقة تعويضا عن راتب ضاع.

حين تحدث الدفاع عن طريقة إدريس في تلك الواقعة، وعن ترك النقود والحرص على ألا يُتهم الحارس، سمع إدريس المحامي يعيد الأشياء إلى حجمها: قرائن تتصل بالسلوك والنية في واقعة معينة، تناقش مع ما يقابلها. لم يقل إن من يترك المال مرة يعجز عن القتل، ولا إن المساعدة تمنح حق اقتحام البيوت. كانت هذه أول مرة يشعر فيها أن دفاعا لا يجمله يستطيع أن يقف إلى جانبه.

في الجلسات السابقة استمعت المحكمة إلى هناء والطبيب والخبراء. أعيد عرض الصور والأوقات والاتصالات، وتناول الدفاع ما فُقد وما بقي، وتداولوا في أثر الحبر ومرور الساعة بين الأيدي. كمال لم يعد في الأوراق رجلا خيّرا قُتل أو رجلا فاسدا استحق ما وقع؛ صار ضحية قتل له أفعال أخرى لا يمنح موته أحدا حق محوها.

عن بنعيسى اختلفت الأقوال في تفاصيل الحركة على الدرج، وثبت من الوقائع ما يسمح بمناقشة مسؤولية نبيل عما فعل. وعن رشيد قامت الأدلة على أفعال سبقت كلامه عن القتل ولحقته: ترتيبات

الاستدراج، حيازة الجهاز، الفجوة في المطعم، الوثيقة القديمة التي ظهرت قرب الجسد، والساعة التي انتقلت إلى شقة إدريس. اعترافه أضاف روايته إلى هذا البناء، وناقشه محاموه في مواضعه. أوقات التشغيل الدقيقة ظلت أقوالًا حيث تعذر ما يثبتها، ولم تتحول إلى ساعات رسمية في الجداول لمجرد أنه نطق بها.

جلس إدريس يستمع إلى ذكر صورته في المقهى، وإلى الكلمات التي قالها للمجيب في النجدة، وإلى جملته التي طلب فيها بقاء الصوت معه. كانت بعض اللحظات تعود إليه أشد وضوحًا كلما سمعها من غيره؛ وفي لحظات أخرى يجد أن ذاكرته صنعت تفاصيل لا يظهر لها أثر. تعلم أن يقول لمروان إنه لا يذكر، وأن يحتمل الصمت الذي يأتي بعد ذلك.

وعن سهام عرف من مروان أن ما أقّرت به من استدراجُ أحيل في ملف مستقل؛ كانت تحضر ماُ تستدعى إليه، وطلبت أن تصلها المواعيد عبر محاميتها، بعدما بدأت عملًا في ورشة صغيرة لخياطة أزياء العروض.

في إحدى جلسات الاستماع رأى يوسف في الممر يحمل كيسًا من ورشة الساعات. جلس الشاب إلى جوار مروان، ووضع الكيس عند قدمه كما لو أنه يريد أن يترك يديه خاليتين. حين سُمح لإدريس بالحديث إلى محاميه قال يوسف إنه جاء لاستكمال ماُ طلب منه، وإنه أراد أن يريه ورقة قبل أن يغادر.

كانت فاتورة بيع قطعة مقلدة، مكتوبًا في وصفها أنها نسخة حديثة للعرض. السعر أقل بكثير من المبلغ الذي حاول أن يحصل عليه من الساعة الأولى. أشار يوسف إلى الوصف، ثم أخفى الورقة في ظرفها.

قال إدريس: «هذا بيع واضح.»

«قال المشتري إنها لا تستحق حتى هذا الثمن.»

«واشتراها؟»

«اشترى غيرها.»

ضحك يوسف ضحكة قصيرة. كان ما يزال مدينًا، وما اعترف به من معاملات احتاج إلى أن يتحمل تبعاته. بعض الدائنين قرأوا اسمه في الصحافة واتصلوا في اليوم نفسه، وبعض الزبائن صاروا يسألون عن كل قطعة باعها لهم من قبل. قال إن التاجر الذي جرح في محلّه طلب منه أن يأتي أسبوعًا ليساعده في ترتيب المخزن، فذهب. في نهاية الأسبوع دفع له أجرًا صغيرًا وأخبره أن الجرح لا يجعل العمل مجانيًا.

أخرج من الكيس قطعة قماش لم يمسها أحد. أراد أن يحملها معه إلى التاجر بعد الجلسة، لأن الرجل يحب أن يلف بها الأدوات بدل الورق. أعادها، ثم سأل إدريس إن كان يتذكر كيف صرخ باسم عمه يوم الضبط.

«أذكر.»

«كنت غاضبًا منه ليلة الخميس. أردت أن يأخذني على محمل الجد. وبعدها صرت كلما قلت عمي أعني شيئًا مختلفًا.»

نظر إدريس إلى باب القاعة. هناك في الصور رجل يستطيع أن يساعد جمعية، ويحجب وثيقة، ويغضب من ابن أخيه، ثم يقتل. أراد أن يقول ليوسف إن الحزن يحتمل ذلك كله، لكنه وجد العبارة أكبر من حقه في الكلام. سأله عن فاطنة.

قال إنها رجعت إلى المكتبة مرة بعد استكمال الإجراءات التي سمحت بذلك، لتدل الورثة على بعض الأشياء التي تخصها. أخذت علبة شاي كانت قد أحضرتها من بيتها، وغطاء صغيرًا لم يعرف أحد أنه لها. ثم طلبت حساب ما بقي من مستحقاتها. كانت قد استحت

من السؤال في الأيام الأولى، حتى قالت لها امرأة من عائلتها إن موت صاحب البيت لا يدفع كراء بيتها هي.

«هل استوفت حقها؟»

«بدأت الإجراءات، ودفعنا الجزء الذي لا خلاف عليه. الباقي مع من يتولى التركة.»

قال يوسف ذلك من غير أن يجعل نفسه صاحب فضل. كان يراجع ورقة الأرقام مع فاطنة، ويستعمل الإيصالات التي احتفظت بها في علبة بسكويت. من بين أوراقها خرجت صورة لكمال في مناسبة قديمة. أخذتها، وترددت، ثم وضعتها مع أغراضها. قال يوسف إنها سألته إن كان أحد يحتاجها في القضية. أجابها بأنها تستطيع الاحتفاظ بها.

مد إدريس يده إلى طرف المقعد، وسأل عن لالة زهور. أخبره مروان أن إجراءات إعادة الساعة تقترب من نهايتها، وأن الورثة لم يعترضوا بعدما اتضح أصل ملكيتها وما ثبت في الملف. يوسف قال إنه يريد أن يعتذر لها عن النسخة، ثم توقف.

«هل أذهب؟»

نظر إليه إدريس، وفهم سهولة أن يمنحه جوابًا يجعل الزيارة واجبًا على المرأة. قال: «اسألها أولًا إن كانت تريد أن تراك.»

أومأ الشاب، وأعاد الكيس إلى يده. قبل أن يقوم قال إنه سيعود إلى العمل بعد الجلسة. رأى إدريس في الجملة يومًا عاديًا: حافلة، وورشة، وثمن قطعة لا يرضي البائع. حياة ضيقة يمكن أن تتحرك من غير أن يحتاج صاحبها إلى سر جديد.

في يومٍ النطق بالحكم حضرت سلمى. رآها عند آخر الصف، تحمل ملفًا صغيرا وحقيبة عمل. بجوارها سناء، تقلب مفاتيحها في يدها حتى

أمسكتها سلمى وضغطت عليها. سكنت الحلقة.

كان مسار مراجعة إدانتها القديمة قد تقدم بأدلته: إقرار إدريس، وصور الخزنة، ووثيقة التحويل، وما ثبت من حجب معلومات عن البحث الأول. صدر الحكم الذي رد إليها براءتها في تلك القضية. أما الضرر الذي خّلفه الاتهام فاحتاج طلبات أخرى، وأوراًقا لا تعرف كيف تختصر ثلاث سنوات في خاناتها. قالت لمحاميتها إنها تريد أن تذكر الوظيفة التي خسرتها باسمها، لا تحت عبارة عامة عن الضرر.

حين قرئ ما يتعلق بقتل كمال، سمع إدريس اسمه في موضع مختلف من الجملة. انتظر حتى انتهت. براءته من القتل وردت واضحة، ثم جاءت الوقائع التي ُأدين بها، وما ترتب عليها من عقوبة وحقوق. خمس سنوات في ما فصل فيه الحكم من السرقات المرتبطة بالملف؛ وأمام مروان أعمال أخرى بشأن الطعن والحقوق والقضايا التي بقيت مستقلة. كان قد شرح له الاحتمالات قبل الجلسة، لكنه احتاج إلى أن يسمع العدد مرة ثانية في الممر حتى يستقر له معنى.

رشيد ُأدين بالقتل وما ثبت من الأفعال المرتبطة به، وُقضي عليه بالسجن المؤبد بعد الأخذ بظروف التخفيف التي عللتها المحكمة. قرأ إدريس حركة وجهه أكثر مما سمع بقية عباراته. استقبل الحكم بعينين مفتوحتين، ثم انحنى إلى محاميه. بعد ذلك صارت العقوبة والطعون في الأوراق التي يحملها الدفاع. وجهه، حين رفعه، يشبه وجه رجل خرج من مطعم فوجد أن سيارته ليست في الموضع الذي تركها فيه، وأن الجميع ينتظرون منه أن يعرف الطريق.

عند الخروج رفعت سلمى رأسها نحو إدريس. أومأت. كان بينهما شرطي ومقعد وباب، ومسافة أقدم من القضية نفسها. رفع يده قليلًا. لم يطلب منها أن تقترب.

في الممر أخبره مروان بأنه سيأتيه بنسخة الحكم، وأن القراءة تبدأ من أسبابه، وأنهما سيتحدثان عن الطعن بعد أن يراجعاه كاملًا. سأله إن كان قد فهم ما قُرئ.

قال إدريس: «فهمت الجزء الذي قال إنني لم أقتله.»

«والباقي؟»

«أريد أن أقرأه.»

جلسا دقائق قبل نقله. سأله عن الحارس، ثم عن سلمى، ثم عن الرجلين في ملف التأمين. أحدهما عاد إلى بيته قبل أن تبدأ هذه القضية بمدة، والآخر انتهت مدة حبسه أثناء سير المراجعات.
الاعتراف بما وقع لهما لم يستطع إعادة الأيام إلى أجسادهما. قال مروان إن المواد المقدمة فتحت طريقا لمراجعة الأحكام
والمسؤوليات، وإن أحد الرجلين يرفض لقاء إدريس في الوقت الحاضر.

«قل له إنني لن أطلب مرة أخرى»، قال.

كتب المحامي العبارة، ثم سأله إن كان يقصد ألّا يطلب مطلَقا أو أن يترك له القرار. فكر إدريس، واختار الثانية.

بعد أسبوعين جاءته رسالة من لالة زهور. كتبتها ابنة أخيها، ووقعت المرأة في آخرها بخط مرتجف يميل نحو أسفل الصفحة. الساعة عادت إليها بعد استكمال ما لزم من فحص وإجراءات. أخبرته بأنها وضعتها قرب صورة قديمة، وأنها أخطأت أول مرة في اتجاه فتح الغطاء، فضحكت من نفسها لأنها عاتبت الآخرين على جهل شيء نسيته هي.

قرأت ابنة الأخ عليها الرسالة قبل إرسالها. زادت زهور جملة عن البيت: ما زالت الأوراق في المحكمة، وما زالت تسكن حيث كانت

تسكن. أرادت أن يعرف ذلك حتى لا يظن أن الساعة أعادت الجدران معها.

في أسفل الصفحة سطر بخط غير خط ابنة الأخ، أبطأ وأقل استقامة: «عرُفت يده في الصورة. ويدي نسيتها حتى رأيتها.»

طوى إدريس الرسالة على ثنيتها، ثم فتحها. أخرج من الأوراق التي يُسمح له بالاحتفاظ بها صورة مطبوعة للجد والمرأة الواقفة وراءه. كانت اليد التي حجبت الساعة يوًما تمنح الصورة حياة أخرى: شابان، وضوء، وشيء وقع خارج حدود ما نظر إليه هو أول مرة.

في زيارة لاحقة جاء بنعيسى مع ابن أخيه. تأخر عند المدخل لأن بطاقة هويته في الجيب الذي يصعب عليه الوصول إليه بيده المصابة. أخرجها الشاب، فغضب منه، ثم اعتذر وهو يمدها للعون. سمع إدريس القصة بعد ذلك، وضحك رغًما عنه. قال بنعيسى إنه لا يريد أن يتحول كل جيب في ثيابه إلى عمل يحتاج شخصين.

جلسا متقابلين. أحضر الرجل خبًرا عنٍ الحارس، ثم سكت كأنه أدرك أنه عاد إلى مهنته القديمة: يحمل خبرا، وينتظر أن يصلح به شيًئا بينهما.

قال إدريس: «سمعته في المحكمة.»

«جاء من نفسه.»

«أعرف.»

حرك بنعيسى يده تحت الطاولة. سأله إدريس عن العلاج، وعن الحركة التي يتدرب عليها، فشرح له كيف يلتقط قطعة صغيرة من القماش ثم ينقلها إلى وعاء. قالها بضيق رجل قضى عمره يفتح الأبواب بالكلام، وصار تمرينه أن يفتح أصابعه.

بعد قليل قال: «كنت أريد أن تزورني.»

نظر إدريس إلى المكان حولهما. «زرتك.»

«حين صحوت، أقصد. لا أذكر كل شيء.»

حكى له عن الشاحن. ابتسم بنعيسى، ورفع يده السليمة إلى جبهته. «كنت أظن أنك ستقول إنني طلبت السماح.»

«طلبت الشاحن.»

ضحك الرجل، ثم كح حتى جاءه الماء. أعطاه ابن أخيه الكأس. في اللحظة التي استطاع فيها أن يتنفس من جديد، قال: «والآن أطلبه.»

هدأ المكان في أذن إدريس. نظر إلى الكأس، وإلى اليد التي تحيط به، وإلى الشاب الذي تراجع قليلا ليدعهما يتكلمان.

قال: «أسمعك.»

«هذا كل شيء؟»

«هذا ما أستطيع اليوم.»

أومأ بنعيسى. تحدثا بعد ذلك عن المقهى الذي تغير صاحبه، وعن الغرفة التي يحتاج أن يرتبها في بيته كي تصلها الشمس. حين انتهت الزيارة، قام الرجل ببطء، ووضع يده على كتف ابن أخيه من غير أن يتظاهر بأنه يستند إلى الكرسي. رآه إدريس يقبل المساعدة، فبقي ينظر حتى اختفى عند الباب.

في آخر الشهر زارته هناء ضمن الإجراءات المعتادة للزيارة، بعد استكمال ما يلزم. جاءت بثياب مدنية، وحملت كتابًا أجازوا إدخاله. وضعته بينهما. ليس عن الجرائم، ولا عن الأرقام؛ رواية قصيرة قال ابنها إنها بطيئة في أولها ثم تستحق الصبر.

سألها عن الصغير.

«يعتقد أنه صار يعرف كيف تُكتب النهايات أفضل مني.»

«ربما يعرف.»

«هذا ما قاله.»

ابتسمت، ثم سألته عن القراءة هنا. أجاب بأن الضوضاء تغيرت. في البيت كان يستطيع إغلاق النافذة، وهنا يتعلم أي الأصوات يمر وأيها يحتاج أن يرفع رأسه. قالت إن هذا أصعب مما يبدو. نظر إلى الكتاب، وقلب صفحته الأولى قبل أن يعيده إلى موضعه.

أخبرته بأن مراجعة العمل في القضية انتهت إلى تحديد المسؤوليات، ومنها مسؤوليتها عن تحويل الفريق وتأخر الوصول إلى التسجيل. أُثبت أيضا أنها طلبت تتبع البلاغين منذ الأيام الأولى، وأنها سلمت ما وصلت إليه حين نُقلت المتابعة. عادت إلى عملها في قضايا أخرى. لا حفل، ولا صورة عند باب المصلحة، ولا ورقة واحدة تجعل كل قرار سابق صحيحا.

قالت: «صرت أكتب موعد انتهاء التسجيل قبل أن أكتب ما أريد أن أراه فيه.»

كان يمكنه أن يجيب بعبارة عن الخانات الخالية. تذكر دفتره، ثم ترك العبارة حيث جاءت. سألها إن كانت ترى ابنها أكثر.

«أحيانا. والأيام التي أستطيع فيها، أحاول أن أخبره بما أقدر عليه.»

«وهل يصدقك؟»

«يسألني عن اليوم الذي أقصده. ثم يقرر ما سيفعله إذا تأخرت.»

أخرجت من حقيبتها قصاصة من مقال عادل، بعد أن تأكدت مما يسمح بإبقائه له. العنوان «سارق الاحتمالات». تحت العنوان صور

صغيرة للوثائق التي أجيز نشرها، وخط زمني لا يدعي معرفة الدقائق التي بقيت أقوالًا. كتب الصحفي عن الغرفة التي جعلت الدفء يبدو وقتًا، وعن المال الذي أعيد إلى بعض الناس وترك وراءه أشخاصًا آخرين يدفعون الثمن. في آخر المقال اسم الحارس، بموافقته، وعبارة قصيرة من شهادته.

قرأ إدريس العنوان، ثم المقال. قال: «سيظنون أنه اسمي.»

«بعضهم فعل.»

«وبعضهم يريد أن يجعلني رجلًا يعاقب الأشرار.»

«ستجد من يريد قصة أسهل من التي حدثت.»

طوى القصاصة. «اكتبي له أن ينشر رد سلمى كاملًا إذا وافقت.»

«قالت ما تريد ونُشر. تشتغل الآن، وتريد أن تسألها الصحافة عن شيء غير هذه القضية.»

ارتاح للجملة على نحو فاجأه. كانت المرأة التي انتظر براءتها كي يعرف مقدار ما أصلحه تطلب أن تغادر الحكاية التي بقي هو داخلها. سأل عن عملها، فقالت إن سناء أوصت بها في مؤسسة أخرى، وإنها اشترطت أن تُعرض خبرتها كما هي، من غير قصة تعاطف في أول المقابلة. عرفت هناء ذلك من لقاء عابر، ولم تطلب تفاصيل أكثر.

قبل نهاية الزيارة سألت هناء عن طلباته المتعلقة برد الأموال. قال إن مروان يتابعها، وإنه وضع ما يملكه تحت نظر من يتولى تحديد الحقوق. بعض المبالغ يمكن ردها، وبعضها يحتاج وقتًا أطول من العقوبة التي سمعها. أسماء المستفيدين الذين جهلوا المصدر أُدرجت مع ما يدعم ذلك؛ جاءت أسئلة، وخاف أشخاص، وتولى الدفاع شرح ما يعرفه كل منهم. حمايتهم لم تعد تعتمد على أن يخفي أسماءهم داخل رأسه.

قال: «كنت أحسب أنني إذا اخترت الشخص الصحيح انتهى أصعب الأمر.»

«والآن؟»

نظر إلى الكتاب بينهما. كان ينتظر هذا السؤال منذ شهور، ويملك له إجابات مرتبة. رأى فيها الرجل الذي يريد أن يقنع محققته السابقة بأنه تعلم الدرس كله.

قال: «الآن أقرأ ما كتبته وأسأل مروان عّما سيحدث للناس بعده.»

عند انتهاء الوقت قامت هناء، ورفعت الكتاب لتدفعه إليه. بقيت أصابعها عند الغلاف لحظة، ثم تركته. شَكرها، وسألها أن تنقل إلى ابنها أنه سيصبر على البداية.

خرجت إلى الممر، وخلفها أغلق الباب. انتظر إدريس حتى جاء من يصحبه إلى الداخل. حمل الكتاب بيد، وأبقى القصاصة مطوية بين صفحاته.

داخل الغرفة فتح إدريس الكتاب. بين الصفحات ورقة بيضاء وضعها القائم على تسليمه ليكتب عليها ملاحظاته إن أراد. مر بإصبعه على حافتها. تذكر ورقة الحارس، وورقة سلمى، وورقة بنعيسى، وكل مرة ظن فيها أن سطًرا يستطيع أن يقف وحده في وجه ما سيأتي بعده.

في المساء جلس إلى الطاولة التي يتقاسمها مع رجل يريد أن يكتب طلًبا يتعلق بأجر يقول إنه لم يتسلمه. كان قد سأله قبل أيام إن كان يفهم في الحساب، فأجاب بأنه يستطيع أن يراجع الأرقام معه. جاء الرجل الآن بورقة فيها مجموع وقائمة أيام، وأخرى عليها اسم شخص وعنوانه.

قال: «أنت تعرف هذه الأمور. اكتب ما يجعلهم يعطونني حقي.»

أخذ إدريس الورقتين. جمع الأرقام، ثم عاد إلى أول سطر. هناك أيام مكتوبة مرتين، ومبلغ وضعه الرجل من الذاكرة. شرح له الفرق، فغضب أولًا، ثم جلس. قال إن الأمر بدأ قبل ذلك، وإنه يحتاج أن يحكي ما وقع في الأسبوع السابق.

كان إدريس يستطيع أن يخمن بقية القصة. صاحب عمل يؤخر الأجر، ورجل يضيف ما يظن أنه يعوضه، وورقة تصير أقوى إذا اختصرت بعض ما فيها. أحس بالصيغة جاهزة في رأسه، بالجملة التي تحمل أكثر من حقيقة وتترك لكل قارئ أن يختار ما يناسبه.

وضع الأوراق في المنتصف بدل أن يسحبها إلى جهته. سأل الرجل كيف يريد أن يُكتب اسمه. أملاه عليه، وصحح له حرفًا في اسم أبيه. أعاد إدريس قراءته حتى أومأ صاحبه.

ثم رفع القلم عن الورقة، وترك للرجل أن يبدأ.

تمت

دخل ليسرق ساعة.
فوجد أن أحدهم سبقه إلى سرقة الوقت.

في طنجة، يعيش إدريس السراج وفق قواعد يظن أنها تفصل بين اللص والظالم. يختار أهدافه بعناية، ويتحقق من التفاصيل، ويترك لنفسه دائمًا طريقًا للخروج.

لكن مهمة لاستعادة ساعة قديمة تقوده إلى بيت رجل يحتضر، ثم إلى قضية قتل تبدو أدلتها كأنها تعرفه أكثر مما يعرف نفسه.

وبينما تتعقب هناء أثره، يكتشف أن الخطر لا يكمن في الكذبة وحدها، بل في الحقائق التي وُضعت بعناية كي تقوده إلى الاستنتاج الخطأ.

ولكي يجد من دبّر الفخ، عليه أن يفتح أرشيفًا قد ينقذه من القتل... ويدينه بكل ما عداه.



رضا الحكيم الشعيري